© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات

رئيـس التحـريــر: يحيى يخلف

مــديــر التـحـرير: غسان زقطان

مستشار التحريـر: فيصل دراج

يشارك في التحريـر: عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

ادارة: وليد قنة

التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «٣٤» ربيع ٢٠٢٤

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab000000009090480252510

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

الافتتاحية

٧ **اليوم الذي يلي الظلام .. التضحيات والوحدة التي تصنع الاستقلال**

ملف: فلسطين .. تعزيز المقاومة بالوحدة

١١ **تغيرات الموقف الأوروبي تجاه العدوان على غزة**

عبد الغني سلامة

٢١ **«سيوف إسرائيل الحديدية»...**

الأسطورة أمام أطماع الأرض والغاز فى حرب الجيناسيد والدوماسيد

شذى يحيى

٣٣ **الصراع الممتد في فلسطين: رؤى ومطالعات وملفات للتداول/ د. محمد خالد الأزعر**

صلاح عبد الرؤوف

٣٩ **بلاغة المقاومة الرَّقمية في الخطاب الفلسطيني التَّواصلي: الفَضاءات والسّمات**

د. أحمد إبراهيم عزيز

٥٥ **كتابة خلف الخطوط .. يتعدد الكتّاب وتتكامل المشاهد!**

عزيز العصا

٧١ **عن الروائيين والشعراء ومعارض الكتب والتفاعل مع غزة وفلسطين**

بديعة زيدان

٩٥ **حرب الآثار والتاريخ ... أكتوبر ٢٠٢٣**

أ.حسام أبو النصر

١٠٣ **غزّة تفرض نفسها على العالم سينمائيّاً**

يوسف الشايب

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

أوراق الذاكرة

١٢٥ إبداع الحزن النبيل (١٩٤٨-١٩٥٥)

عبد القادر ياسين

١٣٣ مخاض خمسة أعوام

رضوى عبد القادر

١٤١ الجيش وقوات التحرير

د. دينا العشري

١٤٩ الجذور والتراب (محمد أبو ميزر) حوار عن القدس والمنفى والعودة الصعبة

محمد البريم

كتب وتقارير

١٥٩ جهاد صالح ... مكتبة النكبة

أماني جهاد حمودة

١٦٣ رواية رولا صبيح (حياة بعد الموت) محنة اللجوء السوري وتفكيك الأوطان العربية !

فراس عبيد

١٦٩ غادة الكرمي.. العودة إلى «الدولة الواحدة» كحل وحيد للصراع الفلسطيني الإسرائيلي

مهند ياسين

١٧٣ صلاح محمد عبد الرؤوف، المطبعون ينتحون بالشريعة

منى عبد الفتاح رمضان

أوراق المؤسسة

١٧٨ تقرير المؤسسة

اليوم الذي يلي الظلام ..
التضحيات والوحدة التي تصنع الاستقلال

مع كتابة هذه السطور، يبلغ العدوان الإسرائيلي الشامل على شعبنا وعلى الجبهات كافة خاصة في غزة، مئتي يوم، تشهد ولا تزال حجماً غير مسبوق من فظاعة القتل والتدمير والتجويع، مما يجعل هذه الحملة الاحتلالية المسعورة، الحرب الأطول والأكثر دموية في تاريخ الصراع المفتوح بين المستعمر وأهل الأرض المتجذرين فيها، ويستمر المسلسل المفتوح على مصراعيه حول مفاوضات تهدئة وهدنة إنسانية دون أن يلوح في الأفق ما يوحي بوقف العدوان، ولم تكن القرارات المتأخرة والخجولة لمجلس الأمن ذات تأثير على مجريات القتل اليومي، ولم يكن للتصريحات العلنية للرئيس الأميركي حول ضرورة فتح المعابر وتدفق المساعدات أي أهمية على أرض الواقع، ومما يزيد المشهد التباساً حول دخول سجال لا ينتهي حول رد إيراني على تدمير قنصليتهم في دمشق والرد الاحتلالي على الرد الإيراني، وكأن كل هذه الاحداث تعطي وقتاً إضافياً لآلة الحرب الاحتلالية لسجال متكرر حول حملة برية على رفح وانشغال البعض بجوانب ذلك وتداعياته، والحصيلة غير النهائية للشهداء زادت عن اربع وثلاثين ألفاً وارتفع عدد الجرحى الى خمس وسبعين الفاً بينما زاد عدد المفقودين تحت الأنقاض وفي الطرقات عن خمسة عشر الفاً، ناهيك عن التدمير الشامل لكل ما تم بناؤه بالعرق والدم والجهد، ويستمر الحديث عن ادخال شاحنة او اكثر الى شمال غزة أو بعض الادوية والمحروقات، ولاشك أن الرد الإيراني سيعطي لنتنياهو فرصة لحرف الاهتمام عما يجري في غزة كل ما سبق يتزامن مع تصاعد قاتل لهجمات المستعمرين في الضفة وكذلك الأمر استرداد بعض الدعم الدولي الذي فقده.

ويستمر تشديد الخناق على الريف الفلسطيني و تقطيع اوصال المحافظات الشمالية كافة وحصار مشدد على القدس، وتكثيف الهجمة على الأسرى سواءً بزيادة مضطردة لأعدادهم أو استهدافهم بفرض إجراءات قمعية عليهم، إضافة لآلاف المعتقلين الجدد من غزة دون الإفصاح عن عددهم

أو أماكن اعتقالهم، والحديث عن ارتقاء شهداء منهم، إضافة لاعتداءات جنسية ومعاملة تحط من انسانيتهم. وتستمر كذلك إجراءات قرصنة أموال المقاصة ومنع العمال من العودة لأعمالهم في الداخل المحتل، مما فاقم الازمة الاقتصادية لكل قطاعات شعبنا.

أمام هذا الوضع ورغم استمرار العدوان، ومع كل الألم الإنساني المشروع من هول ما يجري، الا أن وقفة تأمل واستكشاف افق اليوم الذي يلي الظلام.. لا بد منها.. ليس الآخرون من يجب أن يرسموا لنا اليوم التالي، بل إن من يزرع ولا يحصد يرتكب جريمة بحق نفسه، فما بالك بزراعة آلاف الشهداء وتقديم هذه التضحيات الجسام؟ هل نحن قادرون على تحويل ذلك الى فرصة سياسية لشعبنا للانعتاق من الاحتلال؟؟ هل من الممكن تحويل العدوان الاحتلالي المستمر الى آخر عدوان له، وأن يرتد الى نحره؟

لا شك بأن العالم اليوم وأكثر من أي وقت مضى، يتحدث وبصوت واضح في عواصم العالم ومدنه عن وقف العدوان وعن همجية الاحتلال وعن عنصرية البعض في الغرب وعن ضرورة انجاز استقلال دولة فلسطين بعد انهاء الاحتلال، وكل هذا هام للغاية، ويجب البناء عليه وهذا ما يتم الآن ولكن من الضرورة بمكان أخذ الحذر، فالسياسة الأميركية لا يعتد بها ولا يجب أن يعتمد عليها دون ان يعني ذلك قطع الاتصال السياسي معها، ويمكن تصليب الموقف العربي ما امكن والاستفادة من التطور الإيجابي للموقف الأوروبي إضافة للأصدقاء في روسيا والصين وإعطاء أولوية قصوى للعمل مع جنوب افريقيا والبرازيل لتطوير موقف الهند، وكل ذلك مهم في مواجهة الموقف الأميركي من أجل الوصول الى الحل النهائي المستند للقانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة ذات الصلة.

كل ما سبق لا يعفينا كشعب فلسطيني بكل اطره من البحث عن القواسم المشتركة لتوحيد الموقف الوطني، فنحن على مفترق طرق لا يحتمل الاجتهاد والتجربة والمغامرة... يجب رص الصفوف في منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد المعترف به لشعبنا على قاعدة: وقف العدوان، تدفق المساعدات، إعادة الاعمار، وقف الاجتياحات والاستيطان وقرصنة الأموال وفتح افق سياسي لإنهاء الاحتلال بجدول زمني معقول، والاعتراف بدولة فلسطين وقبولها بالأمم المتحدة.

ان شعبنا في كافة مواقعه ثابت على حقوقه، راسخ وباق في ارضه، ولن يرحل ولن يتخلى عن حقه بمقاومة العدوان والاحتلال حتى تتحقق حقوقنا الوطنية الثابتة غير القابلة للتصرف.

إدارة المؤسسة

ملف:

فلسطين .. تعزيز المقاومة بالوحدة

تغيرات الموقف الأوروبي تجاه العدوان على غزة

عبد الغني سلامة*

مقدمة

ستة شهور مضت على بدء العدوان الإسرائيلي على غزة، استشهد خلالها نحو ٤٠ ألف فلسطيني، وجرح ضعف هذا الرقم، فضلا عن تدمير نحو ٧٠٪ من منازل المواطنين، وتجريف البنية التحتية، وتعطل كافة الخدمات، في ظل حصار خانق يمنع حتى وصول المساعدات الإنسانية، الأمر الذي تسبب بمجاعة وانتشار الأوبئة وتفاقم الأوضاع المعيشية حتى تحول القطاع إلى منطقة غير صالحة للسكن.. ومع كل هذا الدمار لم يتمكن المجتمع الدولي من فرض وقف لإطلاق النار، أو التوصل إلى هدنة إنسانية، أو فرض عقوبات على إسرائيل.

ومنذ اليوم الأول للعدوان بدا واضحا أنه سيكون مختلفا عن سابقاته، وأنه سيشكل نقطة مفصلية في تاريخ الصراع ومستقبل المنطقة، ليس بسبب شدته وحسب، بل بسبب أبعاده الدولية والإقليمية، وبسبب المخططات الإسرائيلية والأميركية التي لا تستهدف قطاع غزة وحده، بل تستهدف الشعب الفلسطيني كله، وبالتالي سيكون لهذا العدوان تداعيات بالغة الأهمية على القضية الفلسطينية، ومستقبل التسوية، وخارطة الشرق الأوسط عموما.

وبالرغم من أهمية الدور الأميركي ومركزيته في العدوان، إلا أن أسباب ومبررات ومحددات تدخل الولايات المتحدة في الحرب تختلف بدرجة أو بأخرى عن مثيلاتها بالنسبة للموقف الأوروبي، وهذا ما سنناقشه تالياً.

* كاتب وباحث فلسطيني

مظاهر وتجليات الموقف الأوروبي

استنادا إلى المعاهدات التي تنظم وتحدد عمل الاتحاد الأوروبي، وانطلاقاً من المنظومة السياسية والاقتصادية التي تحكم مصالحه، لعب الإتحاد الأوروبي خلال العقود الماضية دوراً مهما في مجمل الأزمات الإقليمية والدولية سواء القريبة منه، أو البعيدة عنه، وقد استند في هذه الأدوار إلى قدرته السياسية وقوته الاقتصادية ومكانته التاريخية، لكن الصورة لم تكن مثالية تماما، فقد أخفق الاتحاد في حل أزمات عديدة، منها ما كانت في داخل أوروبا نفسها، مثل حروب البلقان وبالذات حرب البوسنة. وخلال السنوات الماضية، ظهرت أزمات جديدة خلقت جملة من الخلافات بين دول الاتحاد الأوروبي، كان أبرزها قضية اللاجئين والمهاجرين وتباين المواقف تجاهها، وأيضا الضغوطات الأميركية التي تسعى لجلب الموقف الأوروبي إلى جانب الموقف الأميركي في صراعها مع الصين سواء في الحرب التجارية، أو في قضية تايوان، ولاحقاً الحرب الروسية الأوكرانية والتي أثرت بشكل كبير على دول الإتحاد الأوروبي، لتأتي بعد ذلك الحرب في غزة، والتي أحدثت صدعاً واضحاً بين دول الاتحاد الأوروبي ما بين داعم ورافض للسياسات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية، خاصة قضية الاستيطان، وأيضا الموقف من الحرب على غزة.. كل هذا وسط نمو مضطرد لليمين الإوروبي، فضلاً عن الضغوط الشعبية والمظاهرات الحاشدة ضد الحكومات الأوروبية.

وبسبب التدخلات والضغوطات الأميركية على دول الاتحاد، والتي وصلت حد مصادرة قرارها السياسي والاقتصادي وحتى العسكري، ونتيجة هيمنة وامتداد أحزاب اليمين المتطرف في أوروبا والتي تمكنت من التأثير وبقوة في دوائر صنع القرار الأوروبي، فقد أدى ذلك إلى انعكاسات سلبية واضحة أضعفت قيمة الاتحاد الأوروبي سياسيا، وأضعفت قوته الاقتصادية، وبذلك بدت الصورة وكأن أوروبا فقدت أوراقاً قوية للتأثير بشكل مباشر على التطورات الدولية، وباتت فعالية الكتلة الأوروبية محدودة في التعامل مع أزمات شرق المتوسط، والأزمة الأوكرانية، والصراع الفلسطيني الإسرائيلي، ولم تعد لاعبا مهما، كما يفترض بالقياس مع مكانتها وتاريخها.

وفي الشأن الفلسطيني بدأ الموقف الأوروبي بالتغيّر الإيجابي لصالح الفلسطينيين منذ إعلان البندقية في يونيو ١٩٨٠ والذي دعا إلى الاعتراف بحق الفلسطينيين في الحكم الذاتي وحق منظمة التحرير الفلسطينية في الارتباط بمبادرات السلام. ومن بعده تبلورت العديد من المواقف الأوروبية تجاه الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، والتي بدت أكثر إنصافا وتقدما من الموقف الأميركي، ومتمايزة عنه، مثل الاعتراف بالمنظمة، واستقبال قياداتها رسميا، والدعوة للاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني السياسية والوطنية، وآخرها اعتراف السويد رسميا بدولة فلسطين.

وبالرغم من محدودية الدور والتأثير الأوروبي، إلا أنه يبقى مهما وحيويا بالنسبة للفلسطينيين،

خاصة وأن بإمكان الدول الأوروبية اتخاذ إجراءات عقابية ضد إسرائيل، كما فعلت مثلا بشأن بضائع ومنتجات المستوطنات، أو لعب دور إيجابي بشأن أية تسوية سياسية، كما فعلت في مؤتمر مدريد، وفي رعاية اتفاقية أوسلو. بيد أن هذا الدور لم يتطور حتى الآن للدرجة المطلوبة.

تناقضات وتباين في المواقف

منذ يوم ٧ أكتوبر تقاطر إلى إسرائيل أغلب الرؤساء والقادة الأوروبيين، معلنين عن تضامنهم الكامل مع إسرائيل، وإدانتهم المطلقة لهجمات المقاومة الفلسطينية، ومتبنين بالكامل للرواية الإسرائيلية ومزاعمها حول العمليات، ومؤيدين لإسرائيل في حربها على غزة، ومعتبرين ما تفعله دفاعًا عن النفس.

ولكن، وبالنظر إلى الموقف الأوروبي عموما من الحرب سنجد حالة من التخبط تحكم القرار الأوروبي، إذ يبدو وكأن هنالك انقسامات وتناقضات بين مواقف الدول الأوروبية ذاتها، بين دعم إسرائيل وتأييدها بشكل مطلق من جهة، وبين إدانتها بسبب استهدافها المدنيين، ومطالبتها بوقف الحرب، من جهة ثانية.

وقد بدأت ملامح الارتباك الأوروبي مع بداية العدوان، إذ أعلن أوليفر فارهيلي، المفوض الأوروبي لشؤون التوسع والجوار، التعليق الفوري للمساعدات الأوروبية المقدمة إلى السلطة الوطنية الفلسطينية في اليوم الثاني من هجمات ٧ أكتوبر، بسبب عدم إدانة القيادة للهجمات، بينما أحس مسؤولون كبار بأن هذا التصريح يتناقض مع الموقف التقليدي لأوروبا، ويضع الدول الأوروبية في موقف محرج، ولذلك اضطر بوريل، مسؤول العلاقات الخارجية داخل الاتحاد، للتدخل مباشرة والتأكيد على أن المساعدات المقدمة لفلسطين لن تتوقف.

وقد شهدت قمة القادة الأوروبيين الـ٢٧ التي عقدت في بروكسيل نهاية أكتوبر ٢٠٢٣ انقسامًا أوروبيًا بين الدعم المطلق للتصعيد الإسرائيلي، والدفاع عن اتخاذ مواقف متوازنة من الحرب على غزة، لذلك جاء الموقف الأوروبي الجماعي نتاجًا لتلك المساومات، حيث أشار البيان الصادر عن القمة إلى أن الاتحاد الأوروبي يعبر عن قلقه العميق إزاء تدهور الوضع الإنساني في غزة، ويدعو لإيصال المساعدات الإنسانية بشكل سريع ومتواصل.

كما ظهر التخبط الأوروبي واضحا في موقف الرئيس الفرنسي ماكرون الذي بدا حائرا بين التزامه بدعم إسرائيل والتزامه بمواثيق حقوق الإنسان والقانون الدولي. وكذلك اختلاف الموقف الفرنسي من إسرائيل ما بين بدايات الحرب، وتغير موقفها مع مرور الوقت وسقوط ضحايا مدنيين. وقد تجلى التحول في الموقف الفرنسي حيث انتقل من المطالبة بتشكيل تحالف دولي يدعم إسرائيل على غرار التحالف الدولي لمواجهة تنظيم "داعش"، عقب هجمات ٧ أكتوبر، إلى المطالبة بوقف

القصف الإسرائيلي الذي أصبح يستهدف المدنيين من النساء والأطفال. كما أيدت فرنسا التحركات العربية في الأمم المتحدة سواء من خلال التصويت بالموافقة على القرار العربي بالأمم المتحدة في ٢٧ أكتوبر ٢٠٢٣، وكذلك تأييدها في ١٢ ديسمبر ٢٠٢٣ لقرار الجمعية العامة الذي طالب بالوقف الإنساني لإطلاق النار والإفراج الفوري عن جميع المحتجزين وضمان وصول المساعدات الإنسانية والذي حظي بأغلبية ١٥٣ عضوًا، وقد استمر هذا الموقف الداعم لوقف إطلاق النار في كل المرات التي جرى التصويت فيها على مقترحات قرارات بهذا الشأن؛ حتى أن بريطانيا لم تستخدم حق النقض ولا مرة.

أما بريطانيا، والتي كانت من أولى الدول التي أكدت دعمها المطلق لإسرائيل، وكان رئيس الوزراء سوناك قد زار تل أبيب في اليوم التالي من بدء الحرب حاملا معه شحنة مساعدات عسكرية، بيد أنه بعد ذلك، وتحت تأثير الضغوطات الشعبية بدأ يحاول الظهور بشكل أكثر اعتدالا، فقال أمام القمة الدولية لأمن الغذاء (لندن ٢٠ نوفمبر ٢٠٢٣) إن الأوضاع في غزة مأساوية وتزداد سوءًا، وأن ثمة حاجة لدخول المساعدات الإنسانية، وأنه يضغط من أجل ذلك. ومع استمرار موقفها الثابت الداعم لإسرائيل، إلا أن تصريحات الساسة البريطانيين ظلت تحث إسرائيل على "أن تكون إجراءاتها العسكرية متناسبة، وفي إطار القانون الدولي".

وبرغم امتناع بريطانيا عن التصويت على قرار مجلس الأمن في أواسط ديسمبر، الداعي لوقف إطلاق النار واستخدام الولايات المتحدة لحق النقض "الفيتو"، فقد نادى وزير الخارجية البريطاني ديفيد كاميرون ونظيرته الألمانية أنالينا بيربوك في مقال مشترك في صحيفة صنداي تايمز، بالحاجة العاجلة لتحقيق وقف دائم لإطلاق النار، وإنهاء إسرائيل لعمليتها العسكرية بشكل سريع ودائم بعد سقوط عدد كبير من المدنيين.

وفي ألمانيا أيضا ظهرت خلافات بين رئيس الحكومة ووزير الخارجية، ففي حين يصر المستشار أولاف شولتس على عدم وقف إطلاق النار ومساندة إسرائيل، تتعالى الأصوات المعارضة داخل الحكومة بضرورة مراعاة الجانب الإنساني ووقف قتل الفلسطينيين.

والأمر المستهجن أن يصاحب انحياز الحكومة الألمانيّة السافر شبه إجماع سياسيّ داخليّ منقطع النّظير، تبنَّت فيه جلّ الأحزاب الموقف الرسمي بحذافيره، ما عدا حزب اليسار الذي شكّل بعض الاستثناء. وتجلّى هذا التوافق السياسي في إخماد كل الأصوات الداعمة لفلسطين، تارة عبر محاولة حظر المظاهرات المنددّة بالحرب، ومصادرة منظميها حقّهم الدستوري في التجمّع السلمي، والتعبير عن الرأي. وتارة أخرى عبر وضع كل ناقد لسياسة إسرائيل تحت طائلة معاداة السامية إضافة إلى وقوف ألمانيا بجانب إسرائيل في محكمة العدل الدولية. قد بلغت ذِروة الدعوات الرامية إلى شيطنة

الاصطفاف إلى الجانب الفلسطيني، في محاولة نائبة رئيس حزب الاتحاد الديمقراطيّ المسيحيّ، كارين بْرِين، تجريمَ هتاف "فلسطين حرّة".

أما ذروة التملق والانحطاط فقد تمثلت في موقف وزيرة الثقافة الألمانية "كلوديا روث" في مهرجان برلين السينمائي حين بررت تصفيقها بعد كلمة المخرج الفلسطيني باسل عدرا، والإسرائيلي يوفال أبراهام، اللذين أخرجا فيلم "لا لأرض أخرى" ، أن "التصفيق للمخرج الإسرائيلي اليهودي"!

وخلافا للموقف الأوروبي عامة، عقد كلٌ من رئيسي وزراء بلجيكا وإسبانيا مؤتمرًا صحافيًا أمام معبر رفح في ٢٥ نوفمبر ٢٠٢٣ وطالبا بالوقف الدائم لإطلاق النار وإعطاء أولوية لحل الدولتين، وأن الحل الوحيد هو الحل السياسي، ودعيا إسرائيل لاحترام القانون الدولي الإنساني وإلى التوقف عن قتل المدنيين، وأن تدمير القطاع أمر غير مقبول. مما جعل إسرائيل تستدعي سفيري الدولتين لديها للتعبير عن اعتراضها. وقد صرح رئيس الوزراء الإسباني بأن بلاده قد تتخذ قرارها الخاص حول الاعتراف بدولة فلسطين إذا لم يفعل الاتحاد الأوروبي ذلك.

وعموما غلب التباين على الموقف داخل الاتحاد الأوروبي، فمثلا تبدو تصريحات جوزيب بوريل أكثر تعاطفا وإيجابية في دعم حقوق الفلسطينيين، على عكس رئيسة المفوضية الأوروبية دير لاين المنحازة كليا لإسرائيل.

ومرة أخرى ظهرت تباينات الموقف الأوروبي عندما ادّعت إسرائيل أن عدداً من موظفي وكالة الغوث متورطون في هجمات السابع من أكتوبر، وحينها أعلنت الولايات المتحدة وعدد من الدول الأوروبية عن وقف دعمها للوكالة، فيما امتنعت بعض الدول الأوروبية عن التماهي مع الدعاية الإسرائيلية ورفضت وقف دعمها للوكالة، فيما تراجعت دول أخرى عن قرارها بوقف الدعم، وعادت لاستئنافه من جديد.

وما ظهر هذه المرة في الاتحاد الأوروبي هو كسر لقاعدة الإجماع بشأن إسرائيل، فقد ظهر الخلاف في وجهات النظر، إذ أدانت بعض الدول السياسات الإسرائيلية وأيدتها أخرى، فيما فضلت دول أخرى الحفاظ على مواقفها المتوازنة من الحرب، لكن جوهر الانقسامات في المواقف، جاء مدعوماً بالاحتجاجات الشعبية، خاصة مع تعمق التوترات في الشرق الأوسط والخوف من وصولها لدول الاتحاد الأوروبي.

دوافع تغير الموقف الأوروبي

هناك العديد من الدوافع التي أدت إلى التغير التدريجي في المواقف الأوروبية حول الحرب على

غزة، أولها صمود وثبات السكان المدنيين، رغم تكبدهم خسائر فادحة وتعرضهم لمذابح مروعة، وأيضا صمود حركات المقاومة الفلسطينية، الأمر الذي أفشل مخططات التهجير، فضلًا عن صلابة الموقفين المصري والأردني في رفض تهجير الفلسطينيين داخليًا أو خارجيًا، والتأييد الدولي والذي برز أكثر من أي مرحلة سابقة لحل الدولتين.

وكذلك أدت الصور المرعبة لاستهداف إسرائيل للمدنيين وقصفها المستشفيات والجامعات والمدارس ومراكز الإيواء وسقوط أعداد هائلة من المدنيين أغلبيتهم من الأطفال والنساء، الأمر الذي أضر كثيرا بصورة أي دولة تدعم وتساند إسرائيل، حيث لم يعد الحديث عن "الدفاع عن النفس" مقبولا، ولم تعد هذه المقولة تنطلي على الشعوب، بعد أن تجاوزت إسرائيل كل الحدود.

ومع استمرار العدوان وتكشف الصورة أمام العالم بدأت المظاهرات الحاشدة تندلع في العديد من المدن والعواصم الأوروبية، والتي تطالب بوقف الحرب على غزة وإعطاء فرصة لدخول المساعدات الإنسانية إلى داخل القطاع، بل وتطالب بإدانة إسرائيل والتوقف عن دعمها، وقد شكلت تلك التظاهرات التي كانت تتسع وتكبر كل أسبوع ضغطًا على صناع القرار الأوروبيين نظرًا لحجم المشاركة الكبيرة في تلك المظاهرات والمنددة بالجرائم الإسرائيلية التي ارتُكبت ضد المدنيين في قطاع غزة.

ورغم تحيز الإعلام الغربي وتحديدًا الأميركي والأوروبي للرواية الإسرائيلية، إلا أن الرأي العام العالمي بدأ يتغير ويتشكل بصورة مختلفة، بسبب ضراوة وقسوة الجرائم الإسرائيلية، والانتهاكات الممنهجة ضد المدنيين والأطفال والنساء، ومع وجود جاليات عربية ومسلمة في الدول الأوروبية تطالب بضرورة وقف العدوان، ومع انتشار وسائل التواصل الاجتماعي التي شكلت إعلاما موازيا يظهر كل ما يخفيه الإعلام الرسمي، بدأ يتشكل اتجاه متنامٍ في الوعي، والذي يعتبر أن قصف المستشفيات ودور العبادة واستهداف المدنيين العزل من الأطفال والنساء هي جرائم حرب، وهو الأمر الذي أسهم في التحول في موقف الرأي العام الأوروبي بل والعالمي، لتتراجع معه الرواية الإسرائيلية المزعومة، والتي روجت لها بعض الحكومات الأوروبية، بما دفعها للتراجع النسبي بعد ثبوت كذبها.

وأكثر الفئات التي نالها التغيير هي الفئات الشابة من الأجيال الجديدة سواء في أوروبا وحتى في الولايات المتحدة، لاسيما داخل أوساط الجامعات، فقد أصبح الجيل الجديد في المجتمعات الغربية أكثر تشككًا إزاء السياسة الإسرائيلية نحو الفلسطينيين بما يفوق الأجيال الأكبر عمرًا، حيث تسعى الأجيال الشابة إلى تبني القضايا الإنسانية العالمية ورفض انتهاك حقوق الإنسان والدعوة لتطبيق قواعد القانون الدولي والإنساني، وهو الأمر الذي تجسد في أن المشاركة الأكبر في المظاهرات التي شهدتها العديد من العواصم الأوروبية كانت للشباب، وهو الأمر الذي كان له انعكاسه على المواقف الأوروبية وتحولاتها إزاء الحرب على غزة.

وبرغم عدم فاعلية المواقف الأوروبية وضعف قدرتها على التأثير لتغيير الموقف الإسرائيلي مقارنة بالموقف الأميركي، إلا أن التحول النسبي في تلك المواقف الرسمية إزاء الدعوة لوقف إطلاق النار أو السماح بهدنة إنسانية لإدخال المساعدات الإنسانية، يسهم في الضغط على قادة إسرائيل لدفعهم لإنهاء الحرب.

محددات الموقف الأوروبي تجاه العدوان على غزة

الأول: المحددات التي تفرضها معاهدات الاتحاد الأوروبي، وطبيعة تركيبة الاتحاد، وآليات اتخاذ القرارات، والتي تتطلب الإجماع لتبني أي موقف يعبر عن الاتحاد، مع حرية كل دولة في تبني موقفها الخاص.

الثاني: المصالح الأوروبية في المنطقة؛ وأهمها ضمان تدفق مصادر الطاقة لأوروبا، ووصول الإمدادات والبضائع، وتدفق الحركة التجارية، وحرية الملاحة (خاصة باب المندب، وقناة السويس)، وبالطبع ما يجري في فلسطين يؤثر على ذلك كله.

الثالث: تأثرها وخضوعها للضغوطات الأميركية؛ وفي هذه النقطة تحديدا تجدر الإشارة إلى مسألة مهمة، لها علاقة بظهور جيل جديد من رؤساء الحكومات ورؤساء الأحزاب والبرلمانيين الأوروبيين متوسط أعمارهم بين ٣٠ إلى ٤٥ عاما.. وهؤلاء قادوا بلادهم برؤية مختلفة تتمحور في الفلك الأميركي، وتخضع للسياسات الأميركية، وأبرز دليل على ذلك موقفها من الحرب الروسية الأوكرانية، حيث استنزفت أميركا قدرات أوروبا، وأجبرتها على اتخاذ مواقف سياسية ضد مصالحها القومية والاقتصادية.

فمعظم قادة الدول الأوروبية الجدد تم إعدادهم لهذا الغرض، أي ليكونوا بيادق يحركها حلف الناتو.. وقد تم ذلك على مهل، وجرى إعدادهم بعناية، وإرسالهم في رحلات دراسية إلى واشنطن، ودعمهم من قبل المخابرات الأميركية، وبتوصيات من مراكز أبحاث متخصصة ومن منظمات دولية وأباطرة رأس المال، وجرى دعمهم إعلاميا وتسهيل مهمة وصولهم للسلطة، وهم في هذا السن المبكر. والغرض من ذلك كله إدامة احتلال حلف الأطلسي لأوروبا، وهذا المشروع بدأ بخطة "مارشال" في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وتمت إدامته عبر التخويف من الخطر السوفييتي، ثم من الخطر الروسي، أو الصيني.. والإبقاء على القواعد الأميركية، وعلى علاقة التبعية والخضوع لأميركا، وأخيرا عبر تنصيب رؤساء وقادة بمعرفة وتدبير وكالة المخابرات المركزية.

وتحت شعارات "القيادات الشابة"، و"التجديد"، و"تمكين المرأة"، و"المساواة"، يتم اختيار شبان

متميزين وأذكياء وطموحين ممن درسوا في جامعات معينة، ويتم تدريبهم في مؤسسات خاصة، وفتح الطرق أمامهم لوصولهم أعلى المناصب.. ولتلميع هذه الظاهرة وجعلها جذابة وعصرية وذات مصداقية يتم الترويج إعلاميا لمسلكيات محببة تظهر تواضعهم ونزاهتهم.

وإضافة للحرب الأوكرانية فقد ظهرت مواقف أوروبا المنحازة في كل ما يتعلق بالصراع العربي الصهيوني وبمكانة إسرائيل بالنسبة لأميركا، وموقعها المصان في الإقليم، بما يضمن بقاءها، واستمرار تفوقها، ودليل ذلك التحولات السلبية في الموقف الأوروبي التقليدي، والمعايير المزدوجة التي تستخدمها أوروبا في النظر للقضية الفلسطينية، ونفاقها لأميركا ولإسرائيل والذي وصل حدا غير مقبول.

الرابع: الضغوطات الشعبية؛ حيث تواجه غالبية الدول الأوروبية ضغوطا متزايدة بسبب الغضب الشعبي تجاه سياسة التعامل مع الحرب، وأصبحت الحكومات متهمة بازدواجية المعايير فيما يتعلق بحقوق الإنسان. وقد أثرت الصور المروعة للأطفال القتلى في غزة على الشارع الأوروبي وعززت حالة الغضب ضد الحكومات التي أظهرت مساندة ودعما مطلقا لإسرائيل. وقد لعبت الدبلوماسية الفلسطينية (والعربية) دورا إيجابيا بهذا الاتجاه.

الخامس: نمو وتصاعد أحزاب اليمين، وهذا الصعود يتماشى مع موجة صعود اليمين المتطرف في معظم دول العالم، وله أسباب متعددة مركبة، من بينها موجات الهجرات الكبرى من اللاجئين (وأغلبهم عرب ومسلمون)، الذين لجأوا إلى أوروبا، وبدأت تظهر معهم مشاكل متعددة، وبدا وجودهم يقلق الشارع، ويهدد بتغيير أنماط معيشتهم، وقد استغلت أحزاب اليمين ذلك للتحريض ضد كل ما له علاقة بقضايا العرب والمسلمين، وبالطبع أبرزها قضية فلسطين.

السادس: المصالح المشتركة والاتفاقيات الثنائية بين إسرائيل والدول الأوروبية، بما يشمل العلاقات التجارية والاقتصادية، والتعاون في المجالات الأمنية والاستخباراتية، وحتى المجالات العلمية والتكنولوجية والجامعية.. إضافة إلى تأثيرات وضغوطات اللوبيات اليهودية في أوروبا، حيث تنتمي نخب من يهود أوروبا لأحزاب ومنظمات سياسية واجتماعية، ولها سيطرة على الإعلام، وهذه تشكل أداة ضغط على السياسة الخارجية والداخلية للاتحاد الأوروبي. حتى أن دولة مثل السويد سبق أن اعترفت بدولة فلسطين، ولكن مع تغير الحزب الحاكم، ومع تأثيرات اللوبي الصهيوني بدأت تتبنى مواقف وتطلق تصريحات منحازة لإسرائيل! بالرغم أن لأوروبا مصالح مشتركة وحيوية مع العرب عموما، ومع الفلسطينيين أيضا، لكن الدول العربية لم تستخدم لعبة المصالح في التأثير على الدور الأوروبي، كما أن أوروبا فضلت مصالحها مع أميركا وإسرائيل على مصالحها مع العرب والفلسطينيين.

لكل ماسبق ذكره، لا يجب أن نتفاجأ بهذا الحجم الكبير من التضامن الأوروبي والأميركي مع إسرائيل، وإن كان هذا الدعم غير مسبوق من حيث زخمه وسرعته؛ إلا أن أهدافه الإستراتيجية

معروفة: حماية إسرائيل، ببساطة لأنها صنيعة بريطانيا أولاً، وصنيعة الغرب الاستعماري عموما، ومشروعه الإستراتيجي الذي أشرف على بنائه بأدق التفاصيل، وأنفق عليه تريليونات الدولارات..

كما يتوجب إدراك أن الدعم العسكري الأميركي والأوروبي لإسرائيل ليس لمساعدتها في القضاء على حماس، أو قصف وتدمير غزة.. فهذا الهدف يتكفل به الجيش الإسرائيلي بمفرده، والهدف الأهم هو ردع إيران (وحزب الله) من استغلال الوضع وضرب إسرائيل، وبالتالي للحيلولة دون حدوث تغييرات في الخارطة الإقليمية قد لا تتناسب مع المصالح الأوروبية والأميركية.

ومن جملة المصالح الأوروبية في المنطقة، إضافة إلى مشاريع الطرق التجارية الدولية، والممرات المائية، والبديل عن قناة السويس، اكتشاف الغاز في شواطئ غزة.. وكما تطلب الصراع على منابع الغاز وطرق تدفقه وتوصيله إلى أوروبا تدمير سورية وإخضاعها وتهجير سكانها، ستتطلب هذه الحرب تدمير غزة وإخضاعها وتهجير سكانها، ببساطة لأن هذه المشاريع الدولية العملاقة الجديدة تعتمد على مدى قدرة إسرائيل على حمايتها، وهي مشاريع تقع على مسافة أميال من قطاع غزة وربما في قلبها.

خلاصة

مع استمرار وتصاعد الحرب العدوانية على غزة، ومع حجم الدمار الهائل، وعدد الضحايا غير المسبوق.. أُصيب الشعب الفلسطيني، وكذلك الشعوب العربية وشعوب العالم قاطبة جميعا بخيبة أمل من تقاعس وعجز المنظمات الدولية عن التدخل لوقف العدوان، وخيبة أمل كبرى من موقف الدول الأوروبية، من صمتها، ومن مواقفها الضعيفة، والمتآمرة، ومن عجزها على الأقل عن القيام بأدوارها في إدخال المساعدات وإنقاذ الضحايا المدنيين..

وقد بدت أوروبا مستسلمة لنفوذ اللوبي الصهيوني، وضغوطات الإدارة الأميركية، ومتأثرة بالبروباغاندا الإسرائيلية، ومتساوقة معها إلى حد كبير، فظهرت منحازة لإسرائيل، وأخذت موقفا سلبيا لا يتناغم مع رسالتها الإنسانية التي طالما تباهت بها، ولا مع أدوارها الوظيفية ومكانتها التاريخية..

وهذا الموقف الأوروبي فضح ازدواجية المعايير التي صارت صفة ملتصقة بالسياسات الأوروبية، وقد انكشف مدى الزيف والكذب في تبني تلك الدول للقيم الحضارية والقوانين الدولية، الأمر الذي وضعها في موقف حرج تجاه شعوبها، وتجاه شعوب العالم بعد أن صارت قيمها على المحك..

الصورة الإيجابية الوحيدة التي أتت من أوروبا تمثلت في التظاهرات الشعبية الحاشدة التي عمت

معظم المدن والعواصم الأوروبية، والتي رفضت العدوان، وأدانت قتل المدنيين، ودعت حكوماتها لاتخاذ مواقف إنسانية عادلة ومتوازنة تجاه الفلسطينيين. وربما نضيف بعض المواقف الإيجابية والمختلفة ولكنها ما زالت مترددة وخجولة، مثل مواقف كل من إيرلندا، وإسبانيا، وبلجيكا التي عبرت فيها عن دعمها للشعب الفلسطيني، وحقوقه الوطنية، ولوحت بإمكانية الاعتراف بالدولة الفلسطينية.

الهوامش

1. حسن مرهج، أوروبا وتداعيات الحرب في غزة، 24 i الإخبارية، 19-2-2024. https://2u.pw/KpHkqaah
2. مبارك أحمد، حدود التغير في الموقف الأوروبي من الحرب على غزة، القاهرة الإخبارية، 19-12-2023. https://2u.pw/zgRAXwJ6
3. عبد الكريم أهروبا، في انحياز ألمانيا إلى إسرائيل في حربها على غزة، الجزيرة نت، 5-11-2023. https://2u.pw/YABiGmPr
4. تباين المواقف.. هل تخلق حرب غزة شرخا داخل الاتحاد الأوروبي، سكاي نيوز عربية، 16،11،2023، https://2u.pw/oUdA35L
5. مبارك أحمد، حدود التغير، مصدر سبق ذكره.

«سيوف إسرائيل الحديدية»...الأسطورة أمام أطماع الأرض والغاز فى حرب الجيناسيد والدوماسيد

شذى يحيى*

«سجلوا أمامكم هذا الدرس! الماضى كله ما هو إلا حاضر ولايقف بينكم وبين فنائكم إلا السيف فى ايديكم».

الشاعر حاييم جورى ١٩٦٩

«ستفضح هذه المدينة كل المطبعين، وستخزى كل المنسقين، وستكشف حقيقة كل المفرطين والمتنازلين».

يحيى السنوار- زعيم حماس فى غزة

«٧ اكتوبر حدث سوف يغير العالم وسيتردد صداه خلال القرن الواحد والعشرين».

الرئيس الأميركي جو بايدن

«هذه ليست قصتى الشخصية وليست قصة شخص بعينه، على الرغم من أن جميع أحداثها حقيقة. كل حدث منها أو كل مجموعة أحداث تخص هذا الفلسطينى أو ذاك «.

يحيى السنوار «الشوك والقرنفل - رواية»

«إسرائيل ترفض الضغوط الدولية لمنعنا من دخول رفح، سندخل إلى رفح ونقضي على كتائب حماس ونعيد الأمن ونجلب النصر».

بنيامين نتانياهو - رئيس وزراء اسرائيل

«علينا العودة إلى النقطة التى خرجنا منها ،السعى وراء كمال الأرض بطريقة سلمية، لكن إذا هوجمنا لن تعود الحدود مقدسة أمامنا «

يسرائيل جليلى أبو سياسة الاستيطان فى الأراضى المحتلة

---

* باحثة من مصر.

«دعونا لا نخاف رؤية البغضاء التى تصاحب وتملأ حياة مئات الألوف من العرب الذين يسكنون حولنا، ويترقبون اللحظة التى تتمكن فيها أياديهم من الوصول لدمائنا، دعونا لا نحول أعيننا كى لا تضغف أيادينا ،هذا هو قدرنا، هذا هو خيار حياتنا، أن نكون مستعدين ومسلحين، أقوياء وأشداء، أو سوف يسقط السيف من أيدينا، وتنتهى حياتنا «

موشى ديان وهو يشغل منصب رئيس أركان الجيش الإسرائيلي عام ١٩٥٦

«الصراع بين الإسرائيليين والفلسطينيين هو صراع سياسي أيدولوجي وليست قضية تطهير عرقي وإبادة جماعية، ولا أرى توفر أية أدلة على توفر القصدية المتعمدة في سقوط ضحايا مدنيين لدى الجيش الإسرائيلي».

جوليا سيبوتيندي القاضية فى محكمة العدل الدولية .

«»هناك فجوة بين نية إسرائيل حماية المدنيين والنتائج على الأرض فى غزة».

انتوني بلينكن - وزير الخارجية الأميركي

«إسرائيل تدافع عن نفسها وتدمير حماس عسكرياً أمر غير قابل للتفاوض».

ليندسي جراهام- عضو مجلس الشيوخ الأميركي

«يجب إعطاء الدعم الكامل لجنودنا الذين تصرفوا بطريقة ممتازة أمام جموع الغزيين الذين حاولوا المس بهم»

ايتمار بن غفير- وزير الامن القومي الإسرائيلي

«المجاعة في غزة ليست نتيجة كارثة طبيعية وإنما بسبب حكومة نتانياهو».

عضو مجلس الشيوخ الأميركي فان هولن

«لقد ذهب كل شيء هباء وضاع كل شيء لقد فقدنا أحلامنا».

هديل شحاتة ٢٣عام - فتاة من غزة

«النقطة المهمة هي أن الجيش الإسرائيلي وقع فى حب ما كان يفعله بالفلسطينيين، إلى درجة الإدمان».

شيمون نافيه - الرئيس السابق لمعهد التنظير العسكري الإسرائيلي

«المهانة هي الأساس الأبدي للشر. إنها تدمر أجساد وأرواح المقموعين...، إنها تعلو وتمتد على هيئة قسوة داخل القامعين، تخلد نفسها بين الناجين، وتنسج خيوطها بألف طريقة ضد إرادة الجميع، على هيئة الظمأ للإنتقام».

بريمو ليفى في كتابه «الهدنة»

«نخوض حرباً غير متكافئة، ولكنها ستدرس فى العالم».

أبو عبيدة- الناطق باسم كتائب القسام

فى كتابه (إتحاف الأعزة فى تاريخ أهل غزة) كتب الشيخ عثمان الطباع (١٨٨٢-١٩٥٠) عن وضع أهالى المدينة بعد هجوم الإنجليز عليها «رحل جميع أهل غزة بحالة تفطر الأكباد إلى القرى القريبة طمعاً فى قرب عودتهم إليها وتركوا أكثر موجوداتهم وأثاثهم فى دورهم تلك المدينة التي وصفها المتقاتلون بأنها بوابة القدس سويت بالأرض فى ثلاثة معارك ضارية، هُجر منها أهلها قسراً و قضي على معمارها التاريخي ولم يبقَ فيها لا أخضر ولا يابس، ثم بعد إعلان الانتداب البريطانى وإعلان وعد بلفور لم تدخل المدينة فى مشروع فلسطين التوراتية، ولذلك فقد أهملت سلطة الانتداب إعادة إعمارها رغم عودة الغزيين إلى منازلهم فى المدينة، ما دفع رئيس بلدية غزة فهمي الحسيني لمطالبة المندوب السامي البريطاني آرثر جرينفيل وايكهوب في ٢٤مارس١٩٣٢م بإعادة إعمار المدينة.

خاطب الحسيني وايكهوب قائلاً «كانت غزة قبل الحرب العظمى فى حالة يسر ورخاء فلما وقعت الحرب قضى عليها نكد الطالع أن تكون ساحة للجيوش المتقاتلة.....التي صوبت قنابلها على المدينة فدمرتها وتركتها خراباً يباباً ومع الأسف الشديد تخلت الحكومات جميعاً عن إسعافنا وبقينا قابعين فى خرائبنا .....ولو كانت مدينتنا إحدى مدن بلجيكا التي خربت أثناء الحرب لأعيد بناؤها أحسن من حالنا الأولى»، يبدو خطاب الحسينى كأنه يصف حال غزة اليوم هو يصف الفصل الأول فى صراع المدينة الصغيرة مع الإمبريالية وهو وصف يكاد يطابق الوصف الحالى فى معركة قد لا تكون الأخيرة مع أطماع وأيدولوجيات وقناعات تفوق الرجل الأبيض وتحقيق مملكة الله وإقامة الهيكل ،ومعارك القوى العظمى ،والشركات متعددة الجنسيات ،وحروب الطاقة. صراع يتلخص في رغبة بشر بسطاء فى السلام والحرية والعيش بكرامة أمام أطماع وجشع عالم بأكمله يرى أن حقه فى الدفاع عن أطماعه وأساطيره وأوهامه الجشعة يسوغ له المشاركة فى محو أكثر من ٢مليون إنسان بتراثهم وأثرهم وبيوتهم من على وجه هذه الكرة التعيسة التي تئن من التلوث والحروب.

فضحت المدينة بالفعل المطبعين والمتنازلين ،ومعهم فضحت أسطورة الحضارة الغربية والتحضر وحقوق الإنسان والديمقراطية المزعومة، كشفت الوجه القبيح وأظهرت أن العالم هو هو لم يتغير منذ مئة عام، فقط اختلفت أدوات التواصل وقبلها تطورت آلات القتل لتصبح المذابح منقولة صوت وصورة على شاشات المقاهي والمجالس وحتى غرف النوم ومرآة فى كف كل حامل هاتف محمول يرى فيها عجزه أو توحشه، حسب ما يدور في رأسه.

فضحت المدينة أيضا دعاوى إسرائيل واحة الديمقراطية وجيشها الأكثر أخلاقية الذي لايقهر، فضحت أسطورة الردع وشرطي المنطقة ،والمدينة الفاضلة ،عرت التطرف والأنانية والقسوة، صراعات المصالح فى مجتمع متفكك لايوحده إلا الاستعلاء والقمع ومص دماء الضعفاء، انتفضت

المدينة محاولة أن تجد لنفسها مكاناً فى عالم حكم عليها بالحصار والموت كأنها أنتيجون الأساطير التي حكم عليها بالموت حية فى كهف مسدود بالحجارة.

«الوقت يداوي الآلام القديمة بينما يخلق آلاماً جديدة» مثل شعبي إسرائيلي شائع وهذا هو ماحدث تماماً.

قبل السابع من أكتوبر كانت إسرائيل تضع لمساتها الأخيرة على مكانتها الجديدة كحليف استراتيجى وشريك لأغنى أغنياء المنطقة، وقف نتانياهو واضعاً إسم إسرائيل على خريطة فلسطين التاريخية فى الأمم المتحدة على مرأى ومسمع من العالم مبشراً بطريق البهارات من الهند إلى أوروبا، متفاخراً بركوبه سفينة أموال الخليج وسط بحار الخوف من الخطر الشيعي الإيراني، مهملاً عن عمد ذكر علاقاته بالأردن ومصر، وأعدائه فى لبنان وغزة، أما الضفة الغربية فهي بالنسبة له أرض يهودية تنتظر تطهيرها من شراذم الفلسطينيين، الرياح مواتية فى خط مايسمى بالقبول الإقتصادي والثقافي والدمج وتحقيق السلام الإقتصادي كما يطلق عليه فى أوجه فمجتمعات السوق تصبح أقل ميلاً إلى الإنخراط فى صراعات عنيفة بين بعضها لأنها مرتبطة بعلاقة إعتماد متبادل مريحة للطرفين، الإتفاقات الإبراهيمية تسير على مايرام، مسار التطبيع مع المملكة السعودية بثقلها الروحي والمادي يقترب من محطته الأخيرة كذلك الإتفاقات تجري في الخفاء مع أندونيسيا أكبر دولة إسلامية في تعداد السكان، ونتانياهو ينتظر إجتماعه مع مندوبي شركتي إينى وبريتش بتروليوم في العاشر من أكتوبر لمناقشة إستغلال حقلي غاز «مارين١-مارين٢» الواقعين قبالة غزة دون استشارة السلطة الفلسطينية ولا الحكومة المصرية.

المجتمع الإسرائيلي الآمن جداً بعد إنتخابه حكومة من صقور اليمين يسعى حثيثاً لتوطيد مقومات الهوية اليهودية للدولة كما حلم بها الآباء، وتعزيز الاستيطان، والتسريع بتقويض الأقصى لبناء الهيكل بعد خفوت أصوات المعارضة الضعيفة ضد عنصريته وممارساته القمعية والتطهيرية، لاشيء يعلو فوق صوت إسرائيل وحقوقها كل الحقوق لها والباقي خارج السياق لذلك لم يكن غريباً تصنيف الشعب الصهيونى من أسعد شعوب العالم فالكل يدعم إسرائيل ويرحب بها.

حتى صراع التعديلات القضائية صور على أنه جدل ديمقراطى وظاهرة صحية لمجتمع يدافع عن حقوقه وعقده الاجتماعي، ولا يمكن مقارنته بالدكتاتوريات المتخلفة البشعة الجاهلة حوله، إسرائيل الديمقراطية المتقدمة هي القاطرة التي ستضع المنطقة على المسار الصحيح.

ثم جاء يوم السابع من أكتوبر ليقلب كل الموازين ويصبح يوماً أسطورياً فى الرواية الصهيونية ووجهاً آخر للأسطورة في الرواية العربية، فى مقالته عن الإنسان كتب إرنست كاسيرر «إن الوظيفة الأساسية للأسطورة تتمثل فى الصمود وقت الأزمات الإجتماعية والحفاظ على الوحدة بين العالم

والطبيعة والبناء الإجتماعي كوحدة واحدة، أساس الأسطورة هو الإنتصار على الموت كحقيقة والتأكيد على وحدة واستمرارية الحياة».

هكذا فعل اليهود. بالهولوكست وبغزوة خيبر التي يحلو لبعض المحللين الصهاينة قول أن ما يسمونه مذبحة أكتوبر هو امتداد لها، وفعله الفلسطينيون بالنكبة، ولذلك فإن هذه الحرب أحيت ذكرى الحدثين الهولوكست والنكبة، يحلو لبنيامين نتانياهو تذكير العالم منذ بدء الحرب أن عدد القتلى اليهود هو الأكبر منذ المحرقة وينفى دائماً أن هدف إجتياح غزة هو تهجير الفلسطينيين فى نكبة جديدة رغم الطرح اليومي للمصطلح على وسائل الإعلام الإسرائيلية وفي خطاب وزراء حكومته.

بالنسبة لإسرائيل فإن سبت الأسبوع الأول من أكتوبر٢٠٢٣ سوف يصبح بتعبيرات زئيف جابوتنسكى «ميت حي يفيق من موته فى داخل حلقة لا نهائية من الحياة والطبيعة»، مثله مثل الهولوكست وقصة روعي المستوطن الأشقر الذي نعاه ديان عند مقتله فى مستوطنة ناحال عوز عام١٩٥٦م على أنه قتيل الحضارة ومعركة تل حي التي شهدت قتل ستة مستوطنين في الجليل قبل قيام اسرائيل.

تساوى المعتدى عليهم فى الهولوكست مع المعتدين على أراضي الفلسطينيين وحياتهم فنهر الدم لا يقف بين العرب واليهود بل بينهم وبين أن يحدث لهم ما حدث لآبائهم في أوروبا هذه هي الأسطورة.

بالنسبة للفلسطينيين فهذه المعركة ستصبح النصر الأول فى تاريخ الصراع حتى لو لم يكتمل، النصر الأول في طريق من المعارك الخاسرة، هذا النصر يجعل من غير الممكن ممكناً، وهذا واحد من أهم الأسباب التي تجعل من هدم غزة ضرورة وتسويتها بالتراب هو الأساس لأنها جعلت من المستحيل ممكناً، جعلت حلم الوطن قابلاً للتحقيق، النصر يقوم على أسطورة ثالوث قومي مقدس هو المكان والموت من أجله وذكرى هذا الموت، ولذلك يهدم كل أثر للمكان لمعالمه لكي تمحى الذكرى حتى القبور تنبش ويلقى بالأشلاء على قارعة الطريق.

الإسرائيليون يتحدثون صراحة أن خارطة غزة لن تعود أبداً لما كانت عليه يوم السابع من أكتوبر، ويوأف جالانت وزير الدفاع الإسرائيلي يتحدث عن تغيير الواقع في غزة، ونتانياهو يزايد عليه بأنهم سوف يقومون بتغيير الشرق الأوسط ككل وأن هذه هي البداية لكن الأمر يتطلب وقتاً والمطلوب هو الصمود في الأيام المقبلة، الحقيقة أن إسرائيل أيضا لن تعود كما كانت والواقع الإسرائيلي تغير بالفعل ولن يعود كما كان.

عادت إسرائيل كما بدأت بل أقل، تعرت ككيان عنصري مدعوم من قبل الولايات المتحدة وحلفائها

الغربيين لحماية مصالحهم خسرت الرأي العام العالمي ومعه موطئ القدم الذي كسبته، بل ووقفت فى محكمة لاهاي كمتهمة، المحكمة نفسها التي كانت بداية نشأتها لمحاكمة النازيين عما فعلوه باليهود ولم تستطع الدفاع عن نفسها حتى بالتلاعب بالألفاظ والحجج القانونية، كما هوجمت في الكونجرس من قبل من كانوا يناصرونها، خسرت إسرائيل رغم أنها تحاول نفي الخسارة بالركض للأمام والركض للأمام يعني محو أثر الآخر عبر تطهيره عرقياً والأهم تطهيره مدينياً محوه من على وجه الأرض.

ماركس كان يرى أن الحضارة هي محصلة البشر والبيوت والطرق والمواصلات والمعتقدات والأفكار التي تخص شعباً. تعريفات أخرى تضيف المعابد وقبور الأجداد والذكريات إلى هذه المحصلة وما تفعله إسرائيل الآن هو محو كل هذا ليرحل البشر بعدها أو يموتوا سيان، تحقيق لحلم إسحق رابين عندما قال أنه يأمل أن يستيقظ يوماً ليجد غزة وقد إبتلعها البحر.

الأمر الآن لا يقتصر على غزة فالحكومة اليمينية المتطرفة استغلت الكشف عن وجهها القبيح لتسرع بلا خجل ولا خشية، فى زرع أعلام الكيان فوق أراضي الفلسطينيين في الضفة بدعوى تحويلها لمحميات طبيعية وهدم المنازل في أريحا وسرقة البيوت والماشية في النقب على أمل أن يمحو الزمن قبح الفعل فيما بعد.

فشل غزة لابد أن يمحى، القطاع لابد أن يمحى لتخرج إسرائيل منتصرة، وإذا كان الغرب يريد إنتصار إسرائيل وعدم تكرار الهولوكست لابد أن يسمح بذلك هذا هو مفهوم الإسرائيليين عن النصر، مفهوم صدم عضو مجلس الحرب الإسرائيلي بينى جانتس عندما اكتشف أن الدول الغربية لا تشاركه في تبنى هذا المفهوم رغم تبنيها فكرة القضاء على غزة وليس حماس، كرد للفشل التام الذي حدث لجيش الدفاع السيناتور الديمقراطي تشاك هومر وهو من كبار داعمي إسرائيل كان واضحاً في إيضاح نظرة الولايات المتحدة والغرب في الخشية من أن إسرائيل قد تصبح منبوذة في العالم وحتى في الولايات المتحدة لو استمرت على هذا النهج بل كان أكثر صراحة فى إيضاح أن مستقبل إسرائيل سينتهي دون الدعم الأميركي.

نعم ماحدث للجيش الإسرائيلي بلغة العسكريين هو فشل تام أكبر من ذلك الذى حدث في لبنان عام ٢٠٠٦م بكثير والتي استطاعت وسائل الإعلام والدعاية وألاعيب السياسة في تلك الفترة التغطية عليه، لأن المعطيات المعلوماتية والاستراتيجية لم تتطابق مع ما يحدث على الأرض، عقب هذا الفشل سعى الجيش الإسرائيلي لتطوير إستراتيجية تعتمد على ثلاث عناصر أساسية هي تعزيز الجبهة الداخلية وإدخال التكنولوجيا بفاعلية والمناورات العسكرية، وبالطبع تضييق الحصار أكثر وأكثر على الضفة والقطاع والقدس والجدر الأسمنتية الفاصلة المزودة بالكاميرات وأحدث إختراعات

التكنولوجيا والذكاء الإصطناعي متناسين أنه لم يفلح جدار أبداً في الحروب عبر التاريخ، لا سور هادريان ولا سور الصين ولا سور سليمان الذي إنهار أمام جحافل البابليين، وحتى خطي ماجينو وبارليف، وخلال الأعوام التي تلت حرب لبنان أجرى الجيش الإسرائيلي مئات المناورات في الشمال في ظروف تشبه ظروف جنوب لبنان وركز تماماً في هذه الجبهة، أما غزة فقد إكتفى الجيش رغم الإحتكاكات المستمرة بضربات الطيران والتوغلات والاغتيالات والتصفيات أحياناً وطبعاً سياسات العقاب الجماعي المستمرة في الأراضي المحتلة، كان الوضع بوصف شيمون نافيه رئيس لواء الشرق عن الأوضاع في فلسطين «عندما تخوض حرباً ضد منافس أدنى منك بكل الوسائل، قد تفقد رجلاً هنا أو مقاتلاً هناك، لكنك ستتمتع دائماً بالسيطرة الكاملة على ميدان المعركة».

قواعد اللعبة تغيرت بعد بداية طوفان الأقصى المقاتلين في الفصائل تطورت أساليبهم بتطور أساليب مقاتلي العدو، لم تعد الأنفاق فقط هي نقطة قوة حماس والفصائل بل التفوق التكتيكي وإستخدام التكنولوجيا، فلأول مرة تثخن المقاومة الاسرائيليين بالجراح فى عقر دارهم وتسقط أساطير ألوية مثل الجفعاتى والجولانى، وتتسبب فى مئات القتلى والجرحى والمعوقين بل وتشل المجتمع الإسرائيلي إقتصاديا بسبب إلحاق عدد هائل من جنود الإحتياط بالخدمة.

ويبقى العامل الثابت «الأرض»، هي أيضاً تقاتل مع أصحابها لذلك كان لابد من إعادة تسويتها وتخطيطها لتناسب المحتل هذه النظرية التي بني عليها المعمار الذي قامت عليه دولة إسرائيل على أنقاض فلسطين، بدأه الإنتداب البريطانى واستمر كالأخطبوط، ثم طوره أرييل شارون وبقيت غزة عصية عليه بعد فك الإشتباك من طرف واحد وإخلاء المستوطنات تبدو ظاهرة في الطرق الجديدة التي يستحدثها الجيش الإسرائيلي وهدم البيوت وتحطيم البنية التحتية والمؤسسات الصحية والتعليمية وطرد وكالة غوث اللاجئين وتكتيك جز العشب الذي يقوم على إبادة أكبر عدد من السكان المدنيين خاصة النساء والأطفال للحد من التضخم الديمغرافي.

الإسرائيليون يدعون أن دخولهم لغزة كان بسبب أن السكان رهائن في يد حماس تستخدمهم كدروع بشرية وتختبأ بينهم وتستخدمهم كمفرخة للإرهابيين عن طريق غسل أدمغة الأطفال بمناهج تعليمية تحض على الكراهية وتستخدم المستشفيات والمدارس كمراكز لإطلاق الصواريخ، أما الأونروا فموظفوها من أعضاء الحركة، وحماس تسرق المساعدات وتستخدمها فى إمداد الحركة بإحتياجتها اللوجستية، كما يدعون أيضاً أن إسرائيل هي السد الوحيد الواقف أمام تحقيق إيران لأطماعها في المنطقة عن طريق أذرعها حماس وحزب الله ونظام الأسد بل وحتى الحوثيين، وأن ضربة أكتوبر موجهة لقدرة إسرائيل على الردع وبالتالى لقدرة الولايات المتحدة.

هذا الطرح مقبول أميركياً لهذا دائماً يؤكد المتحدثون الأميركيون على ضرورة تدمير حماس، وإن

الحرب من الممكن أن تنتهى فوراً إن أعلنت حماس الإستسلام وإلقاء السلاح هنا تتقمص الإدارة الأميركية دور الشريف في الغرب وإسرائيل تابعها نائب المأمور، الولايات المتحدة لا تختلف حول هدف الحرب لكنها ترى أن المنهج الإسرائيلي القائم على المحو والهندسة العكسية قد سرع من قبل الإسرائيليين حتى أصبح تطهيراً عرقياً واضحتً (جيناسيد)، وتطهيراً مدينياً بمحو المعمار والبنية التحتية والمرافق الحكومية والصحية والتعليمية (دوماسيد)، والإغتيال المتعمد للموظفين الحكوميين ومسؤولي الشرطة لكي تستحيل الحياة يكمل الصورة، وهذا شوه الوجه الأخلاقي للولايات المتحدة والغرب حتى في داخل الولايات المتحدة ودول الغرب.

لا طعام ، لا ماء، لا كهرباء كما قال يوآف جالانت. وأيضاً لا مسكن ولا حماية ولا علاج فجالانت يرى أن بقاء أي حي فى غزة معناه فقدان إسرائيل قدرتها على الردع، أو كما قال فى تصريح آخر «نحن فى منطقة يعتمد البقاء فيها على القوة والشرف وإذا فقدنا القوة والشرف فلن يمكننا البقاء»، الشرف من وجهة نظر جالانت هو إستعادة مخطوفيه والقوة هي الإبادة، لم يذكر جالانت شيئاً عن شرف قتل الأطفال.

الخطة الإسرائيلية في التطهير ماضية رغم الصعوبات، صعوبات خارجية تتمثل في المعارضة الخارجية والتهديد الأميركي بوقف التسليح على الأخص بعد هجمات الحوثيين فى البحر الأحمر والهجوم على القواعد الأميركية فى سوريا والعراق والاردن، وتململ الحكومات الأوروبية بعد ضغوط الرأي العام وضغوط إستطلاعات الرأى في الإنتخابات الأميركية، ورغم قضية جنوب أفريقيا في محكمة العدل الدولية ضد إسرائيل التي انضمت إليها عشرات الدول وإدانات الجمعية العامة للأمم المتحدة إضافة إلى الضغوطات الداخلية من أهالي الأسرى المحتجزين فى غزة وانقسامات الحكومة وأزمة تجنيد الحريديم ومشاكل الكنيست وانتقادات يائير لابيد، والأزمة الإقتصادية الطاحنة التي تلاها إنهيار البورصة وخفض التصنيف الائتماني وعجز الموازنة وشلل الاقتصاد، وتوقف الاتفاقات الإبراهيمية ،وإنهيار إتفاقات الغاز مع لبنان وضياع حلم الإستحواذ على حقول غزة.

رغم كل شيء يكرس بن غفير التقسيم الزماني والمكاني للمسجد الأقصى ويزرعه بكاميرات المراقبة والحواجز الأمنية، ويقوض وجود الحرم القدسى بالاقتحامات المتتالية، ويوزع السلاح على مئة ألف مستوطن، والحكومة تصدر قرارات بإنشاء مستوطنات جديدة رغم العقوبات الأميركية على المستوطنين والأراضي والمنازل والمزارع في أريحا والنقب ومدن الضفة.

أما غزة فقد بدأت إسرائيل بمجرد الاجتياح بعمل طريق يشق القطاع لربط الطرق التي لم تكن متصلة من قبل، أنشئ الجزء الأول في أواخر أكتوبر واكتمل إنشاؤه في فبراير والطريق أوسع من كل طرق قطاع غزة وهدمت كل المبانى حوله، هذا الطريق ويحمل إسم ممر نتساريم أو أتوستراد٧٤٩،

بهدف أن يمكّن هذا الطريق إسرائيل من الدخول والخروج واقتحام القطاع في أي وقت وإحكام السيطرة الأمنية، الطريق يمتد من مستوطنة ناحال عوز إلى كل أرجاء غزة وهو بمثابة تطبيق آخر للهندسة العكسية وفلسفة الإختراق اللتين تشكلان العقيدة الهجومية الإسرائيلية.

إسرائيل منذ نشأتها طورت منهجاً وضعته المعاهد التي أسمتها مراكز التفكير العسكرية يدمج ما بين نظريات ما بعد الحداثة وفلسفة إعمار وهدم المدن والبنى الحضرية لتقويض البنيان الوجودي للفلسطينيين داخل أراضيهم ليمحى ويتلاشى بالتدريج ما يفسر إصرار الجيش الإسرائيلي على إقتلاع أشجار الزيتون المعمرة، و هدم وتدمير أكثر من مئتين من المواقع الأثرية في قطاع غزة، ونهب محتويات المتاحف وشحنها لداخل أراضى ١٩٤٨، وتحويل المساجد إلى ركام إضافة إلى هدم وتخريب كل الجامعات والمدارس، وقصف ميناء غزة الحديث والميناء الفينيقي، أيضاً لم تنجُ حتى القبور الرومانية والبيزنطية والمقامات مثل مقام الخضر من الهدم بل وفجرت مباني مستشفى الشفاء، ما يذكر بتعريف ماركس للحضارة ويظهر جلياً أن الهدف الإسرائيلي ليس حماس لكن محو أي أثر على وجود الفلسطينيين وسيادتهم على الأرض ما يفسر دخول ممثلي هيئة الآثار الإسرائيلية لنهب موقع أم عامر ومقتنيات دير القديس هيلاريون قبل تخريبهما، هو إذاً المحو والإجتثاث من الجذور وليس القضاء على حماس.

منظمة فرينزيك أركتكتشر البريطانية وصفت ما يفعله جيش إسرائيل في غزة بإرهاب الجغرافيا والسعي لإرتكاب ما أسمته هندسة الإبادة الجماعية بداية بإصدار أمر بإخلاء سكان شمال القطاع البالغ عددهم مليون نسمة في يوم واحد وقصفهم على طريق صلاح الدين أثناء الإخلاء وتنفيذ عمليات إعدام جماعية في الأحياء والمستشفيات، هجرت إسرائيل أكثر من نصف سكان القطاع إلى جيب صغير في رفح أقصى الجنوب بينما حجزت الآخرين في مجاعة وعمليات إبادة تذكر بما كان يروى عن معسكر اعتقال اوشفيتز و بيلزك في غزة المدينة وخان يونس ودير البلح والمخيمات أوامر الإخلاء كانت عشوائية وتم توجيه الناس إلى مناطق آمنة ثم ارتكبت مذابح فيها مثل ما حدث في الفاخورة يوم الثالث من ديسمبر وفي حي الزيتون وفي العديد من المناطق التي انسحبت منها القوات الإسرائيلية- ما يذكر باستراتيجية الجيش النازي في إنشاء فرق إعدام متنقلة من مدينة إلى مدينة في شرق أوروبا لاعدام اليهود الساكنين فيها- أكثر من ثلثي مباني القطاع أصبح غير صالح للسكنى واستنتجت المنظمة إلى أن إسرائيل استخدمت أوامر الإخلاء وخرائط المناطق الآمنة أداة لجمع السكان في حيز جغرافي لا يصلح للعيش بعد تدمير كل أشكال ومقومات الحياة فيه.

ورغم وضوح ما تقوم به إسرائيل فان ردود أفعال السياسيين الغربيين تراوحت ما بين لإسرائيل الحق في الدفاع عن النفس والناس يموتون فى الحروب كما قالت هيلارى كلينتون، وينبغى القضاء

على حماس لإنهاء معاناة الشعب الفلسطيني فى رأى ريتشي سوناك، ولابد لإسرائيل من تقليل الخسائر البشرية وتخفيف معاناة المدنيين وتجنب الضحايا والخسائر غير الضرورية كما يرى أنتوني بلينكن، وبالطبع وقبل كل شيء لا بد من عودة الرهائن لانهاء مأساة العائلات الإسرائيلية المبجلة.

بعض السياسيين الأميركيين خارج دوائر صنع القرار مثل حاكم فلوريدا والمرشح الجمهوري الأسبق رون دي سانتيس قال صراحة ولماذا لا يرحل العرب ويتركوا الأرض للإسرائيليين؟؟ لديهم أكثر من عشرين دولة أخرى للذهاب إليها!!

هو نفسه طرح الذي تبناه بن غفير وسموترتش وكان مُنظّره الأساسي بنيامين نتانياهو عندما أوضح أن أساس الصراع هو الخلاف على أملاك الدولة العثمانية بعد سقوطها، وأن العرب وافقوا على التقسيم الإمبريالي الذي منحهم حدودهم ودولهم الحالية بعد سايكس بيكو، ولكن بسبب جشعهم رفضوا إقامة دولة لليهود رغم أنها مبتورة على ضفة واحدة من نهر الأردن، وهذا ما تتبناه الإدارات الأميركية المختلفة رغم إعلانها الدائم العكس، دولة يهودية ديمقراطية مع بضعة كانتونات لأقلية عربية منزوعة الحقوق والسلاح تنظم نفسها داخلياً تحت مسمى سلطة، دولة أو أياً كان حتى تذوب وتتلاشى تدريجياً وهو طرح لا يوافق عليه الإسرائيليون ويطالبون الدول الغربية إما بالضغط على مصر لإقامة ما أسموه غزة الكبرى فى سيناء وتهجير الفلسطينيين لها أو تسهيل هجرة الفلسطينيين لدولهم وترغيبهم فيها.

نتانياهو يستخدم كل قوته الآن لكي يقنع حلفائه بضرورة استكمال هدم رفح لكي يكتمل محو الأسطورة لأن بقاء معقل واحد معناه إمتدادها ونموها وتغذيتها بالمزيد من الحكايات واستخلاص حياة جديدة من الموت، أي خلق عائق أو مشكلة جديدة أمام ترسيخ الأسطورة المضادة التي أصابها العطب بالفعل جراء ما حدث في السابع من أكتوبر وهو يفعل ذلك باستماتة لأن أسطورته الشخصية هي الأخرى على المحك، فهو يريد ان يذكر فى التاريخ اليهودي بوصفه النبي الأخير وليس كقائد مهزوم مثل جولدا مائير بل أسوأ من وجهة نظر البعض، فهو الرجل الذي تسبب في أكبر مذبحة لليهود منذ الهولوكست وأبشع ما في هذه المذبحة كما يحلو له تسميتها أن أغلب ضحاياها وقعوا بيد جيش الدفاع الإسرائيلي الهستيرية والتي بدا إرتعاشها ورعبها جلياً في التعامل مع الموقف.

أما الحلفاء غير المقتنعين والمضغوطين بعد أن انكشفت أطماعهم وعنصريتهم فيفكرون في أمور أخرى ليس أبرزها تحقيق الأطماع الإسرائيلية في التطهير العرقي، الصيغة التي تهمهم الآن هي كيفية استغلال حوض الغاز الضخم الممتد من تركيا لمصر فى سد عجز الطاقة الذي تسببت به الحرب الأوكرانية، واستكمال إيجاد وسائل لمنافسة وتعطيل مشروع الحزام والطريق الصينى أي

ايجاد بديل لقناة السويس، لذلك وفجأة اهتمت الولايات المتحدة بإغاثة أهل غزة وإطعامهم قبل أن تحصدهم النيران الإسرائيلية، ولكن ليس عن طريق تفعيل عمل الأونروا وفتح المعابر التي تتكدس الأغذية والأدوية على أبوابها بل عن طريق إلقاء المساعدات جواً، الطريقة العقيمة التي قتلت من الناس أكثر مما أطعمت.

ثم فجأة يعلن الرئيس الأميركي إقامة ميناء مؤقت أمام سواحل غزة لإيصال المساعدات من قبرص!! ليقوم بتركيبه ألف جندي أميركي في غضون ستة أشهر لن تطأ أقدامهم أرض غزة، بدا المشروع مكلفاً وغريباً للكثيرين خاصة مع وجود المعابر البرية على بعد كيلومترات من المناطق المنكوبة ولا يعوق إيصال المساعدات منها إلا السماح المريب لبعض المستوطنين بالتظاهر أمام الشاحنات وأيضاً استهداف الشاحنات وهي في طريقها لايصال المساعدات.

يذكر المشروع الأميركي المرحب به بغرابة من قبل الإسرائيليين بأمرين الأول مشروع طرح في العقد الماضي بإنشاء ميناء قبالة سواحل غزة بعيداً عن سلطة حماس، والمشروع الآخر هو إقامة جزيرة صناعية أمام غزة على مساحة ثمانية كيلومترات يهجر إليها نصف مليون فلسطيني لتقليل كثافة السكان في القطاع وهو المشروع الذي طرحه يسرائيل كاتس وزير المواصلات الإسرائيلي الأسبق على مسؤولي الإتحاد الأوروبي في يناير، كاتس نفسه هو صاحب المقترح الأصلي للميناء الأميركي عام٢٠١٦م عندما كان فى السلطة، وهو يردد نفس المقترح منذ٢٠١١م وقد وصف اقتراحه وقتها بأنه مخرج إنساني وتجاري لأهل غزة دون مساس بأمن إسرائيل، لم يقبل نتانياهو المقترح وقتها لأنه بمثابة طوق نجاة للغزيين عبر إشراكهم كلاعب في تحالفات المنطقة بحجة أنه يفتح المجال أمام إيران للعب دور على المسرح عن طريق حكومة غزة.

كما يذكر أيضاً باتفاق نتانياهو على مبادئ أولية لاستغلال حقول غاز مارين مع مصر والسلطة فى يونيو ٢٠٢٣م، ومقابلته الأحادية مع ممثلي شركات الغاز التي كان من المزمع عقدها في العاشر من أكتوبر ربما يفسر هذا سبباً من أسباب وقوع طوفان أكتوبر أكثر من بيان حركة حماس.

لو حدثت هدنة أو وقف لإطلاق النار سيتطور رصيف الإغاثة ليصبح ميناء لنقل الغاز والبضائع لأوروبا بعيداً عن حلقات الصراع الفلسطيني الإسرائيلي التي لا تنتهي، لهذا أصبح بلينكن وزير الخارجية الأميركي فجأة مهتماً بإيصال الطعام والدواء والكساء لأهل غزة بعد أن كان يهودياً حالماً بعودة الرهائن اياً كان ثمن هذه العودة، وأجبرت الولايات المتحدة إسرائيل على إدخال المساعدات فما كان من نتانياهو إلا إغتيال المنسقين والمشرفين على توزيعها حتى لو كانوا من العشائر التى كان يأمل في تواطئها معه فى المرحلة القادمة، واستهدفت قواته نقاط التوزيع بمذابح شبه يومية ولايبدو أن الغرب مهتم كثيراً بهذه المذابح وإنما الاهتمام الأكبر الآن هو الهدنة لإنشاء

الميناء وإيقاف الخسائر المادية الناجمة عن دعم إسرائيل وضرب المصالح الغربية فى العالم ومشاكل خطوط الإمدادات فى باب المندب، والخسائر الأدبية والمعنوية الناتجة عن انكشاف وجه الغرب الإمبريالي وطرح المسألة العنصرية بوضوح على الساحة الدولية، نتانياهو يدرك ذلك ولهذا هاجم حلفاءه واتهمهم بنسيان الشعب اليهودي والتخلي عنه لأنهم يريدون تركه لحل مشاكله التي بدا واضحاً أنه غير قادر على حلها بدون دعمهم وموافقتهم.

حتى الآن هم لم يتخلوا عنه ويفسحون له المجال لكن خطوة رفح لا تبدو في مصلحة الشرق الأوسط الكبير من وجهة نظرهم ومن وجهة نظر نتانياهو هي الطريق الوحيد لصنع أسطورة نصر وهمي يحفظ له ولإسرائيل ماء الوجه، وخطوة فارقة وضرورية لمحو إرتباط الشعب الفلسطيني بجذوره، هروب إلى الأمام وعودة مظفرة إلى طريق إقامة الدولة اليهودية تبرر الخسائر والوفيات والدم والنار والسقوط الأخلاقي والتفكك المجتمعي وشرخ الثقة في العقد الإجتماعي الذي حدث في مجتمعه وأيضاً إنهيار ثقة الحلفاء الذين يصرفون المليارات لدعم الكيان بدعوى قدرته على الردع.

أمام المصالح لن تفلح خطبه أنه يحارب بقوى الخير قوى الشر، وأن إسرائيل هي حامية المدنية أمام الهمجية، فهو لن يبيع للإمبرياليين دعاوى هم من ابتدعوها لتغطية جشعهم.

لعل هذا ما يفسر الهجوم الغربي على إسرائيل ووقف كندا لتصدير السلاح لها وفرض دول أخرى لقيود على بيعه، والهجوم القوي في الكونجرس عليها، حتى تصريح جوزيبى بوريل مسؤول الاتحاد الأوروبي عن أن إسرائيل تستخدم التجويع سلاحاً في الحرب وأن القطاع أصبح أكبر مقبرة مفتوحة فى العالم، كذلك تصريحات رئيس الوزراء البلجيكي المنتقدة لكل من إسرائيل والولايات المتحدة عندما قال على أوروبا أن تقود لا أن تتبع وتقاد علينا أن نكون واضحين فى مطالبنا بوقف إطلاق نار وإدخال مساعدات الآن، كل هذه الأصوات تشكل ضغطاً لن يستطيع الجانب الأميركي تجاهله طويلاً على الأخص أن الكثيرين تململوا داخل الولايات المتحدة نفسها، وأيضا نفس الوضع مع الإبراهيميين حلفاء إسرائيل.

لكن نتانياهو ما زال رغم كل ذلك هو ومتطرفوه وآلة حربه صامدين وماضين فى مخططهم القائم على إزالة الفلسطينيين والتطهير السياسى للمشهد من وجودهم بسرعة بدلاً من الاستراتيجية طويلة الأمد التي كان يتبعها سابقاً عبر التطهير العرقي والتطهير الحضري للأرض والثقافة ويبقى صمود الأسطورة والرواية حائلاً بينه وبين ما يريد.

الصراع الممتد في فلسطين: رؤى ومطالعات وملفات للتداول/ د. محمد خالد الأزعر

قراءة صلاح عبد الرؤوف*

جمع الدكتور الأزعر بعض مقالاته في كتاب، واختار له عنواناً، لا يقدم فكرة عن مضمون الكتاب، فحسب، بل عنواناً كاشفاً عن شخصية المؤلف، وعقله النقدي؛ وهو ما يعرفه كل من التقى به، شخصياً، أو عبر مقالاته، ودراساته. أذكر حينما أهدى الدكتور المسيري، رحمه الله، موسوعته، لوالدي، رحمه الله، أقبلت عليها، بانبهار شاب، في عامه الأول من الثقافة، والحقيقة فإن الموسوعة كانت، بصياغاتها وأفكارها، مبهرة، وقرأت منها أجزاءً كاملة، في وقت قصير؛ حتى شاركت بالحضور في ندوة حول الموسوعة، في كلية الإعلام، جامعة القاهرة، وكان أول لقاء لي بالدكتور الأزعر، وكان طرحه، نقدي للموسوعة، في المضمون، والأفكار، كما انتقد الصياغة لأفكار الموسوعة؛ ما حفَّزني لإعادة قراءة ما مررت عليه في الموسوعة، مرة أخرى، مع انخفاض منسوب الانبهار، لأضع الكثير من «التساؤلات»، عن بعض أطروحاتها.

بوَّب د.محمد كتابه في مقدمة وأربعة محاور: «مقاربات نظرية»؛ «فلسطينيات»؛ «إسرائيليات»؛ وأخيراً «عن البعدين الإقليمي والدولي»، جمع فيها مقالاته، لسنوات عدة، في ٢٤٤ صفحة من القطع الكبير؛ اشتملت على رؤى وأفكار، يطرحها الكاتب للنقاش، بلغة رشيقة، يهديها لمن أهدى لهم كتابه « من نأمل في نجاتهم من إحباطات اللحظة، الواثقين في عدالة قضيتهم من قناعة علمية، وبصائر نافذة...»، وإن افتقد الكتاب لذكر تاريخ المقال، وهو ضرورة تعلي من قيمة الرؤى المطروحة، التي ارتبطت بواقع مُعاش، حينها، وقد اعتبرها المؤلف أفكار «تتعلق برؤى وتوضيحات وشروح، ممتدة الأثر». و»سيجد القارئ وجهات نظر، وتقديرات، وأراء تنطلق عن رؤية متكاملة

* كاتب من فلسطين.

لمفهوم الصراع.. وسيبدو بعض هذه الآراء مثيراً للدهشة، وأحياناً للتأمل أو حتى مغايراً لمألوف التعاطي مع قضايا، حسبها الكثير محسومة، ولا مجال لإعادة فحصها والتفكير فيها». وبذا، أضاف الدكتور محمد إسهاماً جديداً للمكتبة العربية، بجانب كتبه القيمة، عن المقاومة في قطاع غزة، وحكومة عموم فلسطين،...

دولة بلا دستور

ف»إسرائيل» هي الدولة الوحيدة التي تتمتَّع بعضوية «هيئة الأمم المتحدة»، دون استكمالها لشروط الانضمام، وفق القرار رقم ١٨١، في ١٩٧٤/١١/٢٩، وهي كتابة دستور، وقد اتخذت إسرائيل بعض إجراءات كتابة، وإقرار دستور لها، فور صدور القرار، لإدراكها أهميته في نيل عضوية الهيئة الأممية، بيد أنها توقفت عن إكمال الإجراءات، ولم يُكتب لإسرائيل دستور حتى الآن، وذلك لإشكاليات عدة، منها المشكلة الجغرافية، وتحديد موقع الدولة الجغرافي، بما يصطدم مع الرغبة الصهيونية في التوسع؛ وكذا، إلزامية ضمان حقوق العرب المقيمين داخل حدود إسرائيل؛ كما أن قضية الدستور بمثابة أحد الالتزامات الوجوبية التي لم يف بها الجانب الصهيوني؛... أضيف إلى ذلك مسألة يهودية الدولة، فهي، بجانب الحدود الجغرافية، أكبر إشكاليات تقنين نشأة إسرائيل، وإن لاح في الأفق، الآن، بوادر حسم قانوني لها. لم يسع الجانب العربي لاستخدام تلك الورقة في المواجهة السياسية ضد الكيان، رغم أن لمسألة الدستور أبعادها القانونية، والسياسية على الكيان الصهيوني.

موقع الدين من الصراع في فلسطين

لقد استحوذ هذا المفهوم على النصيب الأكبر من النقاشات العربية، حيث اجتذب أبعاداً عدة «الوطني، والقومي، والديني»، وإن تراجع الأخير، على مستوى الثقافة العربية، بعض الشيء، على اعتبار مساهمته السلبية في الصراع، بيد أن المؤلف قدَّم رؤية أخرى مغايرة للمشهور، حين قال: «أن البعد الديني، بنسقه الحضاري، وابتعاده عن العنصرية ورفض الآخر قد سيطر على المستويين، الثقافي، والعملي، بمساريه، السياسي، والكفاح المسلح، في بدايات الصراع»، وهو واقع عاشته الحركة الوطنية، في كل الأقطار العربية، مع بدايات الهجمة الإمبريالية على الوطن العربي، ثم تنامى البعد القومي، عربياً، في فترة المد القومي، إلى أن جاءت هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧، لتكتب شهادة وفاته، والمؤلف له تقييمه لتلك الهزيمة التي يرى أن أبعادها، وتأثيراتها، السياسية والاجتماعية والاقتصادية، على الأمة العربية، لم تزل حتى الآن، ولم يعالجها أي من الإجراءات التي تبناها الجانب العربي، على مدى السنوات الماضية؛ ثم عاود البعد الديني للصدارة بعد هزيمة ١٩٦٧، وحرب تشرين الأول/ أكتوبر١٩٧٣، حيث عجز البعدان القومي والوطني عن تحقيق نجاحات حقيقية على المستوى العملي، وبفعل العنصرية الصهيونية، ببعدها الديني/ القومي، وهو امتزاج لازم الحركة

الصهيونية، منذ نشأتها، وغذاه النسق القانوني للكيان، وممارساته التعليمية، حيث سبق الصهاينة العرب في حسم الجدل الفكري حول طبيعة حركتهم السياسية (الصهيونية)، ومسارها، بهذا المزيج الفريد للبعدين الديني والقومي، لليهود، وهو سمة دينية حسب التعريف الديني لليهودي (وهو من ولد من أمٍّ يهودية)، وهنا نجد الكُتَّاب الصهاينة قد أبرزوا تنامي الفكرة الصهيونية، والدعوة لعودة اليهود إلى «أرض الميعاد»، قبل البدء بالحراك السياسي الداعم لتلك الفكرة، بعقود عدة، بل بمئات السنين، أي أن الصهيونية السياسية كانت استجابة لتعاظم الشعور القومي لليهود، وحنينهم للعودة إلى «أرض إسرائيل»، وقد تنامى، أيضاً، بين المسيحيين، فيما عُرف بـ»الصهيونية المسيحية»، مستندة إلى بعض الأساطير التي اعتبروها «نبوءات» دينية،١ ويرى الأزعر أن «التوصيف الديني للصراع تعرض للتراجع على الجانب الفلسطيني العربي، بأكثر مما حدث على الجانب الصهيوني... [و] لأن قطاعا شعبياً واسعاً، على الجانب الصهيوني وجد في الانتصار الإسرائيلي، في حرب ١٩٦٧، ما يُبشِّر بتحقيق الوعد الإلهي لليهود، لا سيما بعد احتلالهم القدس». وأكد الأزعر أنه بالرغم من تسلُّل بعض المخالفين للقوى العقائدية، فإن ذلك «لا ينبغي أن يحجب الدور الفاعل للمرجعية الدينية، الذي ساهم، تاريخياً، في إلهام الكثير من حركات التحرر في المجال العربي الإسلامي».

مقاربات العنصرية وأثرها على مسار التسوية السياسية

تحت عنوان «الصهيونية والنازية.. الأصل والصدى»، عالج الدكتور محمد ما اعتبره خطأ شائعاً في الأدبيات التي اهتمت بدراسة العنصرية ومقارنة الطرفين باعتبار الصهيونية تابعه لعنصرية النازية، مستنداً إلى بعض المعطيات التي رشَّحت أسبقية العنصرية الصهيونية، «بملاحقة التسلسل التاريخي لكل من المصادر التاريخية للخطابين، ومسيرتيهما التنظيمية المؤسساتية، ومستوى انتشارهما وديمومتهما». هذه العنصرية قد بدا تأثيرها في عملياتها الإرهابية ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية، كما كان لها مساهمتها في مسار التسوية، وتوجيهاته، مثالا على هذا ما ذكره إلياهو بن أليسار، الذي تولى رئاسة اللجنة الفنية المرافقة لبيغن، في محادثات فندق مينا هاوس، في مذكراته أنه بعد أن وصل إلى الفندق المذكور، بدا على وجهه غضب، ما جعل نظيره المصري، عصمت عبد المجيد، يسأله عن سر غضبه، فيرد عليه بن أليسار بأنه عثر على عَلَم منظمة التحرير الفلسطينية، على مائدة المحادثات؛ رد عليه عبد المجيد، من فوره: «ارفع هذا العَلم، وما شئت من الأعلام العربية عن الطاولة». وبمراجعة سريعة، عرضها كاتبنا، لجهود التسوية للصراع العربي الصهيوني، منذ بواكيره، وما نتج عنها من لجان، وتجمعات سياسية، نرى كيف أن دولة الكيان الصهيوني قد فرضت على هذا المسار (مسار التسوية)، «أهدافها وسياساتها ومواقفها وتكييفاتها لمجريات الصراع ومداخل حله وتسويته» كمرجعية يلتزم بها الأطراف المتفاوضة والوسطاء. ولم

تحِد إسرائيل عن هذا النهج إلا لحظات اضطرت إسرائيل للقبول بما يطرحه الطرف الثالث، لتستند عليها للقفز إلى ما هو أبعد، مثل توقيع إسرائيل على بروتوكول لوزان (١٩٤٩) المقترح من لجنة التوفيق، وكان شرطاً لقبول عضويتها في الأمم المتحدة؛ كما اعتمدت إسرائيل منهجية التفاوض المباشر الأحادي مع الأطراف العربية؛ كذا نفى الأزعر عن الدبلوماسية الأميركية، والأوروبية صفة الحياد، بانحيازهما الدائم للجانب الصهيوني؛ ولعل الفائدة كانت تكتمل بفصل مستقل يكشف نتائج اتفاقيات التسوية التي وقعتها إسرائيل مع أطراف عربية، وما حققه العرب من مكاسب، حتى الآن. وبينما تمسك العدو ببعض «الثوابت» عن الأرض والتوصيف العقدي لإسرائيل، وحدَّد ما هو قابل للتفاوض، منذ انتصاره على الجيوش العربية، العام ١٩٦٧، والتزامه برؤية ليفي أشكول حينها، على مدى سنوات الكيان، وخلال جولاته التفاوضية الثنائية، مع الأطراف العربية، وقيادة منظمة التحرير، «في حين نظر العرب بعين السخرية لكل من تلفَّظ بكل الثوابت الفلسطينية، معتبراً إياه جموداً أو أوهاماً خيالية!»

الممثل الشرعي للمقاومة الفلسطينية

بدأ محور فلسطينيات بـ»منظمة التحرير الفلسطينية»، وربما وسَّع كاتبنا في تقدير مقام م. ت. ف.، ومساهماتها السياسية، على مسار الصراع، فتاريخياً، انزوت الكيانات الفلسطينية الجامعة (اللجنة العليا، وحكومة عموم فلسطين) بقرار عربي، وكذا، نشأت المنظمة بقرار مصري، مُؤيد عربياً، بهدف احتواء الفصائل الناشئة، والسيطرة عليها، خشية توريط الأنظمة العربية، في حرب مع دولة العدو، وليس بهدف تحرير فلسطين؛ ثم تخلى عنها ناصر، بعد هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧، بيد أن عرفات سيطر عليها، لتكون واجهة سياسية لحراكه؛ وكان ظهور فصائل المقاومة الفاعلة في مسار الصراع العربي الصهيوني، من خارج عباءة م. ت. ف.. ثم جاءت مطالبة حماس بإعادة تفعيل م.ت.ف. في سياق سعيها لتصحيح أخطائها السياسية السابقة، والرغبة في قيادة دفة المقاومة من داخل نظام أوسلو، لتحسين موقعها العربي، والدولي، في حين كانت فتح ترنو إلى احتواء حماس، والسيطرة عليها، ضمن أطر ومؤسسات المنظمة كحال باقي الفصائل المنزوية تحت لواء المنظمة.

مسار المقاومة

لم تأت إشارة المؤلف لقرار الكونغرس الأميركي بتحويل القدس عاصمة لإسرائيل (١٩٩٧)، سياسية، بل التفت الأزعر لتكامل الطرح الأميركي، فجعل الدعم المالي للقرار ضمن سياق تنفيذ المشروع على أرض الواقع، بينما انشغل الطرف العربي بالشجب والإنكار، دون أن يكون له تصور عملي لحماية القدس، وهنا عرض الكاتب لتلازم التمويل مع التقدم السياسي للمشروع الصهيوني، بل ربما كان سابقاً للموقف السياسي؛ تقديراً من الصهاينة بأهمية التمويل لمشروعهم الاستيطاني، في حين أغفل

الجانب الفلسطيني والعربي تلك الأهمية ولم ينتبه لذلك إلا متأخراً، بإمكانات رمزية، دون ترسيم واقع يحمي الأرض الفلسطينية من التسرب للصهاينة.

كذا، قدَّم المؤلف عرضاً موجزاً، دون إخلال، بتاريخ المقاومة الفلسطينية لحماية الوطن الفلسطيني، وقد بدأ قبل أن تتبلور الفكرة الصهيونية، مؤسساتياً، كما ساهم الأزعر بطرحه لتصحيح المسار المقاوم، وتحذيره من آفات قاتلة علقت بجسم المقاومة، منها التصارع الفلسطيني-الفلسطيني، وقد استعان الكاتب بإشارات إلى التجربة الصهيونية في توحيد الكيانات العسكرية المنتشرة، في بداية تأسيس الدولة؛ ولفت انتباه قادة الفصائل المتحاربة إلى أنهم في غمرة اقتتالهم، راحت المحكمة الصهيونية العليا تؤسس، قانونياً لـ»شرعنة قتلهم [الفلسطينيين] غيلة بشروط مبشرة بأيدي الجيش الإسرائيلي»!

أما ادعاءات التأثير السلبي لعسكرة انتفاضة الأقصى (٢٠٠٠)، وضرورة التزام الفلسطينيين بأساليب المقاومة اللاعنيفة، فقد واجهها المؤلف مشيداً بنجاح المقاومة المسلحة في إزاحة الاحتلال عن قطاع غزة، حين أدرك أرييل شارون، وزمرته « أنه لا مستقبل للاستيطان اليهودي في منطقة استعصى أهلها على التطويع أو الإلحاق أو الدمج أو الترحيل القسري.. منطقة لم يعرف الإسرائيليون فيها طعم السكينة، منذ اليوم التالي لاحتلالها، عام ١٩٦٧.. والفضل ما شهدت به الأعداء»، كما عاب كاتبنا على منظري التأريخ الفلسطيني أغفالهم «للمنازلات الفلسطينية الفردية»، وهي «أحد أهم ثوابت سيرة الصراع، على مدى قرن ونصف»، فبالرغم من تعمد هؤلاء المنظِّرين لتاريخية الصراع أن يؤرخوا للنكبة بتاريخ دخول الجيوش العربية، فإن «جموع الفلسطينيين تولَّت، على نحو منظم وغير منظم، الاشتباك مع تلك القوات، قبل ذلك بستة أشهر، فور قرار التقسيم الشهير، عام ١٩٤٧».

عرب ٤٨

وهو محور نال الاهتمام في مطالعات عدة كتبها الأزعر، حيث عاني عرب ٤٨ من التهميش الأكاديمي العربي، رغم الجهود الأكاديمية التي «تولاها نفر من أبناء هذه الدائرة»، بيد أن عرب ٤٨ لم تزل «تشمل على ما نعتبره (مناطق رخوة) في المقاربات العربية والفلسطينية»، كما عانى عرب ٤٨ من التهميش، الفلسطيني، لموقعهم كعرب داخل الأراضي المحتلة، على مستوى مسار المقاومة ومسار التسوية، الذي أطلق عليهم مسمى «عرب إسرائيل»، وإن استطاع عرب ٤٨ إعادة تموضعهم داخل معسكر المقاومة، خلال الأعوام الأخيرة، وقد برز ذلك، جليا، في معركة حي الشيخ جراح، كذلك واجه عرب ٤٨ عنصرية صهيونية وهضما لأبسط حقوق المواطنة.

***

لم يتوقف الكتاب عند حد ما عرضناه، فحسب، بل طاف في مساحات فكرية، متنوعة، برز خلالها عقل المؤلف النقدي، ومنطقه التحليلي، مثل تناوله النقدي لتصريحات قادة الكيان وقيادة المقاومة اللبنانية، حول حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦، بأنهم لم يكونوا على استعداد لخوض حرب كهذه، معتبراً ما قدمته المقاومة في الحرب دليلاً دامغاً على بطلان هذا الادعاء، فضلاً عن طبيعة وتاريخ جهوزية الكيان لخوض الحروب، منذ نشأته؛ كما أبدع الدكتور الأزعر في تفنيد المزاعم الصهيونية حول «إزاحة مركزية القدس، فلسطينياً»، معتبراً هذه الادعاءات الصهيونية «مجافياً لعملية الانتخاب الطبيعي للقدس كعاصمة لفلسطين، الأمر الذي فرضته محددات صارمة»، مستعينا بما تمتعت به القدس من مكانة دينية، وموقع مركزي في العهد العثماني، وخلال الاحتلال البريطاني لفلسطين. كذلك، فنَّد دعوى عدم معرفة الأميركان بطبائع العرب؛ وادعاء فشل السياسة الخارجية الأميركية، في عهد بوش الابن...

اعتقد بأن الكتاب هو بمثابة «قراءة أخرى» لتاريخ القضية، وأحداثها المعاصرة، أراد به الأزعر أن يطرق عقول الشباب بها للخروج عن المألوف، والموروث من الحلول، بحثاً عن علاجات مستحدثة لأوبئة عربية لازمت مسار قضيتنا، فالكتاب هام لكل مثقف وسياسي مهتم بالشأن العربي والفلسطيني.

بلاغة المقاومة الرَّقمية في الخطاب الفلسطيني التَّواصلي: الفَضاءات والسّمات

د. أحمد إبراهيم عزيز*

مُلَخَّص:

تستكشف هذه الدراسة بلاغة المقاومة الفلسطينية عبر الوسائط الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي، وقدرتها على تحقيق مجالي التَّخييل والتَّداول، وتِبيان تأثيرات هذين المجالين، وترجمة أدبية وجمالية الخطاب المقاوم، وتظهير استراتيجياته الحِجَاجية، ومعالجة تصوراته البلاغية الرقمية وتوظيفها في الاتصال الرقمي المقاوم ، وقد عَمدتْ إلى اختيار بعض الصفحات الشخصية على مواقع الفيسبوك مجالاً للبحث والمعالجة، والاستعانة بالمنهج الوصفي التحليلي.

وتَرومُ هذه الدراسة البحث في خصائص وسمات وتشكلات خطاب المقاومة الفلسطينية اليومي التأثيري التداولي الذي يتمسرح عبر الفضاءات الإلكترونية، بوصفه جزءا من الأشكال السردية الوَجيزة، وكذلك النَّظر في تقنياته وأدواته ومعطياته وطروحاته وإشكالاته وقضاياه ومقاصده الفعلية في التَّلقي؛ باعتبار المقاومة عبر الخطاب فعلاً بلاغياً له تمثيلاته وعناصره، وأثراً فكرياً له قوته في تكوين الوعي الثوري والثقافي والسياسي والجماهيري، وتسعى الدراسة أيضاً إلى تجديد الوعي بخطابات المقاومة التي دخلت في علاقة تفاعلية مع الوسيط التكنولوجي؛ تلك العلاقة التي أثرت على مختلف العملية الإبداعية وعلى منطق اشتغالها، بعدما أثمرت نوعاً جديداً من خطابات المقاومة المنفتحة على وسائط تفاعلية مُتعددة، من مصادر متنوعة، خاصة ما يتعالق مع النص من مرئيات وصوتيات.

وتطرح الدراسة تساؤلاً حول دينامية الخطاب وصوره وسياقاته الكلية ومفاهيمه الجمالية التَّخييلية والتداولية الإقناعية، والكشف عن تأطير القضايا والأحداث اليومية في الواقع الفلسطيني.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، المقاومة الرقمية، الخطاب التَّواصلي، التّخييل، التّداول.

* كاتب وباحث من فلسطين.

توطئة:

من الثابت أنَّ اللغة وسيلة الإنسان للتواصل والتعبير عن مشاعره وأفكاره؛ فهي ذات وظائف متعددة: تعبيرية، تواصلية، وفكرية، ويلعب السياق التواصلي وما يحدث في الأفعال الكلامية المؤثرة دوراً بارزاً في تحقيق نجاح الخطاب التَّواصلي؛ فالمعلومات التي تُنشر بواسطة المحتوى الرقمي لصفحات الفيسبوك لها تأثير كبير في نفوس متلقيها ومتابعيها، والحقيقة أنَّ مواقع التواصل الاجتماعي للفيسبوك قد حققت المطالعات والمشاهدات والتفاعلات والانجذابات الأعلى لِسرعة وصولها للمتابعين والمهتمين؛ بالإضافة لقدرتها على توظيف الوسائط والتقنيات الرقمية المتعددة، وتحميل المحتوى الخطابي بحمولات ووسائل داعمة ومُعينة صوتية وبصرية تُوَثق الخبر والمعلومة، وهي ما تُعرف بالروابط والوسائط التشعبية، ولا شكَّ أنَّ المثقف الفلسطيني قد وجد في الفيسبوك ميداناً للكتابة النافذة والخطاب اللَّحظي الفعال المؤثر القادر على إثارة الجمهور الشَّبكي، وتحفيزه وتثويره واستمالته وتوجيهه.

ترى الدراسة أنَّ المقاومة الرَّقمية عبر الخطاب ظاهرة فاعلة ومؤثرة، مرتبطة بالوعي والثقافة على نحو من الأنحاء، وبذلك أسهمت الثقافة الرقمية المقاومة بشموليتها ومدلولاتها بفرض كيانات خطابية تقوم على رؤى أفقية واسعة ومستوعبة لكل التّحولات والتّغيرات التي يشهدها الصراع مع الاحتلال الإسرائيلي، وقد راعيتُ في اختيار نماذج الخطاب الرقمي حداثتها الزمنية، وتنوع فضاءاتها، وتوفر بعضها على تمثيلات صريحة للمقاومة، مع اختيار النموذج الخطابي الذي يخدم بلاغة المقاومة الرقمية، والاجتهاد في اقتطاع ما يلزم للتحليل، وقد استقرت الدراسة على أربع صفحات من الفيسبوك بعد مطالعاتٍ مستفيضة ومُطولة، مع الاحتكام للنضج الفني والموضوعي، حيث وجدت في هذه الصفحات الحقل الأغنى بأبعاد المقاومة وترسماتها المفاهيمية الغارقة في الوعي الوطني والوعي بالصراع، وحمولاتها الخطابية المشتبكة مع رواية النقيض الذي يسعى بكل شَرَاسة إلى محو الهوية وتشويه الذات وحجب صوتها وصورتها، وهذه الصفحات تعود لكل من: طارق عسراوي Tariq Asrawi٢، إيهاب بسيسو Ehab Bessaiso ٣، عاطف أبو سيف Atef abu Saif ٤، و مراد السوداني Murad Sudani ٥.

بلاغة المقاومة الرَّقمية:

أسهمت البلاغة في انفتاح الخطابات على مزيدٍ من القراءات والتأويل، بالقَدر الذي أنجزت فيه تفعيل تقنياتها وتجديد آليات اشتغالها النصيَّة، وتوسيع إدراكاتها الأجناسية، ودخولها كل ساحات الإبداع والفن والمعرفة، واستكشاف بلاغات مهمشة، بتوسيع دائرة التحليل البلاغي ليشمل أنواعاً وفروعاً خطابية جديدة لم تكن ذات بالٍ واهتمام، واكتشاف آفاق الخطاب، ومساءلته في وظائفه

وعلاقاته وإحالاته ومقاصده وسياقاته المعرفية والتاريخية؛ أي في كُليته المَقامية والتواصلية.

إنَّ الخطاب يُحيلُ على اللغة بوصفها «نظاماً تواصلياً» و» لن يدخل أحد في نظام الخطاب إذا لم يكن مُستجيباً لبعض المتطلبات، أو إذا لم يكن مؤهلاً للقيام بذلك {...} ليست كل مناطق الخطاب مفتوحة بنفس الدرجة، وقابلة للاختراق بنفس الدرجة؛ فبعضها محروس وممنوع علانية (مناطق مميَّزة ومميزة) في حين إنَّ البعض الآخر يبدو مفتوحاً تقريباً أمام كل الرياح وموضوعاً رهن إشارة كل ذات متكلّمة بدون حصر مسبق»٦، والخطاب التواصلي الرقمي هو» الذي يستند إلى ما تُقدمه التكنولوجيا الحديثة في تقديم جنس أدبي جديد يجمع بين الأدبية والإلكترونية «٧ واقتران المقاومة بالبلاغة يعني المقاومة بوصفها فعلاً بلاغياً، أو ما يُميز خطابها من خصائص بلاغية، أو البلاغة التي يُنتجها خطاب المقاومة أو يقوم عليها، والخطاب الرقمي و»المبدع الرَّقمي يتحرك في مساحة شاسعة يُتيحها الفضاء الشَّبكي، ما دام يتعامل مع قُرَّاء افتراضيين»٨، ويُقصد ببلاغة المقاومة ما تقتضيه فاعلية البلاغة في خطاب المقاومة، وما تُمَثله مبادئ المقاومة التي بموجبها يصبح الخطاب قادراً على التأثير في متلقيه جمالياً وتداولياً، ولعل « التَّعددية التي يتسم بها المبدع الرقمي على مستوى الإنتاج والتَّلقي، جعلته يُؤثر بشكل مباشر على طبيعة المُتَلقي، الذي أصبح بدوره مبدعاً عبر مشاركته في بناء النص وإعادة إنتاجه» ٩ وما سَمَّيناه ببلاغة المقاومة ليس سوى تداخلاً للبلاغة بغيرها من المفاهيم والقيم الإنسانية.

إنَّ بلاغة المقاومة لها مستوياتها، وتداعياتها أكثر نفاذاً وأثراً من بلاغة الكلام - بلاغة المقاومة أعلى من بلاغة الكلام - وهي البلاغة التي تُحاول الوصول لمقامات اللغة ودرجاتها العُليا بحثاً عن خطابٍ موازٍ لمستوى الحدث والفعل المُقاوِم، وفي الحالة الفلسطينية «أظنُّ أنَّ الكُتَّاب الفلسطينيين مُطالبون بأن يمتلكوا القدرة الكافية لاجتراح بلاغة تساوي بلاغةَ الدَّم المسفوح أو تُقاربها، وهذا تحد خاص بهم، ويزيد إرباكهم»١٠ وفي بلاغة الدم ما يُحيل إلى كراهية الكلام، خاصة في مواقف يكون السيف فيها أصدق إنباءً مِن الكتب»١١ ولا شكَّ أنَّ المقاومة مفهوم شمولي واسع، و» كل وسائل التعبير عن المقاومة فضلاً عن كونها تعبيراً إنسانياً لا مناص من الاحتياج إليها. تلعب دورها في تأكيد الذات البشرية الوَثَّابة، وهي على جانب آخر تُعتبر فعلاً تحريضياً، وقادرة على التَّحفيز»١٢.

فضاءات الخطاب:

يُمثل الفضاء عنصراً مهماً في ترتيب العلاقات الاجتماعية والثقافية، ووعي سلوك الأفراد والجماعات « وشّكَّل على الدوام مُحَايثاً للعالم، تنتظم فيه الكائنات والأشياء والأفعال، مِعياراً لقياس الوعي والعلائق والترتيبات الوجودية»١٣ ومفهوم الفضاء في صفحات الفيسبوك يوحي بمفاهيم ودلالات متنوعة، وينطوي على أبعاد مختلفة، مِنها الفضاء المكاني، الفضاء الزماني، والفضاء الدَّلالي، ويكشف

لنا الفضاء عن درجة وعي الكاتب وقدرته على الاستيعاب والتَّشكيل، وتعبيره عن قضاياه الراهنة والأساسية، وفي الدراسة نتوقف عند الفضاء المكاني بوصفه مُعادلاً للمكان أو يقوم عليه، والفضاء الدَّلالي المُتَشكل عبر تمثلات وصور متعددة، وقد استقرت الفضاءات على فضاء الشهداء، فضاء الحرية / الأسرى، وفضاء الذاكرة والتاريخ.

فضاء الشهداء / التضحية والبطولة:

الشهادة قيمة عُليا، وسيميائية عَلامية في الحياة الفلسطينية، لكنَّ موت الفلسطيني يعني للعدو قطع صِلة الفلسطينيين بالوجود الفلسطيني، وإنهاء ارتباطاتهم بالمكان والزمان، وتدمير صفتهم البشرية الإنتاجية، وتحطيم هياكل البناء الاجتماعي في حياتهم، وتحقيق خروجهم المُطلق من مسرح الجغرافيا والتاريخ.

وحينما تغدو الشهادة أُمنية وحُلْماً يُصبحُ المسير إليها على بُعدِ خُطوات، هكذا يصف إيهاب بسيسو رحلة - رؤية ورؤيا - الشهيد نهاد البرغوثي من كفرعين الذي أستشهد على أرض قرية النبي صالح: «يذهبون إلى الشهادة واثقين بانتصار العدالة في الحلم الشخصي والرؤية الوطنية؛ لِذا تجدهم أكثر ثقة في الحديث عن الفجر والحرية، أكثر انسجاماً مع تضاريس الجغرافيا في الصور، واضحين غير مرتبكين في الذاكرة، لهم لغة بسيطة وعفوية في آن غير أنها أكثر عمقاً ودلالة من دراسات متخصصة حول علم النفس الجماهيري وسلوك المجتمعات البشرية وتداعيات الاستعمار.

هؤلاء الذين يشكلون قافلة النور المقدس الفلسطينية الخارجة من بلاغة الذاكرة الوطنية والمستمرة في تعاقب الأجيال على الحكاية. نهاد البرغوثي أحد هؤلاء الذين اختصروا عمرهم البشري ليعلنوا استمرارهم المقدس في الحياة الأبدية» ٢٠٢٢/٢/١٦، ويتجلَّى الخطاب البُطولي خطاباً تكريمياً تأبينيَّاً.

وفي مشهدٍ مقاوم دينامي متحرك يُصور طارق عسراوي بطولة الشهيد (رعد فتحي خازم) من مخيم جنين، منفذ عملية تل الربيع التي أوقعت ١٥ مستوطنا إسرائيلياً بين قتيل وجريح. عَدسةُ فنان بانورامي يكتب ثُلاثية الحدث: بطلاً جريئاً ومكاناً مُحتلاً وزمناً متتابعاً، يتحرك النص وكأنه شريطٌ سينمائيٌّ: «وكانت آخر أمانيه أن يمشي على مَهله في يافا، قُبَالَةَ البحر، قرب مسجدها القديم. جلس ينتظر صبح المدينة، شمسها التي أشرقت بين يديه. خَلف ظهره ترك المدينة الملفّقة، مقلوبة، ممنوعٌ على خاطفيها الخروج إلى الشوارع، وترك لهم أشباحه كما الأساطير، صار ثلاثة يبحثون عنه، قالوا عنه خمسة مقاتلين، جاؤوا بكل عتادهم، جاؤوا بشياطين الموت كلها، متكال، سيريت، يمام، وكان باسمه الواضح يشق الليل، رعدٌ وبندقيته. يولدُ الفلسطينيُ في المخيّم، وفيه يخطو خطوته الأولى، وحين تُدركُ ساقاه الجهات يمشي بفطرةٍ صوب بلاده الأولى، يستردّها أو يموت فيها» ٢٠٢٢/٤/٨، وَهُنا يكاد النص يَتفجَّر بالبلاغة أو ينفجر بها عبر الدراما والسَّرد.

يرى طارق عسراوي أنَّ الفلسطينيين لاستيعاب حالة الفَقد يحاولون تَجميل الموت وتحويل البكائيات والمراثي إلى جماليات، والحزن إلى انتصارات، وذلك لتجاوز الفاجعة والواقع المؤلم إلى عوالم أخرى: «الرصاص يغتال الحقيقة، تسقط شيرين أبو عاقلة برصاصةٍ تُشبه الاحتلال، سنقول في ذروة الحزن أنَّ الحقيقة لن يمسّها ضرر، ونحن نعلم بأننا كاذبون، برصاصة واحدة تم اغتيال ٢٥ عاماً من الحقيقة، سوف نجمّل حزننا، ونخفيه عن الكاميرات، لكنَّ حزننا سوف يمزّق أفئدتنا، وسوف نبكي كثيراً ما أن نغلق الباب على خسارتنا الفادحة. تصير الحروف نصالاً في رثاء الحقيقة، كيف لهذه الكلمات أن تصف ٢٥ عاماً من حضور شيرين أبو عاقلة، صورتها، صوتها، انفعالاتها» ١١/ ٥/ ٢٠٢٢، ويرى إيهاب بسيسو أنَّ المعركة معركة وجود، وصراعٌ على الهوية والرواية والذاكرة: «بإمكانكم أن تقتلونا جميعاً. بإمكانكم مواصلة الكذب واختلاق الروايات البائسة حول قتلنا، الروايات التي تحاولون فيها تبرير جرائمكم اليومية من رصاص وحواجز وجدران عَزل وأسلاك شائكة. سنظل نغيظكم بوجودنا، بألوان علمنا الوطني الأربعة وصورنا في الملصقات وذاكرتنا ونضالنا الذي لا يفنى بل يتجدد كل يوم مع كل صرخة حياة جديدة وأنين. اليوم لم تقوموا فقط باغتيال شيرين أبو عاقلة، كما تظنون، بجريمة بشعة استهدفتها برصاصة في الرأس فيما كانت تغطي جريمة اقتحامكم لمخيم جنين. ولكنكم ولشدة المأساة اليومية، وحالة الصمت الكوني المريب جددتم - كما تفعلون كل يوم - صفتكم الوجودية على أرضنا كقتلة ومجرمين» ٢٠٢٢/٥/١١، ويشتبك بسيسو في هذا الخطاب المُوجه إلى العدو مع كل أدوات الهيمنة الاستعمارية، بِنَبرةٍ خطابية ثورية صِدامية عالية.

يلتحم طارق عسراوي مع الحالة اليومية المتصاعدة للمقاومة الفلسطينية، ويحاول أن يصف مشهد المأساة الفلسطينية المتكرر والقتل اليومي المتواصل، ويتحرك في اتجاهين، في اتجاه القبض على حركة التاريخ واستعادة هوية المأساة، وفي اتجاه رسم صورة وهوية الضحية وتمجيد بطولة شهداء فلسطين، ويبدأ نصه بِدَال البلاد وهي مكون شاسع وممتد على مستوى الجغرافيا والتاريخ: « ثمّة بلاد لم تبدّل ثوبها، تمارس طقوس الوداع بكامل أناقة الشهداء، تضع ابتساماتهم الأخيرة على الشرفات مثل زهر الجليل. هذا الصباح، أفاقت البلاد على جنائز مستمرة. لم تتوقف، وكأنها جنازة واحدة تَعبُر البلاد منذ احتلالها. ثلاثة شهداء في جنين، يُكملون سيرة شهداء عكا الثلاثة، وكأنَّ البلادَ لم تُبدّل طقس حريتها منذ السابع عشر من حزيران العام ١٩٣٠.

ثلاثة شهداء يمسكون بيد الفجر، بقبضاتهم يشدُّون خيوط الشمس المستحيلة ليكون نهار الحريّة ساطع الحضور، بثلاث سُنبلات من مرج ابن عامر يقفون بوجه الموت، ينازلون وحش الليل مُدججاً بمخالب القتل، يُكملون سيرة الشهداء الثلاثة في صباح عكا في الأمس القريب، يكملون الدرب» ٢٠٢٢/٦/١٧، وَهُنا يَعمد عسراوي إلى ربط التواريخ ببعضها وإعادة قراءة الظروف المحيطة بالعمل

الوطني بين زمنين يفصل بينهما أكثر من ٩٠ عاماً بالتقاط اللحظة التاريخية، واستعادة حركة الزمن بِوَصلِ حاضر الفلسطينيين بماضيهم ببعث التاريخ الحي للمأساة، وإحياء ذاكرة يوم الثلاثاء الحمراء للشهداء الثلاثة عطا الزير وفؤاد حجازي ومحمد جمجوم الذين أعدمهم الانتداب البريطاني في سجن القلعة بمدينة عكا في ١٧/ ٦/ ١٩٣٠، حيث يتلاقى الزمنان وينصهران في ملحمة بطولية واحدة مع الشهداء يوسف صلاح وليث أبو سرور وبراء لحلوح الذين اغتالهم جيش الاحتلال الإسرائيلي على أرض جنين.

أمَّا عن مكانة الشهداء وغايتهم الأسمى؛ فإنَّها تتمرأى لدى مراد السوداني في مشهد صوفي مهيب يُصور فيه حكاية الشهيدين أحمد عابد وعبد الرحمن عابد من قرية كفر ذان اللذين أُستشهدا في عملية اشتباك مسلح على حاجز الجَلَمة الاحتلالي شمال جنين: «يتعانقان في قوة المعنى والفعل صُعُداً نحو سدرة الحضور والبهاء. جنين العِناد المقدس» ١٤/ ٩/ ٢٠٢٢، وقد تمَّ توظيف التَّناص الديني في هذه الوَمضة في كلمة سِدرة التي تُحِيلُ على سدرة المُنتهى الشجرة العظيمة التي تقع في الجنَّة، وعند طارق عسراوي يتماهى الشهداء مع الأرض: «كلّ أولئك الشهداء الذين ذرفتهم عيون أمهاتهم على خد المخيم، ما زالوا يُلبِسون مرج ابن عامر كسوة السنابل الطرية الخضراء، ويمنحونه ربيعاً يتباهى به في موسم الحصاد» ٢٠٢٢/١٠/١٤، ويبث تشبيهاته واستعاراته التَّشخيصية لتوصيف حزن الأمهات وصبرهنَّ وثباتهن وصلابتهن، كما جاء أيضاً في ومضة عاطف أبو سيف التي نَقَل فيها مشاعر أم الشهيد مجاهد داوود الذي استشهد خلال مواجهات مع جيش الاحتلال في بلدة قراوة بني زيد غرب سلفيت: « - زي العصفور رّفَّ وراح - هكذا وصفت والدة الشهيد مجاهد داوود من قرية حارس في سلفيت ألمها وفاجعتها برحيله. أي ألم وأي إيجاز» ١٧/ ١٠/ ٢٠٢٢، وفي هذا التشبيه التَّمثِيلي البسيط والعميق معاً ترتفع بلاغة التصوير إلى بلاغة الدم.

وقد شهدت فلسطين في العام ٢٠٢٢ تصاعداً في الحالة الوطنية الشعبية، وانفتاحاً على المقاومة بكافة الأشكال والأدوات بمشاركة شَبَابية واسعة، كان من أبرزها بُطولة الشهيد عدي التميمي ابن مخيم شعفاط، والتي مَثَّلت نموذجاً حياً للجيل الفلسطيني الثائر المِقدام ، وكان قبل استشهاده قد نّفَّذ عمليتين عسكريتين من نقطة الصفر بسلاح المُسدَّس، مما أكسبه رمزية خارقة يقول فيها مراد السوداني: «هذا الفتى العديّ الطالع من حدائق النار. الفتى القرار، بعد عشرة أيام من المطاردة يجدّد فعله المجيد واضحاً مُعانداً ومنازِلاً. الفتى الذي أعطى للصفر قيمته وقلب المعادلات وكسر النمط. الفتى الفدائي حمل على عدوه غير هيّاب ولا رجَّاف مثبتاً الزمن على زناده، في صيرورة الفعل الفدائي الفلسطيني» ٢٠/ ١٠/ ٢٠٢٢، وَيَرثيه طارق عسراوي في قصيدة مُشبعة بالفخرِ والاعتزاز، تتمسرح فيها هويتين ودلالتين متناقضتين، عبر ثنائية الضحية والجلاد. ثنائية الحرية والموت:

« إلى عديّ التَّميمي
خُذنا إليك
وبقيتَ حُراً
تُشعِلُ ثورةً في المستحيل
وفكرةً
تمضي بقلبكَ عاشقاً صوب البلاد

يَدُكَ الزِّنادُ، وخُطاكَ مثل رسالةٍ نَزَلَتْ على ليل المخيّم. ٢٠/ ٢٠٢٢/١٠، ويكتب مراد السوداني عن فرسان نابلس الشهداء: وديع الحَوَح، مشعل بغدادي، حمدي القيم، قصي التَّميمي، وحمدي شَرف الذين قَضَوا في معركة البلدة القديمة من نابلس في حوش العَطعوط وحارة الياسمينة، تلك الفضاءات المكانية التي لها رمزيتها وطاقتها ومكانتها التاريخية والكفاحية، وما تُمثله من انبعاث حالة شبابية بمفهوم جديد للوطنية والعمل المُقاوم، وتشكيلات مسلحة باسم عرين الأسود وكتيبة جنين «الفدائيون الجُدُد»: «خمسة فرسانٍ من عسلٍ قانٍ. بطولات وارفة وظليلة تليق بالرجال الميامين وسيرة الشهداء الأجِلاء. نابلس خَذينُ جنين في عناق فَذ بين الكلمة والبندقية تأكيداً على خط فلسطين السليم» ٢٥/ ١٠/ ٢٠٢٢، وينحاز السوداني في هذه الوَمضة إلى المقاومة المُسلحة والكلمة المُسلحة.

وبكبرياء وشموخ يُقدم إيهاب بسيسو الشهداء: «إنهما جواد وظافر الريماوي. أبناء صبرنا الطويل وإيماننا المطلق بالحرية. إنهما خلاصة أرواحنا التي تناضل كل يوم من أجل الحق في الحياة والعدالة والكرامة الإنسانية.

الشقيقان اللذان ثبتت أقدامهما في مواجهة قوات الاحتلال. الجريمة الدموية المكررة التي ترتكبها قوات الاحتلال في عدوانها الإجرامي المتواصل على شعبنا كل يوم. إنهما جواد وظافر الريماوي وجع وحزن وغضب» ٢٠٢٢/١١/٢٩، ويُقدم بذلك نموذجاً حياً صارخاً لصورة من صور الشهادة على أرض فلسطين. شقيقان في الدَّم والشهادة، من بلدة بيت ريما شمال غرب رام الله.

وفي نموذج آخر جارح حتى العَظم، ينعى مراد السوداني الأسير الشهيد ناصر أبو حميد، باسم الاتحاد العام للكتّاب والأدباء الفلسطينيين، شهيداً بَعد صراعٍ مع مرض عُضَال في سجون الاحتلال، وهو المحكوم يالسجن المؤبد ٧ مرات لمشاركته في تأسيس كتائب شهداء الأقصى والمقاومة المسلحة، وهو أيضاً شقيق شهيدين، وأربعة أسرى محكومين بالسجن المؤبد: « برحيل ناصر أبو حميد يكون الكيان المحتل قد سَدَّد رميته لقتل الضمير الإنساني، استشهاد أسير في وطن محتل، شهادتان للدنيا والضمير،

وأما البطولة؛ فمحطة صارت في الخلف البعيد، لأنَّ الأسير الشهيد قنطرة عملاقة في فضاء مُلَبَّد بانعدام الضمير، واليوم نُوَدع شهيدنا المقدام ناصر أبو حميد، بعد سنوات من الصمود ومواجهة السَّجان الغاشم، والمرض الشديد، جبهتان فرضتا عليه في آن واحد، وظل صامدًا كالجبل الأشم، وصبره تعبت منه الأيام، ولم يتعب نحول جسده الصلب، ولكن بصموده عرى سوأة الاحتلال، ناهب العافية، بالبطش العتيل، والقهر العابر لكل أخلاقيات البشر، احتلال مَا مَرَّ على شمس، ولا على أرض ولا عباد» ٢٠٢٢/١٢/٢٠، وبذلك تكون صفحات الفيسبوك قد أتاحت مساحة مَرنة للبيان الرسمي الذي لا يقف عند حَد الإدانة؛ بل ينبري خطاباً مشتبكاً مع النقيض الاحتلالي وفاضحاً لممارساته الإجرامية بحق الأسرى الفلسطينيين، خاصة بعد قرار الاحتلال حجز جثمان الشهيد ناصر.

من الواضح أنَّ الخطابات المتنوعة في فضاء الشهداء، وهي تلتقط الحدث اليومي تبدو في جوهرها مُرافعة عن الشهداء وانتصاراً لحكاياتهم وتمجيداً لبطولاتهم أكثر من كونها توثيقاً وتسجيلاً، لأنَّ تلك مُهمة الإعلام والذواكر الرَّقمية، أما لغتها؛ فهي درامية بليغة ذات طاقة شِعرية وجمالية بما يليق ببلاغة الفعل المقاوم.

فضاء الحرية / الأسرى:

السجن بوصفه مكاناً مُعادياً يُعَدُّ أحد منظورات المأساة الفلسطينية ذات الأبعاد النَّفسية والفلسفية الوجودية التي حَفَرَت عميقاً في حياة وتاريخ الشعب الفلسطيني ونضاله المتواصل وكفاحه المستمر، وتركت أثراً فادحاً في ذاكرته الفردية والجَمعية، وهي تجربة رمزية تضطلع بمسؤولية تاريخية في تَعرية ما يحدث في التاريخ من بَشاعةٍ وَقُبح ضد الإنسانية، وما تُمثله سجون الاحتلال الإسرائيلي من محاولات لتفكيك وتعطيل الوعي الوطني الفلسطيني، وتحقيق إزاحة فارقة في فِكر ومُنطلقات المقاومة الفلسطينية.

ويُعدُّ طارق عَسراوي من ألمع الأسماء الفلسطينية المُثَقَّفة الوازنة التي كَتبت في شؤون الأسرى، ومن أصحاب الشعارات والنصوص التي انتصرت لقضاياهم العادلة وتَتَبَّعت يومياتهم وخطواتهم النضالية ومعاركهم المَطلَبية فُرادى وجماعات، عبر صفحته الخاصة على الفيسبوك ومواقع وكالات الأنباء الفلسطينية والعربية، وتعهده بالتَّعليق على يوميات الأسرى وإضراباتهم عن الطعام احتجاجاً على ظروف اعتقالهم، في لوحاتٍ سردية وحكائية مَرفوقة بصورٍ ورسوماتٍ تشكيلية وكريكاتورية مدعومة بالشعار القصير والومضة الخَاطِفة، يتم الاستعانة بها وتوظيفها لدعم منشوراته وتعزيز استراتيجياتها الحجاجية وتقنياتها التَّعبيرية الجمالية والتَّخييليَّة، ذلك أنَّ الصورة واللوحة الفَنِيَّة عامل إحفاز قوي لإثارة المُتَلَقي وإدماجه في العملية الخطابية، ومحاولة النَّفاذ إلى أعماقه وتقريبه من الدلالات والمعاني باعتبار الصورة وصفة موازية للخطاب الذي يبدو مجموعة صور سردية عند

عسراوي؛ فالإنسان كما يقول غاستون باشلر « صانع صور ويعيش بالصور».

ومن الشعارات الداخلية التي حملتها هذه الرسومات لفنَّان الكريكاتور محمد سباعنة، والمُعنونة في كل لوحة بـ»أجندة الحرية» والتي كانت خاصة بإضراب الأسرى «إضراب الحرية والكرامة» الذي استمر ١٩ يوماً، بداية من ٢٠٢٢/٩/٢٥، بمشاركة ٣٠ أسيراً: « قرارنا حريتنا / السَّلامُ على جوعكم المقاتل، طوبى لكسرة الخبز الرصاصة / لَمَّا يِبطل الجوع كافر ويصير الجوع ثائر/ لنا صبرُ البلاد وملحها ونقاتل/ وثلاثون قيداً لا يحبسون المدى/ وشمسنا جائعة للحرية / ونصعدُ إلى الحرية زنزانة زنزانة « وتعريف السجن عند عسراوي له فلسفة وجودية تقوم على التَّمرد والمواجهة والتَّصادم مع السجان: «إنهم يُضيفون اسماً جديداً لأسماء فلسطين، يرفعون الحريّة على أكتافهم؛ فالحريّة ليست فقط الخلاص من الاحتلال، وإنما هي أيضا « لا « كاملة في وجه الهوان والخضوع « ٢٨/ ٧/ ٢٠٢٢؛ فالاحتلال لا يُجفف الإبداع ولا يقتل الإرادة والشعور بالحرية، وفي ذلك يقول الشاعر محمود درويش: « في السجن تُعانقك الحرية، وفي السجن تمتلئ بالوطن»١٤،» شكراً للسَّجان الذي يجعلني والحرية معادلة واحدة «١٥ وتلتقي فلسفة السجن عند عسراوي مع التَّصَور بأنَّ السجن هو» الخروج من الوطن، ولكنه الدخول في عُمقه، هو التَّوقف عن الفعل لكنه الفعل أيضاً، هو العَزل ولكنه محطة تستجلبُ العالم إليه»١٦ ويتساءل عسراوي مُتَعَجباً ومُعْجَباً: « ماذا يعني أن يخوض ٣٠ أسيراً الإضراب عن الطعام؟

إنه اليوم الثالث للإضراب عن الطعام، ماذا يعني ذلك؟ يعني أن ثلاثين حُرا شَدُّوا رِحالهم إلى الحرية، سَرجوا صهيل الإرادة، كسروا نوافذ الخوف، وأطلقوا غزلان أرواحهم إلى جنون البراري. يعني أنهم يجلسون الآن وجهاً لوجه، نِدّاً بِند مقابل غريزة الإنسان، وخلف المشهد سجّانٌ يُطلُّ ببطشه وموته» ٢٠٢٢/٩/٢٧ وبالمُساءلة والإجابة حول المعنى وضرورة الفعل يُواصل عسراوي رسم لوحاته السردية المُعَايِشة للإضراب بالتَّخييل ومحاولة تَمَثُّل وتَصَوُّر مُجريات الإضراب - التَّصوير الحَي المباشر- : « ماذا يعني اليوم التاسع للإضراب؟ يعني أنَّ تمرداً عَفوياً يُصيبُ الزنازين؛ فلا يعود المضربون ملتزمين بالوقوف أو الانصياع للسجان، وأن تبقى آذانهم خارج السجن لِسَماع كل خبر جديد» ٢٠٢٢/١٠/١٣، وفي السجن يحضر الفِعل الكفاحي فِعلاً في بناء الأمل وتعزيز الصمود.

فضاء التاريخ والذاكرة / المناسبات الوطنية والنُّخب الثورية والأدبية.

لقد أدرك الفلسطينيون أهمية إعادة البناء والهَيكَلة للهُوية الفردية والجماعية؛ باستنطاق المعرفة التاريخية وإحياء الذاكرة الوطنية، والإضاءة على المُناسبات والتَّواريخ والأحداث الكُبرى التي مرت في تاريخ الصراع مع النَّقيض الاحتلالي، وتأصيلها في وعي الجيل الجديد الذي يُطِلُّ على ذاكرته وتاريخه عبر الفضاء الافتراضي، والكشف بذلك عن هوية الضحية وهوية المأساة، واستحضار تاريخ

النُّخب الوطنية وتخليد ذِكراها، وتعزيز الشعور الوطني والارتباط الوجداني بهذا التاريخ الذي يُطلَقُ عليه «المَجد المُختار». وفي هذا الفضاء نعرض لبعض النماذج:

يوم الأسير الفلسطيني ١٩٧٤/٤/١٧: وهو اليوم الوطني الذي أقره المجلس الوطني الفلسطيني وفاءً للأسرى وتقديراً لتضحياتهم، ومن أجل مساندتهم ودعم حقهم بالحرية، وتأكيداً على مشروعية نضالهم وقضاياهم العادلة التي لا تتجزأ عن قضايا النضال الفلسطيني، وهي مناسبة وطنية حاضرة بقوة في أجندة الوعي الكفاحي الجمعي للشعب الفلسطيني، وفي منشور يحمل العنوان: «عن القيامة وجلبوع ويوم الأسير» يكتب إيهاب بسيسو: « في يوم الأسير الفلسطيني ما زالت الزنزانة حيزاً معتماً من وقت ثقيل ومساحة خشنة. في ٦ أيلول ٢٠٢١ قام الفلسطيني مجدداً من الأرض، ليعيد بناء النظام الشمسي حسب الرؤية الفلسطينية للعالم؛ فالشمس من منظور فلسطين - الحرية - تصعد من جوف الأرض لتبدد عتمة الموت الثقيلة كما فعل محمد ومحمود العارضة وأيهم كممجي وزكريا الزبيدي ويعقوب قادري ومناضل انفيعات، حين سجلوا قيامة جلبوع المجيدة لتصبح درساً معاصراً من دروس القيامة. إنه يوم الأحد ١٧ نيسان ٢٠٢٢، ستنهار السجون حتماً تلك التي تحاول كل يوم قتل الحرية، هكذا أخبرنا التاريخ وأخبرتنا التجربة وعلمتنا الحرية» ٢٠٢٢/٤/١٧، ويُبَشر بسيسو بالحتمية التاريخية لزوال الاحتلال.

يوم الأرض ١٩٧٦/٣/٣٠: محطة مهمة وبارزة في تاريخ النضال الفلسطيني، تعود أحداثها إلى العام ١٩٧٦ عندما أقدم الاحتلال على مصادرة ٢١ ألف دونم من أراضي الفلسطينيين في الجَليل لتنفيذ مشروع تطوير الجَليل لصالح الاستيطان ومن أجل تهويد الأرض الفلسطينية وتفريغها من سكانها؛ فانتفضت الجماهير الفلسطينية وَعَمَّت الاحتجاجات والإضراب الشامل في مناطق الجَليل، واستشهد ستة فلسطينيين: « في ذكرى يوم الأرض الخالد، تُضيء الأرض كما لو أنها الشمس، ليولد الضياء من ذاكرة الشهداء. في فلسطين ضياء الأرض حقيقة وبلاغة تصحح مسار التقويم الزمني للعدالة وحق الانسان في الحرية والكرامة» ٢٠٢٢/٣/٣٠ إيهاب بسيسو، ومازال الفلسطينيون يُحيُون هذه الذكرى كل عام تأكيداً على تمسكهم بأرضهم وتصديهم لسياسة الاستيطان.

الانتفاضة الأولى/ انتفاضة الحجارة ١٩٨٧/١٢/٨: من أهم المحطات النضالية في تاريخ المقاومة الفلسطينية؛ حيث كان حادث دهس سائق شاحنة إسرائيلي مجموعة من العمال الفلسطينيين واستشهاد أربعة منهم على حاجز بيت حانون شمالي قطاع غزة، الشرارة الأولى لاندلاع الانتفاضة التي تميزت بالأداء الكفاحي الشعبي الشامل، والقيادة الميدانية والتنظيم الجماهيري الذي أبدع في أساليب المواجهة: «الانتفاضة الأولى. تفاصيل ذكرياتنا البِكر. كنا لا ندرك إلا أن ثمة جنود يجب التخلص منهم وملاحقتهم وتنغيص وجودهم وجعله مكلفاً وعبئاً. في الانتفاضة بدت للعالم صورة

الاحتلال الحقيقية. لم يستطع حتى عشاق الصهيونية أن يغمضوا أعينهم عن وحشية الجندي الذي يكّسر أطراف الطفل والفتاة التي تحمل كتابها المدرسي وحجراً يشير في آخر مداه صوب الأمل المنشود. البطولة التي تتحقق من خلال البحث عن الخلاص. كفاح الكل بلا استثناء في الجميع والمجموع. كما في الصورة المرأة وكما دائماً هي البطل الحقيقي وراء الحدث الاستثنائي. نسوة المخيم اللاتي وقفن بكل شجاعة لمواجهة الجنود. المرأة التي تقذف الجنود بالحجارة، والتي تحمل الحجارة للشبان والتي تخبئهم والتي تصد الجنود والتي تحمل دلاء الماء لتغطية قنابل الغاز وتوزع على الشبان البصل للتخفيف من آثار الغاز المسيل للدموع، حكايات كثيرة لابد أن أبناء ذلك الجيل ينظرون إليها بالكثير من الحنين» ٢٠٢٢/١٢/١٠. في هذه اللوحة السردية لـعاطف أبو سيف شهادةٌ على أنَّ المرأة الفلسطينية خرقت منظومة الأدوار الجندرية المُقَنَّنَة اجتماعياً، وانتقلت إلى دور الفاعل التاريخي الحيوي في المقاومة الفلسطينية، وفي نص طارق عسراوي نلمس أثر الانتفاضة العَميق والمُتأصل في حياة الشعب الفلسطيني « في ذكرى انتفاضة الزمن الجميل ما زالت حجارة الأرض والكوفية وسمّاعة البيان الأول تَتَقِدُ منذ العام ١٩٨٧، أما الجدار فها هو ناصع البياض، نظيفاً، ينتظر اليد التي تخطّ عليه الشعار نموتُ واقفين ولن نركع/ لا صوت يعلو فوق صوت الانتفاضة « ١٢/٨/ ٢٠٢٢، تلك الانتفاضة التي أفرزت مدونتها السياسية والأدبية بما يليق بالبطولات والتضحيات من شهداء وأسرى ومبعدين وجرحى.

ياسر عرفات : «كان ياسر عرفات الفصل الأطول في حياتنا، وكان اسمه أحد أسماء فلسطين الجديدة الناهضة من رماد النكبة إلى جمر المقاومة» يَعكس هذا الوصف الأسطوري من الشاعر محمود درويش لشخصية ملحمية في التاريخ العربي المعاصر، الدَّور التاريخي والحضور الدائم للشعبية الجارفة والرمزية الوطنية العالية التي يتمتع بها، ومقالة عَرفاتنا لعاطف أبو سيف في ذكرى رحيله - ٢٠٠٤/١١/١١ - تُترجمُ هذه المَكَانة الثابتة الممتدة: « ربما يصعب تخيل التاريخ الفلسطيني دون ياسر عرفات وكينونته وحضوره الطاغي في مفاصل الحياة الفلسطينية اليومية.

كان عرفات صديق كل واحد منا بطريقة أو بأُخرى، وكان رفيق سلاح لكل من حمل السلاح مِنا أو مِن أصدقائنا بصرف النَّظر عن انتمائنا السياسي، وكان رفيق قلم لكل من كتب قصيدة عن فلسطين أو رواية من واقعها أو عن ناسها أو غنى بحنجرته أغنية حزينة أو فرحة عن جمالها أو عذاباتها. كان عرفات رفيق درب للجميع طالما كان الدرب هو فلسطين أو يعبر منها أو يقود لها.عرفات الذي نجح في جعلنا نشعر بأننا ما نحن عليه، لا ما أرادت لنا النكبة، ولا ما يخطط له اللصوص الذين سرقوا البلاد ويحاولون» ٢٠٢٢/١١/١٣، وتقديم صورة ياسر عرفات بهذه البلاغة يُعتبرُ توجيهاً حِجاجياً في إطار حجة الدَّعم التي تروم التثبيت والتقدير، وتَجَلِيَاً لإشعاع الرمز في الزمن وأثر

الأسطورة الفردية في الجماعة ودورها في صناعة التاريخ.

غسَّان كَنفاني (١٩٣٦/٤/٩-١٩٧٢/٧/٨): الثائر والأديب والصحافي والفنان التشكيلي الذي أنجز أعمالاً وترك آثاراً أدبية وفنية وسياسية تَدَفَّقت عبر رواياته وقصصه ومسرحياته ورسوماته ومقالاته ودراساته النَّقدية ولقاءاته الصحافية، يُعتبر أحد أشهر الكُتاب العرب في القرن العشرين، ورغم اغتياله الصَّادم في بيروت، ورحيله المُبَكر إلا أنه بقي حاضراً بقوة مُؤلفاته وَتَرِكته الثقافية الزاخرة التي تُرجِمَت إلى لُغَاتٍ عديدة، وهو أول من نَبَّه لمفهوم أدب المقاومة وشعر المقاومة في فلسطين، ولقد ظلَّ عَلَماً في حياته ومماته، ولم يَغِب عن الذاكرة الفلسطينية شَخصاً وَنَصاً، كما يسرد إيهاب بسيسو: «الوقت المناسب لتذكر غسان كنفاني وسيرته المشحونة بذروة العطاء لحرية فلسطين هو كل وقت على مدار الحياة. كانوا يحاولون معاقبة الكلمة والحكاية واليد التي تصنع من بطولات الحياة اليومية مسارات للمقاومة، كانوا مخطئين حد الجريمة المتواصلة في الجسد الفلسطيني المحاصر بكل مسببات الموت» ٢٠٢٢/٧/٨، لقد تحوَّل غسان كنفاني إلى أيقونة كفاحية في تاريخ الشعب الفلسطيني.

سِمات وأشكال واستراتيجيات الخطاب:

بعد استعراض فضاءات الخطاب، نتوقف عند عديد من خصائه وأشكاله وسماته، وقد رصدناها على النحو التالي:

كثافة اللغة: حيث تتلاحق العبارات وتتدفق بعنفوان جارف، وكأنَّ الكاتب يحاول أن يسبق دلالة المفردة بالتَّعبير بأُخرى أشَدُّ وقعاً، إنها تَغزل معجماً لغوياً يعتمد الإثارة والتَّشكيل والتلاحق والثَّراء اللغوي، بالإضافة إلى السمة الانفعالية التي تلفُّ الخطاب والحالة النفسية التي تطبعه، وهي بذلك تُخاطب المساحات الحَساسة والحُمُولات الوجدانية عَبْرَ خطاب صِدامي مُتصاعد.

العَنوَنَة: ترتكز الخطابات على عناوين دالَّة مرتبطة معها بعلاقة شِعرية إيحائية، مما يعني « استدعاء القارئ إلى نار النص»١٧ وهي غالباً ما تمتاز بالفَداحةِ والتكثيف والإحالة والمساءلة والإغراء؛ فهي آسِرة مُدهشة.

الإيجاز: هو من الأنواع والأشكال الخطابية التي أتاحها الفضاء الرقمي مراعاةً للمقامات التواصلية في عصر الرَّقمنة والسرعة، وهو أحد قوانين التواصل بين الناس في حِواراتهم ومحكياتهم ومُكاتباتهم، وعلى هذا النحو كان الإيجاز الخطابي سلاحا في معركة إثبات الهوية الفلسطينية، مثلما كان أداة جمالية وحجاجية في خطابات الفيسبوك.

الشعرية: خطابات مفعمة بشعرية الانزياح وتميلُ إلى اللغة الشعرية، حيث تتجافى الجمل

والمفردات عن المباشرة والرَّتابة، وتَعمدُ للاتكاء على أوجه أسلوبية تفيض بالإحالات والتَّناصات والاستعارات والمَجازات التي تأخذ المتلقي إلى فضاءات المعنى المفعم بالتَّحول والتَّوتر، وتوجيهه إلى بؤرة الدلالة في الخطاب.

خطاب تَعبَوي: قادر على الدَّعم والتَّنوير والتَّثوير، وتعزيز القيم الوطنية والإنسانية، وحشد المتفاعلين وتزويدهم بالحقيقة واستنهاض طاقاتهم واستنفار قواهم الحَيَّة.

اللاخطية: يتميز الخطاب التواصلي الرقمي عبر صفحات الفيسبوك باللاخطية، حيث لا ترتبط كل وحدة بباقي الوحدات الأُخرى المشكلة للنص؛ بل يمكن أن تكون هناك استقلالية للوحدات التي تأخذ هيئة عُقد، يتم الربط فيما بينها بواسطة روابط توفر إمكانية الانتقال من وحدة إلى أخرى بطريقة يسيرة، وعليه للمتلقي حرية البدء في العالم الافتراضي كيف يشاء وأن يضيف ويعدل ويعلق من أجل استخلاص دلالة الخطاب.

النَّصيَّة الموازية: ونقصد بذلك النص الذي يُحيط بالنص المركزي، ويُساعد على فهمه وتفسيره واستيعابه وتأويله، وهو كل نص سوى النوع الأول، ويصنف بأنه نصٌ عالِم مُضمر له صلة بنظرية التَّلقي، ويمكن إدراجه في الهوامش النصية التَّداولية المُجاورة التي تتسم بالدَّعم أو الهدم.

المَرْجِعِيَّة: تُشكل منشورات الفيسبوك المُتناولة في هذه الدراسة مصدراً ومرجعاً ودليلاً مهماً للذاكرة الوطنية الفلسطينية؛ فهي حاضنة معرفية وتاريخية يُمكن الرجوع إليها والاستعانة بها بوصفها وثيقة سياسية وثقافية.

التَّحفيز بالصورة الوطنية: تَعمد الصورة الدَّاعمة للمنشور « إثارة المشاعر، وما أكثر ما تُغني عن اللفظ، وما أكثر ما تعنيه وتتكامل معه، وتتجلى قيمتها التأثيرية أكثر إذا ما نُظر إليها من زاويتي (الباتوس والإيتوس) خصوصاً إذا ما دخلتها يد الصنعة بالقص والتركيب»١٨

الوَمْضَة: تتميز بعض المنشورات على صفحات الفيسبوك بالنص القصير. الومضة أو اللمحة أو الإشارة أو النُتفة أو البَرقة اللغوية ذات الألفاظ القليلة المضغوطة والمكثفة التي تختزل المقال في كلمات قصيرة ودقيقة مُحَمَّلة بدلات كثيرة وعميقة.

الشعار: تبدو كثير من الخطابات شِعاراً أو عبارة أو فقرة، وعادةً ما تكون ذات دلالة قوية ومُرَكَّزَة، ومُعَبرة عن رؤية ورسالة سياسية.

البيان والمَقال: وهي أشكال خطابية يتم استثمار مواقع التواصل الاجتماعي لنشرها، وتوظيف الفضاء الرقمي لترجمة موقف سياسي عبر البيان السياسي والمقالة التاريخية أو التَّسجيلية أو القصائد الشعرية.

استراتيجيات الخطاب: يقوم الوضع الخطابي لمنشورات الفيسبوك على تداخل مجموعة من المقامات والمواضع، والذي يُعدُّ الحجاج أحد أركانها، والكشف عن وظيفة الحجاج فيها هو بحثٌ في المواقف التواصلية في خليطٍ من الأشكال الخطابية التي لا تكتفي بذاتها كصناعة لفظية أو بِنية لغوية، أمَّا المسلك الحِجاجي الذي تنتهجه هذه المنشورات؛ فإنَّه يعتمد على استراتيجية الدفاع أولاً، ومِن ثَمَّ استراتيجية الإدانة والتَّقويض، وهي خطابات الضرورة التي تتبنى استراتيجية السجال السياسي الذي يتطلع إلى وضعية القضاء على حِجج النَّقيض الاحتلالي، والإطاحة بمكوناته وتقويض مواقفه.

اليومية: يمكن تجنيس الخطابات والمنشورات المُنتخبة في هذه الدراسة ضمن أدب اليوميات وكتابات الأنا من خلال تلمس مختلف المعايير التي يقوم عليها هذا الجنس، وإذا كانت اليوميات تُعنى بما هو حميم وداخلي وذاتي؛ فإنَّ هذه الخطابات تكشف لنا خصوصيتها التي لا تنكفئ على مسرحة ذاتها الخطابية أو هويتها السردية فحسب؛ بل تتعداه إلى عوالم متعددة ورحبة، قادرة على الاندماج مع الواقع السياسي والاجتماعي، والتفاعل معه والتأثير فيه، وهي خطابات يتقاطع ويتفاعل فيها ما هو تداولي بما هو جمالي. تقول الباحثة الفرنسية بياتريس ديدييه « ما يُميز اليوميات الخاصة هي الحرية، والكاتب في يومياته ليسّ مُجبراً على احترام شروط الكتابة الأدبية، وهو حر في أن يقول كل شيئ « أي خطاباً حُراً، وتُشكل هذه الخطابات - خطابات الحياة - التي تعتمد على الوقائع والشهادات اليومية ببليوغرافيا قادرة على استيعاب كل ألوان الكتابة الوجيزة عبر الوصف والتدوين اليومي شاهداً ومشهوداً، وبهذا أضحى الفيسبوك مدخلا مهما لقراءة الواقع والذاكرة، وتحليل سياقات الفعل الوطني، ويمكن الارتكاز عليه كنافذة معرفية وحِجاجية في دراسة الفضاءات المكانية والدلالية، وغيرها من الفضاءات.

المصادر والمراجع:

١. جميل عبد المجيد، البلاغة الرقمية، دار كنوز المعرفة - الأردن، ط١، ٢٠٢١.

٢. حسن خضر، أرض الغزالة، منشورات بيت المقدس، رام الله – فلسطين، ط١، ٢٠٠٣.

٣. دومنيك مانقونو، المصطلحات المفاتيح النقدية في تحليل الخطاب، ترجمة محمد يحيى، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٨.

٤. زينب فرغلي حافظ، جمالية المكان في الرواية العربية: (عمارة يعقوبيان) نموذجاً مجلة الدراسات العربية، كلية العلوم، جامعة المنيا، مصر، المجلد ٤، العدد ٢١، يناير، ٢٠١٠.

٥. السيد نجم، أدب المقاومة – المفاهيم والمعطيات، دار الهلال، القاهرة – مصر، ط١، ٢٠١٤.

٦. عزّوز علي إسماعيل، شعرية الفضاء الروائي عند جمال الغيطان، دار العين للنشر، القاهرة – مصر، ط١، ٢٠١٠.

٧. مالك الريماوي، رؤى تربوية، العدد: ٣٩/٣٨، ٢٠١٢.

٨. المتوكل طه، أيام خارج الزمن، دار فضاءات – الأردن، ط١، ٢٠١٧.

٩. محمد العنوز، تفاعل الأدب والتكنولوجيا – نصوص الواقعية الرقمية، دار كنوز المعرفة – الأردن، ط١، ٢٠١٦.

١٠. محمد مشبال وعلي بوجديدي، في بلاغة الأشكال الوجيزة، دار كنوز المعرفة – الأردن، ط١، ٢٠٢٠.

١١. محمود درويش، يوميات الحزن العادي، دار العودة، بيروت، ط٥، ١٩٨٨.

١٢. ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، التنوير للطباعة النشر، بيروت، ط٣، ٢٠١٢.

الهوامش

١. طارق عسراوي Tariq Asrawi، مواليد جنين ١٩٧٨، كاتب وحقوقي، صدرت له مجموعة من الكتب والمؤلفات، وهو أحد المبادرين في تعزيز القراءة في فلسطين، وأحد مؤسسي دار طباق للنشر في فلسطين، ويُعنى بشؤون الأسرى والمبادرات الشبابية، وهو حاصل على درجة الماجستير في القانون الخاص ويُعد لأطروحة دكتوراه في قانون الإثبات، بالإضافة إلى مقالاته الأسبوعية في الصحف الفلسطينية والمواقع الإلكترونية.

٢. إيهاب بسيسو Ehab Bessaiso، مواليد غزة ١٩٧٨، شاعر ومهندس معماري فلسطيني، ووزير الثقافة الفلسطينية السابق، ونائب رئيس جامعة دار الكلمة للاتصال والعلاقات الدولية، وكان قد عمل محاضراً ورئيساً لدائرة الإعلام في جامعة بيرزيت، وهو حاصل على درجتي الماجستير في الإعلام الدولي والدكتوراه في الاستراتيجيات الإعلامية من جامعة كاردف، وله عديد من المجموعات الشعرية والمؤلفات السردية.

٣. عاطف أبو سيف Atef abu Saif، مواليد مخيم جباليا – غزة ١٩٧٣، كاتب وروائي وسياسي، ووزير الثقافة الفلسطينية، حاصل على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية.

٤. مراد السوداني Murad Sudani، مواليد رام الله – دير سويدان ١٩٧٣، شاعر وكاتب، له دواوين شعرية واصدارات في النقد والتحقيق، ورئيس الاتحاد العام للأدباء والكتاب الفلسطينيين.

٥. مشيل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، ص: ٢٨
٦. محمد العنوز، تفاعل الأدب والتكنولوجيا – نصوص الواقعية الرقمية، ص: ٢٣
٧. محمد العنوز، تفاعل الأدب والتكنولوجيا – نصوص الواقعية الرقمية، ص: ١٠٢-١٠٣
٨. محمد العنوز، تفاعل الأدب والتكنولوجيا – نصوص الواقعية الرقمية، ص: ١٠٣
٩. المتوكل طه، أيام خارج الزمن، ص: ١٠
١٠. حسن خضر، أرض الغزالة، ص: ١١١
١١. السيد نجم، أدب المقاومة – المفاهيم والمعطيات، ص: ٨
١٢. عزّوز علي إسماعيل، شعرية الفضاء الروائي عند جمال الغيطان، ص: ٤٠.
١٣. محمود درويش، يوميات الحزن العادي، ص: ٦٩
١٤. محمود درويش، يوميات الحزن العادي، ص: ١٥٠
١٥. مالك الريماوي، رؤى تربوية، العدد: ٣٩/٣٨، ص: ١٦١
١٦. زينب فرغلي حافظ، جمالية المكان في الرواية العربية: (عمارة يعقوبيان) نموذجاً مجلة الدراسات العربية، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، مصر، المجلد ٤، العدد ٢١، يناير، ٢٠١٠.
١٧. جميل عبد المجيد، البلاغة الرقمية، ص: ٢٠، دار كنوز المعرفة- الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٢١.

كتابة خلف الخطوط .. يتعدد الكتّاب وتتكامل المشاهد!

عزيز العصا*

أربعة وعشرون كاتبًا وكاتبة من قطاع غزّة، جمعتهم أشرس وأطول حرب في التاريخ المعاصر، فاجتمعت إبداعاتهم التوثيقية، في تأليف مشترك، بين دفتي كتاب حمل عنوان "كتابة خلف الخطوط". وقع الكتاب، الصادر عن وزارة الثقافة الفلسطينية، في (٢٧٣) صفحة من القطع المتوسط، توزّع عليها (٢٤) عنوانًا.

لا بد لقارئ هذا الكتاب من البدء بالغلاف، بالتوقف عند لوحة الغلاف التي خطّتها ريشة الفنان ميسرة بارود، الذي فقد مكتبه في برج الوطن بقصف احتلالي في ٨ تشرين الأول/ أكتوبر؛ فانهار البرج بما فيه. وبعد يومين فقط، في ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر، قُصف منزله ومنزل عائلته المكون من خمس طبقات، فانهار بالكامل أيضًا(١٩). وله مساهمات بلوحات، تنتمي إليها لوحة هذا الغلاف، التي تحمل إسم «حبر على كانسون»(٢٠)، تشكل فواصل بين المشاركات التي في الكتاب.

كما أنه لا بد من التمعن فيما يحمله العنوان «كتابة خلف الخطوط» من سيمياء تعبر عن لهيب وتأجج يكمنان في المبنى والمعنى، وما يحمله من دلالات التحدي والشجاعة والاقدام، ويفصح العنوان الفرعي «يوميات الحرب على غزة» عن محتوى الكتاب، الذي ينبئ القارئ عن ولوجه إلى أتون حرب حاقدة سعى مقترفوها إلى جعل الحياة مستحيلة في غزة، فتأتي هذه الكتابات «خلف الخطوط»، لتعلن للعالم أجمع أن في غزة رجال ونساء وأطفال وشيوخ ومرضى وأصحاء، جعلوا بصمودهم وتفانيهم من «حرب الإبادة» التي مارستها دولة الاحتلال الاسرائيلي، نوعاً من الانتحار الذاتي لتلك الدولة الشريرة التي انكشف أمرها أمام العالم أجمع، كدولة تقتل بلا هوادة، وتتمتع بجعل الأطفال أشلاء، وتهدم المنازل على رؤوس ساكنيها، وفق شريعة الغاب، بل أسوأ وأكثر انحطاطا مما تفعله الحيوانات المفترسة بضحاياها.

* كاتب وباحث من فلسطين.

يقدم وزير الثقافة د. عاطف أبو سيف لهذا الكتاب، بما يجعله واحدًا من الكتّاب، بل يكاد يكون حاديهم ودليلهم، عندما يكتب من رفح (في ٢٠٢٣/١٢/٢٨)، ما يرسّخ فلسفته ورأيه في معنى "ممارسة الكتابة وقت الخطر"، بأنها جزء من القتال من أجل الحياة، والنضال من أجل عدم الفناء، بل هي وسيلة قتال، وتعبير آخر من تعابير المواجهة (الكتاب، ص: ١١).

ويخبرنا «أبو سيف» بأن النصوص التي تشكل محتوى هذا الكتاب، جاءت من خلف خطوط الحياة وخلف خطوط الموت وخلف خطوط العدو الذي يحاصر غزة من البر والبحر والجو. هذه نصوص كتبها الإنسان الذي هزم الحرب وهزم الموت، كُتِبَتْ من هناك، ولم تكتب عن هناك؛ كتبت والقصف والتدمير يلاحق كاتبها، والموت يكاد يمسك بعروة قميصه، ليجتمع هؤلاء على أن يكتبوا في مواجهة القتل والتدمير أسطرًا تجعل الحياة ممكنة رغم قسوتها (الكتاب، ص: ١١-١٢).

أما القراءة المتمعنة لهذا الكتاب، فتضعك أما مجموعة من الحقائق، لا يمكن الإحاطة بها وذكرها كاملة، إلا أننا وزّعناها، في هذه القراءة، على العناوين الرئيسة الآتية:

أولًا: للحرب معان مختلفة في غزة

أكثر مفردة تكررت في هذا الكتاب هي الحرب «٢٢٦ مرّة». وقد جاءت ضمن سياقات مختلفة، فهناك من الكتّاب من وصفها كحدث، وعالج نصوصًا خاصة بها، ومنهم من تفلسف في تعريف الحرب، ورصد معانيها وآثارها وويلاتها وانعكاساتها على الحياة في غزة، وعلى البشرية جمعاء، مثل:

جيهان أبو لاشين التي ترى بأن «الحرب أكثر تعقيدًا من كل الشروحات، ثم تقول: نجري مبتعدين وقد سقطت كل ذكرياتنا في الطرق المقصوفة مسبقا، نجري وننزف سيلًا من أرواحنا خلفنا، نجري دون أن نعلم أيها سينتهي أولا، نحن أم الحرب (الكتاب، ص: ٤٤).

أما د. حسن القطراوي فيعرف الحرب بأنها «الفكرة الأكثر غباءً لعلاج أمراض الكراهية بين الشعوب، يموت الآلاف ليعيش آخرون تحت مشاعر الحقد والمأساة، الحروب لا تصنع الحياة، بل تجعلها تعيسة بطريقة سريعة، لطالما كان السلام أرخص، لكن صوته مبحوح دائما. وفي

أجـواء الحـرب يخفـت صـوت الحـب، ويعلـو صـوت المـوت (الكتاب، ص: ٥٢).

ويرى القطراوي، أنه في هذه الحرب لا طبيـب يـداوي الأطفال؛ ففـي الحـرب مـرض الأطفال العـادي يثيـر السخرية أمـام المـوت السـريع فـي غـزة (الكتاب، ص: ٥٤).

ووفق علي أبو ياسين: فـي الحـرب سـوف تسـقط كل التفاهـات، والكثيـر مـن الكماليـات ومعظـم الضروريـات (الكتاب، ص: ١٠٨). ويستطرد أبو ياسين: الحرب لـم تكشـف الطرقـات فحسـب، لكنهـا كشـفت معـادن النـاس؛ وفاءهـم وانتماءهـم وإخلاصهم (الكتاب، ص: ١٢٢).

أما فاتنة الغرّة، فإنها تلتفت إلى أنه فـي الحـرب تنشـط غرائـز عـدة، لكـن غريـزة الجـوع تفتـح فاهـا علـى اتسـاعه طـوال الوقـت مثـل ثقـب أسـود يمتلـئ. (الكتاب، ص: ١٣٧).

ناصر رباح رصد الحرب من زوايا فكرية وفلسفية، وزّعها على سبع محطات، منها (الكتاب، ص: ٢٠٥، ٢٠٨-٢١٠):

فـي الأيام الأولى، لـم تكـن تعنـي الحـرب لـي شـيئا أكثر مـن مجرد ضيـف ثقيـل سـوف يأخـذ وقتـه ويمضـي. حيـث لا تشـغلنا الحـرب فـي غـزة كثيـرا فنحـن فـي حـرب دائمـة ويوميـة مـع الحيـاة، حـرب مـن أجـل الكهربـاء ومـن أجـل الميـاه ومـن أجـل السـفر ومـن أجـل فـرص العمـل.

لقـد اعتـادت الحـرب علينـا واعتدنـا عليهـا، فـي غـزة نذهـب للحـرب كأننـا ذاهبـون لنشـجع فريقنـا فـي لعبـة الكـرة، نهتـف ويشـتد صراخنـا كلمـا أحرزنـا شـهيدا إضافيـا أو هـدم لنـا بيـت آخـر.

تعيـد الحـرب تعريـف الحيـاة، وتعيـد تفسـير كينونتـك، وربما تعيـد الحرب حساباتك مـع الوقـت والتاريـخ.

أنـت لـم تعـد أنـت، فالحـرب أعـادت تعريفـك لنفسـك. أنـت مجـرد غبـار يبعثـره ٌ هـواء متوحـش مـع كل طلقـة مدفعيـة.

الحـرب مـن جانـب آخـر، وبغيـر قصـد منهـا، تعيـد تعريـف ذاتـك أنـت بشـكل غيـر متوقـع، نعـم فهـذا البـرّيّ المطـارد يمكنـه إرهـاق الصيـاد، بـل ونصـب الفخـاخ لـه.

الحـرب تعيـد اكتشـاف مواطـن القـوة بداخلـك، وتثبـت مفاهيـم كثيـرة لديـك ظلـت قلقـة فـي عقلـك ومتأرجحـةً أنهـا صلبـة وقويـة وتسـتحق أن تزهـو بهـا.

الحـرب تصنـع أناسـا أفضـل، أكثـر نقـاوة وصلابة وتميـزا..

الحرب توقـظ الوعي الجمعـي للشـعوب. فالحـرب قتلـت الآلاف منـا لكنهـا أيقظـت الملايين فـي

العالم وهم يصرخون بحقنا في الوطن، هدمت بيوتنا ولكنها فتحت لنا بيوت العالم المغلقة في وجوهنا منذ عقود، حرمتنا من الكهرباء والمياه والأمن، ولكنها أضاءت صورتنا الأجمل أمام أنفسنا أولًا، ثم أمام أعدائنا البرابرة.

لو عرفت الحرب أنها تصنع شعراء جيدين لأطلقت النار على نفسها. وأقول الآن: الحرب أطلقت النار على نفسها.

الكاتبة نعمة حسن تقول: إنه قانون الحرب؛ النجاة تسبق الفكرة (الكتاب، ص: ٢٣٠). ولن تلعن الحرب في تلك اللحظة، وستترك لها فرصة للتمدد داخلك لتتحدى صبرك عليها حتى النهاية (الكتاب، ص: ٢٣٧).

هند أبو جودة ترى بأن الليل لا يشبه الليل في الحرب ولا النهار يعطي أملا باختلافه عن الذي سبق! والحرب لا تعني مجرد الرعب، بل إنها تنزع أي مظهر للمدنية والحضارة، وكم تبدو مثيرة للسخرية كلمة مثل الحضارة (الكتاب، ص: ٢٤٥)!

وتتوقف جودة عند اليوم (٦٣) من الحرب، لتذكرنا بأن عدد الشهداء وصل سبعة عشر ألفا وارتفع عدد الجرحى إلى أكثر من ٤٦ ألفا (الكتاب، ص: ٢٤٩)، وتتساءل جودة: كيف تكتب الحرب التي ما زالت تأكل الناس أمواتا، وتجرح قلوب الأحياء؟ كيف وهي ما زالت تلقي الحسرة والقهر فينا؟ (الكتاب، ص: ٢٥٠).

ثانيًا: للموت معنى آخر في غزة

تكررت مفردة "الموت" في هذا الكتاب (١٧٨ مرّة)، جاءت في مواضع مختلفة، وفي سياقات مختلفة أيضًا، لتعريف الكتّاب للموت، ونظرتهم له، وتعاملهم معه، منها:

الكاتبة آلاء عبيد، التي نطقت الشهادتين عدة مرات، تهرب بطفليها "من الموت إلى الموت" (الكتاب، ص: ١٦)، وترى في البحر الذي "ألقينا عليه همومنا مرارًا يتواطأ مع طائرة أرسلت لقتلنا" (الكتاب، ص: ٢٤).

والكاتبة إيمان الناطور تخشى أن تموت قبل أن تشبع من البيت (الكتاب، ص: ٣٥). وتتوقف الناطور عند رغبتها في الموت في بيتها، بقولها: أشعر بالارتياح لأني أموت الآن في أحضان هذا البيت، وأنا هنا بين كل شيء أحبه.. كأن جل ما كنت أخشاه هو الموت بعيدا عن هنا (الكتاب، ص: ٣٩).

د. حسن القطراوي يرصد لحظة فارقة في حياته وحياة أسرته: لحظة دويّ صوت القذيفة الإسرائيلية، اخترقت جدار البيت ولم تقتلنا، كانت أكثر رأفة من سارق الأرض الذي أطلقها، تعرف أن صاحب الحق لا يموت أبدا، اكتفت بإصدار صوت مخيف يعرفه الأطفال جيدا.. ويقول

القطراوي: النظرة الأخيرة للبيت كانت مليئة بالحسرة، ليس سهلًا أن تترك بيتك للأغراب ليسكنوه، ويعيثوا فيه فسادًا، لكنه قدر الضعفاء دائمًا، يبحثون عن النجاة من الموت بموت أكثر قسوة (الكتاب، ص: ٥٠).

ويستطرد القطراوي: الذي ينتظر الموت لا يعرف النوم، الموت في غزة كالأعمى الذي يتلمس طريقه.. زوجتي أيضا خائفة، لكنها تتظاهر بالنوم هربًا من صوت الموت (الكتاب، ص: ٥٢)..

ووفق القطراوي، فإن الخشوع أمامّ الموت في هذه الحرب كان رفاهية؛ إذ يقول: إن موتنا في هذه الحرب لا وداع فيه، فقط أحزان مؤقتة، بانتظار حزن جديد.. ذهبت للسوق حاملاً أوجاع الموت، وعدت حاملاً طعام الحياة، نأكل لنعيش يوما آخر من الموت الذي لا نعرف طريقته، نحلم أن نموت بطريقة أفضل؛ الموت تحت الركام مرعب ومخيف، فكرت كثيرًا بموت صديقي وعائلته، هل صرخ طوال الليل ينتظر النجاة ولا مجيب؟ فكرة الموت البطيء تروعني، فهو يعني الموت ألف مرة، أن يموت من الخوف، والرهبة، والانتظار (الكتاب، ص: ٥٣-٥٤).

ديانا الشناوي، تختصر معادلة الموت-الحياة، بالقول: كل شيء يموت حتى مشاعرنا، لم أعد أستطيع تمييز ما أشعر به؛ إذ لم تعد هناك قيمة للمشاعر (الكتاب، ص: ٦١).

أما طلعت قديح، فيقول: عزيزةٌ هي الحياة.. قاهرٌ هو الموت! وحين يفقد الإنسان طعمِ الحياة، لا يخيفه طعم الموت (الكتاب، ص: ٧٧)، ويتساءل قديح: وهل يخاف الموتى من الموت؟ (الكتاب، ص: ٨٢)

سعيد أبو غزة يقول: إنه لكابوس فظيع أن ترى شخصا تحبه يموت أمام عينيك، يتحول إلى جثة محروقة مفتتة، ولا تتمكن من طبع قبلة على جبينه المهشمة (الكتاب، ص: ٨٩).

سماهر الخزندار تنظر بشمولية لمعادلة الموت، بقولها: يموت الناس هنا لكل الأسباب المنطقية وغير المنطقية، وتأكل الحسرة على كل ما ضاع من أرواحنا، تغتال الطائرات بيوتنا وأماننا وأحبتنا وشوارعنا وذكرياتنا، لكثرة ما فتتت الحرب من الناس، يختال الناجي منا نفسه، ننظر أشلاء الراحلين، ونعتذر لأننا ما نزال نبدو قطعة واحدة (الكتاب، ص: ٩٨).

ويدير علي أبو ياسين حوارًا متخيلا بين شهيدين، أحالتهما الحرب إلى أشلاء (الكتاب، ص: ١٠٢-١٠٥). ويصف أبو ياسين حال غزة في ٢٠٢٣/١٢/٢٢، بالقول: ريحة الموت بكل مكان، كنت مفكرها بس بغرفة العمليات (الكتاب، ص: ١٢٠).

ويصف يوسف القدرة أحد المشاهد: حاول رجال الدفاع المدني البحث بين الركام عن صوت لأحدهم، عن جثامين، عن أمل، لا شيء هناك سوى العجز ورائحة الموت (الكتاب، ص: ٢٥٤)..

أما ليان أبو القمصان، فتدلي برأيها حول الموت، بقولها: ولا أدري أنهرب من الموت أم من أنفسنا أم من الذكريات، نهرب لأننا يجب أن ننجو، لكنني في قرارة نفسي، أردت الموت (الكتاب، ص: ١٦٧)...

محمود عسّاف يوثق كيف يتمنى سكان الخيام مصادقة الشمس على مدار العام، بعدما استجوب المطر حناجرهم المقطوعة بسكين النزوح الذي علمهم كيف يكون الموت أمنية (الكتاب، ص: ١٧٦).

وناصر رباح يقول: نحن في غزة مصابون بهستيريا الشهادة فلم يعد لدينا شيء نقدمه لحياتنا البائسة سوى الموت، لذا نذهب إليه باحتفالية كبيرة وبضجة مبالغ فيها (الكتاب، ص: ٢٠٩)، لم يعد يهمنا الموت بقدر كيفية الحصول على كيس الطحين أو جرة الغاز، نحن فجأة تجاوزنا الخوف والموت (الكتاب، ص: ٢١٠).

الكاتبة نعمة حسن تقول:

في بداية كل حرب أجمع صغاري حولي، أبدأ في تجهيز الغرفة- الحصن، أو كما أتمنى عليها أن تكون، أنتقي غرفة لها سقف باطون، الأسقف الهشة من الاسبست أو الزينقو لا تقتل دفعة واحدة إذا سقطت من مكانها، تترك الحسرات خلفها، أما الباطون فله سلطته على كل من في الغرفة، يهبط دفعة واحدة دون أن يترك مجالًا للحسرات خلفه (الكتاب، ص: ٢٢٢).

استيقظت من هلعي وعدت لِلْعَدْوِ نحو أطفالي، لاقوني جميعا بالعناق الخائف... هم أيضا كانوا يحاولون التواصل مع ملك الموت من أجلي (الكتاب، ص: ٢٣٨)، وتستطرد نعمة حسن: كان الموت كثيرا هذا اليوم، تساءلت كيف استطاع ملك الموت أن ينجز كل هذه الأرواح دفعة واحدة (الكتاب، ص: ٢٤٠).

تجمع جودة بين الحرب والموت، بقولها: لم تتوقف الحرب، ما زالت غزة بقعة دم تتسع على قميص العالم، هي التي بكل جراحها وأعضائها المبتورة ما زالت تتنفس رافضة أن تموت، بل نجدها تفاجيء نفسها، حتى وهي تتمسك بالحياة وتعيش رغم كل محاولات قتلها المستمرة (الكتاب، ص: ٢٥٢).

ويقول يوسف القدرة: هذا شعب منحاز للحياة بكل ما أوتي من قوة، في ظلال الموت (الكتاب، ص: ٢٦١).

ثالثًا: النزوح: خطط وفنون

ما من كاتب من المشاركين في هذا الكتاب إلا وكان النزوح والهجرة والتشرد في صلب حديثة، ويؤكد

ذلك د. عاطف أبو سيف بقوله حول المشاركات في هذا الكتاب: كتبها نخبة من الكتاب والفنانين في غزة من أماكن نزوحهم ومن خيامهم، تحكي عنهم وعن حياتهم وتفاصيل بقائهم (الكتاب، ص: ١٢). والكاتبة آلاء عبيد تتحدث عن النزوح، وعن غزة قبل النزوح وبعده، ومما تقوله: بتنا نعرف جيدا ضروريات النزوح (الكتاب، ص: ٢١-٢٢).

أما الكاتبة جيهان أبو لاشين، فتعنون مشاركتها بـ «سبع مرّات نزوح»، ثم تتسلسل في تلك المرات، بعبارات مشبعة بالمرارة والغضب، ومما تقوله أبو لاشين: قبل نهاية الشهر الأول للحرب بأيام كان نصيبنا من النزوح في بناية قريبة من مركز العباس (الكتاب، ص: ٤٦)، يوم العاشر من نوفمبر هو يوم النزوح السابع، كنا ندرك تماما أن الابتعاد عن غزة قد يعني أننا لن نراها مرة أخرى. وكان هذا أسوأ ما في الأمر (الكتاب، ص: ٤٨).

د. حسن القطراوي يحكي حكاية النزوح برفقة صغيرته لميس التي كان حرصها كبيرًا على العصفور، في قفصه، وتخشى موته في أية لحظة، ويقول: في نزوحنا القسري صنعنا خيمة تشبه رأس الشيطان، الأماكن التي تأويك رغما عنك سجن وضيع، وقد ورثت المأساة عن آبائي يوم النزوح، وفي إحدى محطاته يفتش القطراوي عن كتبه التي هربت معه إلى النزوح (الكتاب، ص: ٥٠-٥٢)، ويصف القطراوي ابنه الصغير، يتلوى في فراشه كثعبان خائف، كان مريضا من برد النزوح العنيد؛ برد شديد يشبه موقف العالم من موتنا (الكتاب، ص: ٥٤).

لم تنتهِ حكاية د. حسن القطراوي وعائلته؛ إذ بعد مرور خمسة وثمانين يومًا على الحرب، نزحنا للمرة الثانية إلى الجنوب.. هنا بدأت حكاية جديدة، حكاية الخيمة، يا إلهي...! خيمة على رمالٍ قاسيةٍ لا ترحم، وشتاء ينزل فرحًا على قلوبٍ ميتة (الكتاب، ص: ٦١).

وأما الكاتبة ريما محمود، فتعنون مشاركتها بـ «نزوح آخر»، وتقول: خرجت من بيت أختي الواقع في ميراج (رفح الشرقية) والذي نزحت إليه بعد نزوحي للمرة الثانية من خان يونس البلد، إجمالا، هذا النزوح الثالث، ولكنه مختلف تماما، فالفرق كبير بين النزوح من بيت إلى بيت ومن بيت إلى خيمة (...) وهنا بدأ يوم نزوحي في الخيمة، ورأيت أختي بعد سبعة عشر يوما من انتهاءً الهدنة المؤقتة، وتناولت الدواء قبل أن أصبح طريحة الفراش في خيمة النزوح (الكتاب، ص: ٦٤-٦٥).

طلعت قديح يستهل مشاركته بعنوان «أبجدياتٌ لوجع في ذاكرة نزوح»، يُتبعه بتوثيق ليومياته في النزوح (الكتاب، ص: ٧٠). وجاءت مشاركة د. سعيد الكحلوت بعنوان «حمار العودة»، ومما يقوله في إحدى يومياته: اضطررت لركوب عربة يجرها حمار، لعلي أتمكن من العودة إلى مكان نزوحي قبل اجتياح الظلام (الكتاب، ص: ٩٢).

وسماهر الخزندار تصف ست سيدات يتشاركن مأساة النزوح: معلمة، وصيدلانية، ومدير عام، وطبيبة أسنان، ومبرمجة وصحافية. وتشير الخزندار إلى ضرورة مواجهة نزق الأبناء المراهقين والشباب الذين اصطدموا بحياة النزوح الخشنة (الكتاب، ص: ٩٧). وفي ختام مشاركتها، تقول الخزندار: يرعبنا شبح النزوح الجديد ثقيل الظل (الكتاب، ص: ٩٩).

أما علي أبو ياسين، الذي تميزت مشاركته بتوثيق أحداث ومواقف في أيام محددة، بين ٢٠٢٣/١٠/٢٩-٢٠٢٤/٠١/١٠، مما يقوله في آخر يوم من العام ٢٠٢٣ في النكبة والنزوح: ستظل لغة حوارنا وذكرياتنا، الحرب والنزوح وحلم العودة والنكبة. وسوف نتوه بالحديث إن كنا نتحدث عن النكبة الأولى أم الثانية، والعودة لقرانا قبل ٤٨ أم العودة لغزة؟! (الكتاب، ص: ١٢١).

وأما فاتنة الغرّة، فلفت نظرها أن للنزوح طقوسه في غزة، بقولها: في بداية النزوح إلى المستشفى كنت أرى نساء مع عوائلهن يحملن من الفراش ما خف منه وصلح لظروف كهذه، لا تحضر العائلات هنا فراشهم الثمين وإنما ما اهترأ أو قدم منه حتى يلقون به بعد انتهاء الحرب، وتستطرد بالقول: لن أنسى أول مرة دخلت فيها الحمام لأغتسل بعد أسبوع من وصولنا المستشفى، يحسدنا الكثير على نزوحنا هنا بدلًا من مدارس الوكالة (الكتاب، ص: ١٣٤)، وتختم الغرّة مشاركتها بالقول: لم أكن أعرف أن تلك كانت ليلتنا الأخيرة في البيت قبل أن يبدأ النزوح ونتفرق بين مدينة وأخرى وبين منزل ومدرسة ومستشفى (الكتاب، ص: ١٣٩).

ليان أبو القمصان، تفتتح مشاركتها بالقول: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة عشر يوما من معاناة النزوح (الكتاب، ص: ١٤٨). وتحت عنوان: قبل الموت، بعد النزوح، تقول أبو القمصان: لم أكن أدري أن القذارة قد بلغت مبلغها إلى هذا الحد، فأنا لم أجرب الامتناع عن الاغتسال لشهر سوى هذه المرة (الكتاب، ص: ١٥٠).

محمود عسّاف، وتحت عنوان: من الشمال إلى الجنوب، يقول في ٢٠٢٣/١٢/١٤:

كالمشدوهين نمسك ذيل حيرتنا، بعدما فقدنا اليقين في تحديد وجهتنا. هل نعيد نزوح أجدادنا رافعين الراية البيضاء عراة كالحصى؟ أم نبقى ننتظر موتنا، وتجديد تواريخ الحداد فينا؟ (الكتاب، ص: ١٧٥).

أشد ما أصابني من النزوح هو أني لم أعد أحمل في داخلي أية اعتراضات أو موافقات (الكتاب، ص: ١٧٧).

أكثر ما قهرني من النزوح، هو أن يعد الخبز على أولادي، وأن يكونوا عبيدا باسم

التعاون من أجل الحد من تداعيات الظروف المعيشية، وأن أستأذن لأحتضن طفلتي، وأن أتحسس لحظة خاطفة لأسلم على روحي، وأن أنتظر يوم الجمعة لأحظى ببعض ليترات من الماء الساخن؛ أطلق بها حرية جسمي المتعفن من رائحة النار ودخانها (الكتاب، ص: ١٧٨).

مريم قوّش تقول في النزوح: ما أثقل هذه الليلة التي نقضيها بجانب شجرة التين في خيمة النزوح، أضواء النجوم منقطعة، الزنانة اللعينة تمضغ سكون الليل، مذيع الجزيرة الثرثار على الراديو المحلي، زاويتنا من الخيمة التي يخفت ضوؤها بينما تفوح أحاديث جاراتنا وهن يصنعن وأمي البسكويت للبيع في قارعة النزوح (الكتاب، ص: ١٨٣).

وميسون كحيل تصف معاناتها في مدينة رفح، تحت عنوان «رفح مكان النزوح» (الكتاب، ص: ١٩٤)، ثم تستطرد كحيل تحت عنوان «الموت كمدا في مراكز النزوح»: ومع سوء الأوضاع من كل النواحي الصحية والاقتصادية، وتكدس عشرات الآلاف من المواطنين في مساحات ضيقة، ما أدى إلى انتشار الأمراض والأوبئة، حيث توفى عدد من المواطنين جراء البرد والحزن والهم، فبعد أن كانت الجدران تسترهم وتسندهم، صاروا في مهب الريح ولم تتحمل قلوبهم قساوة هذه الظروف، فباغتتهم السكتات القلبية، (...) وفي ظل الحصار المشدد، ونزوح ما يقارب من مليوني نسمة بشكلٍ إجباري و تكدسهم في جنوبي القطاع، اختفى كثير من السلع من الأسواق، وإن وجدت فإن أسعارها تصل إلى أضعاف مضاعفة، لتكتمل الحرب على الأطفال وتزداد المعاناة بغياب الحليب والمواد الغذائية الخاصة بهم وبعض الأدوية (الكتاب، ص: ٢٠٣).

رابعًا: زمن غزّة ليس كزمن الآخرين

لا شك في أن الزمن تحت الحرب، ليس زمنًا عاديًّا؛ فالأيام تكرر بعضها -نفسها- إذ أن ساعات الحرب تطول وبارقة الأمل تنخفض (الكتاب، ص: ٢٥). وإيمان الناطور تقول بشرود "هذه الأيام صعبة، لكنها ستمر" (الكتاب، ص: ٣٤)، وتتساءل الناطور "هل هناك أيام قادمة، أم أن الدنيا قد انتهت ها هنا، هل هذه هي القيامة المنتظرة فعلًا؟ وماذا تكون القيامة إن لم تكن هي ما يحصل الآن؟" (الكتاب، ص: ٤١).

يقول طلعت قديح في زمن الحرب: نلوكَ أيامنا العشر منِ الحرب كما الحنظل، بات الوقت كالصخرة يتجمد صلبا فوق قلوبنا، كأنها عشر سنين لا أيام (الكتاب، ص: ٧٥). وباعتقاد قديح: إن نجونا من هذه الحرب، سنصبح لا مبالين، لا بالتوقيت ولا بسطوةَ الانتظار، فما عاد للخسارات معنى وقيمة، ولا للانتصاراتً حفاوة إلاّ إذا كانت تعني للغزاوي الحياة والمأوى (الكتاب، ص: ٧٨).

أما سماهر الخزندار فتبتكر زمنًا أسمته زمن الإبادة بقولها: كان يا ما كان في زمن الإبادة، وعلى وقع سقوط القنابل، دارت لين حول نفسها دورة كاملة، وهي ترفرف قائلة بجذل: ليتنا طيور نهاجر متى نشاء، ونعود حين تنتهي الحرب (الكتاب، ص: ٩٦).

أما كمال صبح فلم يعد يعلم ما رقم اليوم في تقويم الحرب، بعد أن انقضى اليوم العاشر، فالأيام في عرف الحرب لا تحكمها الساعات وحركات الظل، بل يُحتكم إلى ما استطعت أن تشتري من حطب وخبز (الكتاب، ص: ١٤٣).

أما ليان أبو القمصان، فتقول: الطريق طويلة كسنيني اليائسات، طويلة بما يكفي لأسترجع ذكرياتي من سرداب الزمن، أتعجب من تسلحي، رغم أنني عشت طوال عمري عزلاء، ألقى شتى أنواع السباب على من تسبب بهذه الحالة لي، ولهم (الكتاب، ص: ١٥٣).

وفي موضع آخر، تعيد أبو القمصان تعريف الزمن، بالقول: وإني منذ الأزل أكره التعريفات الزمنية الشهور والساعات والدقائق واللحظات اللحظة التي تقتل وتحيي، تدمي وتجبر، وترفع الروح إلى السماء، أو تدفن الجسد في التراب، ولحظتي كانت أجدر اللحظات بالذكر، فلحظتي جاءت بوالدي الهارع نحونا بصراخ، ورده اتصال "خلال عشر دقائق سنموت لو لم نخرج من المنزل (الكتاب، ص: ١٥٦).

وناهض زقوت يرى أن "اليوم في الحرب يختلف كلياً عن اليوم العادي، يفرض عليك أن تمارس طقوساً لم تكن في يوم من الأيام ضمن جدول أيامك" (الكتاب، ص: ٢١٣).

خامسًا- لحظات الفرح والسرور

لقد اعتاد الغزيون على قهر الحرب، وقهر الأعداء، بإعلان الفرح والسرور في لحظات معينة، وفي مواقف معينة، يتم اختيارها بعناية. وسنتتبع، فيما يأتي، نماذج مما وثّقه المشاركون في هذا الكتاب، وهم خلف الخطوط:

آلاء عبيد، تسرق لنا لحظة فرح عند استقبال شقيقها «محمد» العائد من مسلخ الدولة الديمقراطية، بعد اعتقال عشوائي، بقولها: أعددنا وليمة وجاء الأحبة والأقارب من النازحين في الأحياء القريبة. كانت لحظات الفرح الأبهج منذ تسعين يوما قضيناها في الحرب. رغم الألم سرقنا لحظات السعادة واحتفظنا بها واحتفينا بكل تفاصيلها. كنت كلما نظرت إليه أشعر بأننا بخير، وأن الغد سيكون أجمل، لكن كانت شكوك ترهقني بأنه تعرض لأهوال وتعذيب، فقد رأيت آثار جروح على رقبته وعلى كفيه (الكتاب، ص: ٢٦).

الكاتبة إيمان الناطور تشغّل الموسيقى الملحمية لـ «بتهوفن»، وعندما يتأرجح البيت من صوت الانفجار، مدت يدها لترفع الصوت أكثر، لحد أنها لم تعد تسمع أصوات القذائف؛ لشدة علو صوت

الموسيقى (الكتاب، ص: ٣٨-٣٩).

لا يغيب مصطلح الفرح عن المشهد، فها هي ريما محمود تذكّر العالم بأن «غزة عروس اغتُصِبَت في ليلة فرحها أمام مرأى العالم، ولم يحرك ساكنا لها، ستشفى وتقاوم وتطالب بحقها، وستبقى مرفوعة الرَّأس لأننا اعتدنا عليها كذلك» (الكتاب، ص: ٦٧).

رصدت سماهر الخزندار الأطفال، الذين كثيرا ما كانوا يدهشونها بقدرتهم على التقاط الضوء في أشدّ العتمات حلكة، وفي لحظات صفائهم يخطفون من الحرب لحظات لِلّعب (الكتاب، ص: ٩٦).

ويتوجه علي أبو ياسين إلى شكسبير بالقول: انهض يا شكسبير، ساعدني يا صديقي لقد تعبت فعلا. قاوم بقلمك الحكيم المليء بالحب والفرح والثورة والإنسانية والأمل والحرية، لعلنا نصبح كلنا أخوة تحت تلك السماء الزرقاء (الكتاب، ص: ١٠٧).

أما البكاء من الفرح، فكثيرًا ما تكرر، نأخذ منه وصف مصطفى النَّبيه في «ألوان من وجع»، بقوله: لم تمر ثانية حتى سمعنا صوت انفجار مرعب، تم قصف المكان بصاروخ استطلاع، هبت عاصفة سوداء حاصرتني فرقت بيني وبين ابني، قفزت من السيارة مرعوبا أصرخ وأنادي على ابني وابن خالته وعندما خرجوا من بين الدخان بكيت من الفرح وحمدت الله أنهم ما زالوا أحياء (الكتاب، ص: ١٨٩).

ميسون كحيل، تمزج الحزن بالفرح في رفح بقولها: رفح بين الحفر والفرح، فيها اختلطت المشاعر، واختلفت آراء الناس واكتظت بشكل لم تشهده أي مدينة في العالم، حتى وصل الأمر أن الرائي لا يرى الأرض بسبب الازدحام الهائل وكأن اختزال القطاع في رفح كان متعمدا. وتفاوتت الرؤى بين من يفكر كيف وأين يتم حفر مكان ليكون له قبرا، وبين من يشعر بالفرح من الأخبار التي يذكرون فيها قرب الاتفاق بوقف الحرب (الكتاب، ص: ١٩٦).

نعمة حسن تتحدث عن فرح من نوع آخر، فعند تجهيز طعام الإفطار للصغار يحتاج تجميع العيدان الصغيرة التي تشتعل بسرعة، فرحتي عندما (تدق) النار في الخشب، كفرحة طفل)ببكيت) شيبسي جاء كتبرع كريم من الأونروا للأطفال النازحين (الكتاب، ص: ٢٣٤).

ويخصص يوسف القدرة المحطة الرابعة من مشاركته «من يوميات الحرب على غزة»، لوصف الـ «فرح» في الحصول على بعض الأساسيات: أب عائد إلى زوجته يحمل علبة نيدو وكيس بامبرز للأطفال. وإن سألت، أهذا يستحق الفرح، فالإجابة نعم، النيدو يعني حياة

طفل لمدة أيام قادمة، والبامبرز يعني صحة الطفل، الذي اضطرت الأمهات أن يستخدمن ما توفر من شرائط القماش بديلاً، مما أنتج أمراضا جلدية غريبة (الكتاب، ص: ٢٦٠).

كما يصف يوسف القدرة فرحة امرأة عائدة من طابور المخبز، حاملة معها ربطة خبز كاملة، إنه انتصار عظيم لو تدرون، فقد أمنت بربطة الخبز هذه طعام العائلة لليوم بطوله، وربما يتبقى منها لفطور اليوم التالي، حتى لو لم يكن إلا خبزًا حافاً، فالاقتصاد في الطعام ضرورة لا بد منها، والله طالعة من الفجر، لأنو ناموا الصغار بدون وجبة عشاء. تبرر المرأة فرحتها، نعم، هذه الانتصارات والإنجازات الصغيرة تعني في مضمونها حياة (الكتاب، ص: ٢٦١).

سادسًا: المحطة الذهبية

جاءت مشاركة الكاتب ناصر رباح تحت عنوان «في عيد ميلاد الحرب»، خصص فيه محطة للأطفال الشهداء، عندما كان عددهم أربعة آلاف طفل شهيد، وجدنا فيها المحطة (٤) من بين محطاته السبع، محطة ذهبية في هذا الكتاب؛ باعتبارها قد جمعت بين الأزمان الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، في آنٍ معًا، ويمكن استعراضها في النقاط التفصيلية الآتية (الكتاب، ص: ٢٠٧):

أربعة آلاف يد ناعمة يلمسون الآن باب الله، رتل ملائكة صغار يغطون سماء الحياة، الحياة التي تبدو هرمة بلا أطفال.

أربعة آلاف قبلة تائهة في الهواء، أربعة آلاف فراشة بيضاء بلا زهور تحط عليها.

أربعة آلاف «ماما» لن تقال، أربعة آلاف «بابا» تفتت القلب صباح مساء.

أربعة آلاف حذاء ملون تحت الأسرة الفارغة، أربعة آلاف حقيبة مدرسية تحرس أحزان البيوت، أربعة آلاف شطيرة صباحية على الطاولات لن يأخذها أحد، أربعة آلاف دراجة معطلة على الطرقات.

أربعة آلاف لن يعبروا باب المدرسة، لن يذهبوا لاحتفالات التخرج، لن يشتروا ملابس العيد، لن يكون لهم أصدقاء.

أربعة آلاف لن يسألهم أحد عن أمنياتهم حين يكبرون، فقط جالسين للألبد جوار نهر الدموع.

أربعة آلاف صورة على الحوائط، في جيوب أربعة آلاف أب يشربون اللوعة، عصافير جائعة على شبابيك أربعة آلاف أم؛ ينقرون خبز القلب.

أربعة آلاف رائحة لن تغادر وسائدهم، أربعة آلاف كتاب يتراكم عليها غبار الاشتياق،

أربعــة آلاف ضحكــة أبديــة تكســر زجــاج الوقــت.

أربعــة آلاف لــن يكبــروا، لــن يغــادروا المشــهد الأخير.

أربعــة آلاف لــن يخرجــوا مــن تحــت الــركام، لــن يجــدوا سيارة إسعاف، لــن يصلــوا إلــى المستشــفى، لا مشــيعين معهــم فــي الجنــازات، لا ورود علــى قبورهــم.

فقــط، أربعــة آلاف فــي نشــرة الأخبار.

سابعًا: ستنتهي الحرب.. ماذا بعدها؟

قدم وزير الثقافة لهذا الكتاب، مستعرضًا ما بعد الحرب، ومما يقوله (الكتاب، ص: ٩-١٠):

ســتنتهي الحــرب وســيعود الجنــدي القاتــل المأجــور مهووســا بدمائنــا إلــى فراشــه لكننــا ســنظل لعنــة تطــارده؛ لأننــا لــم نســقط ولــم نقــع، بــل بقينــا واقفيــن مثــل الأشجار نشــدو مــع العصافيــر لحريتنــا المنشــودة.

سيذهب الغزاة وسنعود نلملم أحلامنا من غبار البنايات المتطاير وعن أوجه المخدات الممزقة وسنبحث عن بقايا جثامين من نحب لتودعهم في بقاء الذاكرة.

سنعتني بإعادة زرع شجرة الياسمين على باب الدار، وسنحرص على ترتيب قن الحمام فوق السطح، ونعمل على إعادة تعليق الثريات في الشرفات كي تضيء الطريق للمارة، وننظر للبحر ببهاء العاشق والمشتاق، ونحن نعد الموج مرة أخرى، نتذكر كم موجة فقدنا في الحرب.

ستنتهي الحرب ونحمل معنا فرن الطين تذكارا من سفرنا؛ عودةً للماضي عبر الزمن، وسنمسك ببعض من النار الهاربة من الذاكرة نطهو بها جوع المستقبل ونحن ننظر ببلادة إلى قسوة القتلة، وسنخرج صورنا من ألبوم أكلته الزنانة ونعيد تشكيل الماضي حتى يليق بكل تلك الذاكرة.

ستنتهي الحرب يوما وسنعود لبيوتنا، وسنعبر الوادي الذي شهد رحيلنا، وسنعانق من تركنا فوق ركام البيوت، ونبوس الهباء المتصاعد من طقطقة الإسمنت المتهاوي، وسنحرص على حمل أحلامنا في بقجتنا بعد أن نرمي ملابسنا القديمة التي التصقت بأجسادنا لكثرة ما لبسناها، وسنواصل البحث عن أغاني جداتنا.

وفق طلعت قديح (الكتاب، ص: ٧٤):

ســتنتهي الحــربً يومــا مــا، لتبــدأ حــرب جديــدة مــن نــوع آخــر. نــوع شرس، أوله ترقب ما قبل العودة لمنازلنا والطريق إليها، التي فيها ستتفجر آلاف الأسئلة المرعبة عما حدث فيها وكيف أصبحت.

سيبدأ كل منا بتلمس حياة قادمة، والتي بدورها ستلقي أمامنا أسئلة أخرى؛ كيف، متى، أين، لماذا، ماذا لو. ولن تقف هذه الأسئلة لوحدها، بل ستكون بالقرب منها أبجدية الحدث الذي كان وما سيكون.

إن معالم التأثير في التاريخ لا تكون عبر بوابات سمان في الحال، بل تُصنع من مرارة الإيذاء. فالمعالم لا تؤخذ من مكان واحد، وإلا فالإثخان سيكون شديدًا، بل ويقترب من تقديم المكان كبش فداء.

إن قضية فلسطين ليست قضية فلسطينية أو عربية أو إسلامية؛ هي قضية وجودية إنسانية يا سادة القهر والدمار. قضية كونية هي ما بين الطغيان والانفلات منه.

ويستقرئ قديح الزمن القادم بالقول: سيكتب التاريخ ما حدث بكل جوانبه المضيئة والقاتمة، وسيحتاج زمنا حتى يكتشف كيف وُلد «السابع من اكتوبر»، ولا تحسبوا أنه يوم لم تكن له مثالب، سواء في إرهاصاته أو مقدماته أو تداعياته، إلا أنه يوم في المنظور الاستراتيجي؛ سيغير وجه الصراع.

أما علي أبو ياسين، فيقول في نهاية الحرب (الكتاب، ص: ١٢٢):

سوف تنتهي الحرب، ولن يعود الناس لسابق عهدهم على الأصعدة كافة.

سوف تنتهي الحرب على الأرض، لكنها لن تنتهي أبدا من داخلنا.

بمثابة خاتمة،

تعدد الكتّاب، وتعددت رؤاهم وفلسفاتهم واختصاصاتهم، ولعل هذا ما يبرر عدم التكرار في النصوص والصور والمشاهد، للحد الذي لو أزحنا الفواصل بين العناوين الداخلية، لوجدنا أنفسنا أمام سردية، تكاد تتكامل فيما بين جزئياتها، لترى فيها الحرب على غزة التي يوثق الكتاب لثلاثة أشهر زمنية، وفق قياسنا نحن للزمن، وليس وفق زمن غزة، الذي ناقشناه أعلاه في هذه القراءة.

قمنا في هذه القراءة، وفق منهجية بحثيّة محايدة إلى حد ما؛ بلا أي تدخل في الاقتباسات، برصد ستة مفاهيم/مصطلحات ناقشها الكتّاب، كلّ على طريقته، ثلاثة منها تشكل مثلثًا يجتمع فيه القهر والغيظ والغضب والشعور بالخذلان من الأهل والأصدقاء، ومن مدّعي الإنسانية، وهي:

الضلع الأول، الحرب على غزة، وهو المصطلح الأكثر استخدامًا وتداولًا بين الكتاب المشاركين في هذا الكتاب، فتناوله الكتّاب من زوايا مفاهيمية واصطلاحية، تراوحت بين المفاهيم العامة للحرب، والتخصيص للحرب على غزة، وما تركته من آثار دامية، ومؤلمة وموجعة، على المستويين الفردي والجمعي. وهناك من ألمح إلى معانيها وأثرها على العلاقات بين الشعوب،

أما الضلع الثاني، فيتمثّل بـ «الموت في غزة»، فكان المصطلح الذي تكرر بكثافة عالية أيضًا من قبل الكتّاب، عندما رصدوه من زوايا مختلفة، تراوحت بين وصفه بالمخيف والمرعب، وهو ذلك الوحش

الذي انتشرت رائحته في كل مكان، وأصبح لا مفر من الموت إلا بالموت، لحد التفكير في الموت وتمنّي «الموت المريح»، بطريقة أفضل وأسرع وأقل حسرة.

ولم تخلُ بعض النصوص من نظرة ساخرة من الموت، الذي لم يعد مخيفًا، في لحظة ما، ولعلّ الذروة تكمن في شعور الأحياء -الذين لا يزالون قطعة واحدة- بالخجل أمام أشلاء الرّاحلين. وأمام فقدان الحاجات الملحّة للحياة، لم يعد الموت يهمّ.

وما يلفت النظر، أن المشاركات تكاد تخلو مما اعتدنا عليه عند الموت من «الولولة» و«الندب» و«اللطم»، فجاءت النصوص متماسكة، ومشبعة بصور الصمود والتحدي بأشكال مختلفة، وأن الموت ليس هو نهاية قضية شعب، ولن يضيع حقًّا مهما غَلَت التضحيات.

وأما النزوح، فلعله يشكل الضلع الثالث من مثلّث القهر الواقع على كاهل أبناء غزة في هذه الحرب الأشرس في التاريخ البشري، إلى جانب ضلعيّ الحرب والموت الموصوفيْن أعلاه. فما من كاتب من المشاركين في هذا الكتاب سطّر مشاركته وهو جالس في بيته، ومستقر على مكتبه. وإنما جميعهم عانوا مرارة النزوح المتعدد المراحل -وصل إلى سبع مرّات لبعض الكتّاب- والمتعدد الأماكن. فوثقوا لأثر هذا الافراز السام والقاتل لهذه الحرب الشرسة بكل المعايير.

لقد تعامل الكتّاب، وهم خلف الخطوط، مع الزمن، ليس بمعناه التقليدي المعروف، وإنما التوقيت وفق مشاعر إنسان خلف الخطوط، يقبع تحت سكّين الطيران والصواريخ والقذائف، وسكاكين المثلث الموصوف أعلاه، ففي «زمن الإبادة»، تكون الثانية لصاحب بيت مهدد بالانهيار فوق رؤوس ساكنيه، ورائحة الموت تحيط به من كل مكان، ليست كزمن متنزّه على شاطئ البحر، يتنسّم هواءه العليل.

في إشارات واضحة إلى فلسفة شعب ونظرته للحياة، يوثّق الكتّاب للحظات من الفرح والسرور، والاحتفال بمناسبات مختلفة، لحد البكاء من الفرح في مواقف تقع على الحافّة الحادّة بين الموت والحياة. وفي لحظات دفن الشهداء، كان الناس يفرحون لسماعهم أن هناك هدنة قادمة. أضف إلى ذلك الفرح بالحصول على شئ من أساسيات الحياة، في لحظة تكاد مقومات الحياة تنعدم على المستويات كافة.

وهناك عدد من الكتّاب، في مقدمتهم د. عاطف أبو سيف وزير الثقافة، لم يغادروا مشاركاتهم قبل الإجابة على السؤال المستتر، الذي لا يظهر جليًّا وسط ضجيج الحرب وزعيق الطائرات والصواريخ التي تغمر غزّة بوسائل القتل، وهذا السؤال، هو: ماذا بعد الحرب؟ فتأتي الإجابات، التي تنمّ عن فهمٍ دقيق لنتائج هذه الحرب من حيث أنها صنعت دولة قَتَلة الأطفال، دولة الإرهاب والإرهابيين، الذين زُينت لهم أفعالهم الشريرة.

أما من بقي على قيد الحياة من أبناء غزة، فلن يفتّ في عضده كل ما ولدته الحرب من دمار وخراب، وإنما سيعودون لمحو آثر العدوان والخلاص منه، والعودة إلى ما بقي من بيوت ومساكن، وإحياء الأرض، وإعمار المكان وتجميله، والإعلان للعالم أجمع: نحن هنا، وسنبقى هنا، ما بقي الزيتون والزعتر!

قبل أن نغادر، هذه دعوة لإعادة قراءة الفقرة الذهبية، الواردة أعلاه، ليس للأربعة آلاف طفل وحسب، وإنما لجميع الأطفال القادمين على ثرى غزة، لأمهات ذقن ويلات القهر والنزوح وأنهكت أجسادهن الأسلحة الفتاكة، الذين سيستنشقون الهواء الملوّث بكل أنواع السموم والإشعاعات، ويحبون خطواتهم الأولى على أرض مشبعة بكل الملوثات التي تخترق الأرض من سطحها إلى أعماق جوفها.

الهوامش

() السهلي، أيهم. ٢٠٢٤/٠٢/٠٥. ميسرة بارود: عندما تنتهي الحرب سأبكي كثيراً. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ينظر الرابط الآتي (شوهد في ٢٠٢٤/٠٣/٠٤):

١٦٥٥١٧١/https://www.palestine-studies.org/ar/node

مما يقوله الفنان ميسرة بارود: لقد فقدتُ بيتي وفيه مرسمي الخاص، والذي أحتفظ فيه بكل تجاربي وأرشيفي وأعمالي على مدار ٣٠ عاماً مضت. وفقدتُ أدواتي وعشرات اللوحات وآلاف المخطوطات (السكيتشات) ومكتبة فنية تحتوي على أكثر من ٣٠٠٠ كتاب. لقد فقدتُ عالمي الصغير الخاص، وجميع ذكرياتي ومقتنياتي."

() عن صفحة وزارة الثقافة. ينظر الرابط الآتي (شوهد في ٢٠٢٤/٠٣/٠٤):

https://www.facebook.com/ministryofculturep

عن الروائيين والشعراء ومعارض الكتب والتفاعل مع غزة وفلسطين

بديعة زيدان*

في خطوة لاقت خطوات استنكارية عملية، واحتجاجات بالجملة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، أعلن معرض فرانكفورت الدولي للكِتاب، وأقيم بين الثامن عشر والثاني والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) الماضي، عن «تأجيل» حفل توزيع «جائزة الأدب» (LiBeraturpreis) التي تُنظمها الجمعية الأدبية الألمانية «ليت بروم»، وفازت بها الروائية الفلسطينية عدنية شبلي عن روايتها «تفصيل ثانوي»، معلناً عن إلغاء التكريم المُقرَّر لشبلي، وما يرافقه من ندوات ونقاشات حول روايتها.

وصرّح مُدير معرض فرانكفورت يورغن بوس: «نظراً للإرهاب ضدّ إسرائيل، فإن الجمعية تبحث عن مكان مُناسب للحدث بعد المعرض، مضيفاً: «إنّ المنظّمين ارتأوا إتاحة مساحة إضافية للأصوات الإسرائيلية واليهودية، وذلك من خلال استضافة ميرون مندل، أحد أهم ممثلي الجالية اليهودية في ألمانيا، للحديث عن الهجوم على إسرائيل في حلقة نقاش، والكاتبة ليزي دورون، التي تعيش بين تل أبيب وبرلين، في ندوة حول الأحداث الجارية في إسرائيل، فضلاً عن تخصيص العديد من الفعاليات على المسرح للأصوات الإسرائيلية من خلال منظمة (PEN Berlin)، دعماً لإسرائيل».

وإثر ذلك أعلنت هيئة الشارقة للكتاب، انسحابها من المعرض مؤكدة في تدوينة لها على حسابها الرسمي في منصة «إكس»: «نظراً لتصريح مدير معرض فرانكفورت الدولي للكتاب الداعم لإسرائيل ولسحب إدارة المعرض جائزة الكاتبة الفلسطينية عدنية شبلي، قررت هيئة الشارقة للكتاب سحب مشاركتها هذا العام من المعرض»، داعية «لإبراز دور الثقافة والكتب في تشجيع الحوار والتفاهم بين الناس»، معتبرة ما حدث: «تحيّزاً سياسياً، وإلغاءً لدور الحوار الذي تشجعه الثقافة».

وقرر اتحاد الناشرين العرب سحب مشاركته في معرض فرانكفورت للكتاب، معرباً عن أسفه من موقف المعرض إزاء القضية الفلسطينية، بعدما ألغى حفل تكريم الروائية شبلى، التي كان من المقرر

* كاتبة من فلسطين.

الاحتفال بها خلال فعاليات المعرض لتتسلم جائزة (LiBeraturpreis)، عن روايتها «تفصيل ثانوي". وجاء في بيان صادر عن الاتحاد مخاطباً إدارة المعرض، أمس: «يعيش الشعب الفلسطيني تحت أطول احتلال في التاريخ الحديث، وهو الاحتلال الذي تحول إلى نظام الفصل العنصري الذي يمارس أقصى الضغوط وتجعل من غزة سجناً مفتوحاً لأكثر من ٢,٢ مليون شخص، بالإضافة إلى أن أكثر من ١٩٠٠ فلسطيني استشهدوا برصاص الجيش الإسرائيلي خلال الأيام الستة الماضية، أكثر من ١٠ ٪ منهم من الأطفال».

وصدّر الروائي المغربي سعيد خطيبي الفائز بجائزة الشيخ زايد للأدب عن روايته «نهاية الصحراء»، بياناً على صفحته في «فيسبوك»، أمس، جاء فيه: كان يُفترض أن أُشارك في معرض فرنكفورت للكتاب، الأسبوع المقبل في ندوتين، الأوّلى عن «نهاية الصحراء»، والثّانية عن «الأدب العربي الحديث»، لكن إزاء الموقف السّياسي الذي أعلنه معرض فرنكفورت، بالانحياز إلى طرف ضدّ الآخر أمام ما يحصل من مأساة في غزّة، في وقت كنا نتمنّى فيه أن يلعب الأدب دوراً في تقريب وجهات النّظر وفي تأسيس حوار يخفّف ما نعيشه من آلام، وإزاء أيضاً الظّلم الذي تتعرّض له الكاتبة الفلسطينية عدنية شبلي، حيث أُلغي حفل تسليم جائزتها كذلك، وتعرضت لحملة إعلامية غير منصفة وبعيدة عن الموضوعية، قررت إلغاء مشاركتي في معرض فرنكفورت هذا العام.

وأدانت وزارة الثقافة الفلسطينية، أمس، في بيان لها، «تشجيع معرض فرانكفورت الدولي للكتاب لآلة الحرب الإسرائيلية وانحيازه الكامل لعدوانية الاحتلال تجاه شعبنا وأهلنا في قطاع غزة».

وأعربت الوزارة عن تقديرها «العظيم للوقفة القومية للناشرين العرب، واتحاد الناشرين العرب، على مقاطعتهم المعرض، الذي أضحى معرضاً لصوت العدوان ومحطة لترويج الرواية الصهيونية الكاذبة.. فهذا العدوان الذي يدعمه معرض فرانكفورت يستهدف كل من يتنفس تحت سماء غزة، ويستهدف أبسط مقومات الحياة اليومية من ماء وهواء وغذاء».

وأفردت كبريات الصحف والمنصات الإعلامية العالمية مساحات متفاوتة للحديث عن موقف المعرض، وتأجيل تكريم شبلي، في حين استنكر عديد الكتّاب الأجانب والعرب هذا الحدث، فقد كتبت الروائية الأميركية نانسي كريكوريان، على صفحتها في «فيسبوك»: هذه الرواية الرائعة لعدنية شبلي تستحق كل الجوائز، ومن المخجل أن يلغي المعرض حفل تكريمها وتوزيع جائزة الأدب.. آمل أن يؤدي اهتمام الصحافة إلى زيادة مبيعات وقرّاء الرواية المهمة.

الجدير بالذِّكر أنّ الرواية كانت قد واجهت مُحاولات صهيونية لإقصائها من المشهد الأدبي الألماني بعد ترجمتها العام الماضي، ما تعارض مع التعاطي النقدي الحقيقي لمضمون العمل وقيمته الفنية، ولما يُمثّله انتماء صاحبتها إلى بلدان الجنوب وقضاياه، التي تزعم الجائزة أنها تحرص على الاعتناء بأدبه، ومن تلك المحاولات تقديم الصحافي أولريش نولر، عضو لجنة تحكيم جائزة (LiBeraturpreis)، استقالته منها، صيف هذا العام، بسبب قرار مَنحها لشبلي، وعندما فشلت تلك المحاولة، أعاد، هذا الأسبوع، أحد المُعلّقين الأدبيين أسطوانة «معاداة السامية»، مُتّهماً عدنية بتصوير إسرائيل على أنها آلة قتل، ما قد يكون من بين أسباب إلغاء منح الجائزة لشبلي

ضمن فعاليات المهرجان، والتي وصفتها الجهة المانحة بأنها «عمل فني مؤلف بدقة يحكي عن قوة الحدود وما تصنعه الصراعات العنيفة بالناس».

يذكر أن الرواية الصادرة عن دار الآداب للنشر والتوزيع في بيروت، والتي ترجمت إلى لغات عدة ولقيت احتفاء واسعاً ووصلت القائمة الطويلة لجائزة مان بوكر الدولية، ترصد إقدام قائد كتيبة إسرائيلية وجنوده على اغتصاب فتاة عربية وقتلها رمياً بالرصاص العام ١٩٤٩ تحديداً في ١٣ آب، في الجنوب الغربي من صحراء النقب، اتكاءً على تقرير حول واقعتَي اغتصاب كشفت عنهما صحيفة «هآرتس» في صيف العام ٢٠٠٥، لفتاتين بدويتين في يومين متتاليين. ولكن الرواية انتصرت بشكل أو بآخر، فعلاوة على المبيعات الكبيرة في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب، بدورته الخامسة والسبعين، لـ"تفصيل ثانوي"، التي حُرمت من التكريم ومناقشة روايتها الفائزة بجائزة "الأدب الألماني، انتظمت مساء الحادي والعشرين من تشرين الأول، قراءات من الرواية ذاتها، ومن داخل قاعة في المعرض الذي أعلن انحيازه لإسرائيل، بتنظيم من رابطة الكتاب «قلم برلين".

وبالإضافة إلى الناشر والصحافي الألماني التركي دينيز يوجيل، الذي أكد أن «قلم برلين» أرادت منح الرواية مسرحاً، شارك في القراءات كل من: الروائية الألمانية جوليا فرانك، والكاتبة والمُدونة الأميركية الألمانية ديبورا فيلدمان، والكاتب والإعلامي الإسرائيلي تومير دوتان دريفوس، والأديبة النمساوية إيفا ميناسه، والكاتبة المسرحية الألمانية ساشا ماريانا سالزمان، ودانا فوينكل الروائية الألمانية الأميركية.

وقدّمت الأديبة النمساوية إيفا ميناسه تحية من الروائية شبلي، التي لم تشارك في الفعالية التي أعلن عنها، في مساء العشرين من الشهر الجاري، وجاء فيها: «من صمتي الحزين، أشكركم والجمهور.. هذه المبادرة تؤكد لي أن الأدب شريان حياة للكثيرين منّا».

وكانت رابطة الكتاب «قلم برلين»، انتقدت تأجيل تقديم الجائزة لشبلي وروايتها، في وقت سابق، في حين كانت أشارت ميناسه نفسها إلى أنه «لن يكون هناك كتاب مختلف، أو أفضل أو أسوأ، أو أكثر خطورة، لسبب تغيّر في الأوضاع، أو في الأخبار».

وتوقعت وسائل إعلام ألمانية، أن الضغط الذي مورس على المعرض والجهة المنظمة للجائزة، وخاصة تلك الرسالة التي وقعها رفضاً لقمع الصوت الفلسطيني، وإقصاء شبلي وروايتها، كُتّاب بينهم فائزون سابقون بجائزة نوبل للآداب، وجائزة البوكر العالمية، وغيرها من الجوائز، هو ما ساهم في تراجع نسبي من قبل إدارة المعرض، وساهم بشكل أو بآخر في تنظيم احتفالية قراءات لرواية «تفصيل ثانوي».

وفي حادثة أخرى، أكّد الروائي الحائز على جائزة «بوليتزر» للعام ٢٠١٦، فيت تان نغوين، أن مؤسسة (92NY) في نيويورك ألغت في ٢١ تشرين الأول الجاري، فعالية لقراءة وتوقيع كتابه السردي السيري الجديد «رجل ذو وجهين» كانت مقررة بعدها بيومين، وذلك قبل مرور أربع وعشرين ساعة على توقيعه بياناً يندّد بالإبادة

الجماعية التي يرتكبها الاحتلال الإسرائيلي ضد الشعب الفلسطيني في قطاع غزة.

وكان نغوين أشار إلى جرائم الاحتلال منذ العام ١٩٤٨، وكذلك بعد الأسبوع الأول من تشرين الأول، قائلاً: إن أثر سياسات الاحتلال هي «الموت الحتمي للمدنيّين»، مضيفاً: سألني البعض عن دعمي لحركة مقاطعة إسرائيل (BDS)، وأجيب بأنه كذلك، ولا يزال قوياً، كاشفاً عن مساعي الحكومة الإسرائيلية ومؤيديها إلى وقف أي احتجاج على ممارسات إسرائيل، لا سيما في الغرب، وهو ما طال الأدب والفنون من الفلسطينيين أو المتعاطفين معهم، والتي يتم إسكاتها. وشدّد نغوين: أعارض ذلك الظلم، وأرى أنه ينبغي أن نتعاطى مع الدعم الغربي لإسرائيل باعتباره ليس بريئاً، لا سيما عندما يتوجه القادة الإسرائيليون إلى خطاب الإبادة الجماعية الاستعمارية، فالفلسطينيون هم «حيوانات بشرية»، و«إسرائيل تشن حرباً متحضرة ضد غير المدنيين»، ليختم: احسبوني واحداً من بين «الحيوانات البشرية».

الكاتب الحائز على جائزة «بوليتزر» يتناول في مذكراته الجديدة «رجل ذو وجهين»، حكاية اللاجئين الفيتناميين إلى أميركا، مستذكراً عندما غادر فيتنام مع والديه وأخيه الأكبر قبل سقوط «سايغون» بفترة قصيرة في نيسان العام ١٩٧٥، رغم أنه لم يكن يحتفظ بذكرى العبور المروّع عبر المحيط، لكنه يتذكر بوضوح الصدمة الناجمة عن انفصاله عن والديه خلال فترة إعادة توطينهم المبكرة في الولايات المتحدة، بحيث كان على الأسرة أن تنقسم بين عدّة أسر معيشية، خاصة أنه لم يكن هناك على ما يبدو راعٍ يستطيع أن يأخذهم جميعهم، بحيث كان على والديه اللذين عملا في «سايغون متشي»، وهي سوق فيتنامية في وسط مدينة سان خوسيه بولاية كاليفورنيا، بل كانا أول من أقاما دُكّاناً فيتنامياً في السوق، أن يواجها العنصرية والعنف المرتبطَين بالعمل.

أما ماريون إنغرام، فهي كاتبة ألمانية يهودية من آخر الناجين الأحياء من «الهولوكوست»، وُلدت لأمّ يهوديّة وأبٍ مسيحي، وقضت طفولتها في مدينة هامبورغ الألمانية إبّان فترة حُكم النازية، وكتبت عن تجربة طفولتها في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية، في عدّة كُتب، منها: «أيادي الحرب»، و«قصّة الصبر والأمل من ناجية من المحرقة»، و«أيادي السلام»، و«نضال ناجية من المحرقة لإحلال الحقوق المدنية في الجنوب الأميركي".

بعد هزيمة النازيّة، وفي عُمر السابعة عشرة، هاجرت إنغرام إلى أميركا لتكتبَ عن طفولتها الصعبة، وما عانته من تفرقة وعنصرية في ألمانيا النازية، وتقوم بعد ذلك بالكثير من العمل التطوّعي والتوعوي في أميركا وألمانيا وغيرهما من البلدان، لتوعية الأجيال الجديدة على ضرورة التعاون المجتمعي في الوقوف أمام التفرقة والعنصرية.

وانسجاماً مع هذه الرؤية، ووفاءً لذكرى ضحايا المحرقة، شاركت الكاتبة، وهي في الثامنة والثمانين، في عشرات الوقفات أمام «البيت الأبيض» للتضامُن مع الشعب الفلسطيني، ورَفْع الصوت بالوقف الفوري لجرائم الإباداة الجماعية في غزّة، مؤكّدةً أنّ ما عاشته في السنوات العشر الأُولى من حياتها يُشبه تماماً ما يعيشه اليوم أطفالُ فلسطين في غزّة.

ويبدو أنّ هذه المقاربة لم تعجب المنظّمين للفعاليات الدوريّة التي تقوم بها الكاتبة الثمانينيّة في ألمانيا منذ سنوات، ليُرسلوا إليها إخطاراً بإلغاء كلّ الأمسيات المقرَّرة لها في مدينة هامبورغ هذا الشهر، وتأجيلها مبدئياً إلى أيار المُقبل، وخصوصاً جولتها المقرّرة في ثماني مدارس بالمدينة التي نشأت فيها.

في حديث مع تلفزيون «الديمقراطية الآن» في نيويورك، أبدت صاحبة «أيادي السلام» استغرابها الشديد من هذا الإلغاء، وكيف عجز المنظّمون، بمن فيهم الأساتذة الذين كان من المفترض أن تلتقيهم، عن تسمية سبب واحد يبرّرون به قرارهم، مع تشديدهم غير المُبرَّر على أنّ هناك خطراً أمنيّاً عليها في ألمانيا لـ«ارتفاع مستوى معاداة الساميّة في الأيام الأخيرة»، وفق تعبيرهم.

بل إنّ أكثر ما أثار استغرابها، أنّ أحد المنظّمين أخبرها أنّ من المُمكن أن يستخدم «حزب ألمانيا البديل»، وهو حزب النازيّين الجدُد، صور نشاطاتها في أغراض «بروباغندا».. وحول هذا الموضوع تقول إنها تُحاول تخيُّل كيف يُمكن لهذا الحزب أن يستخدم صورتها ضمن دعايته العنصرية، ولكنّها لا تصل إلى أيّة نتائج!

و أبدت إنغرام استياءها الشديد من الأسلوب الذي تتعامل به الدولة الألمانية مع الأحداث الجارية، خصوصاً أنّ ألمانيا كانت تُحاول أن تبدو مثالاً لدُول العالَم في طريقة تعامُلها مع التاريخ، والاعتراف بالجرائم والأخطاء المُرتكبة وتدريسها بانفتاح ووعي. ورأت في السياسة التي تتّبعها ألمانيا، اليوم، ومعها الولايات المتحدة، بإسكات أصوات الشعب الفلسطيني، وبعد مقتل آلاف الأطفال الفلسطينيين، تصرُّفاً فادحاً، يذكّرها بشكل مخيف بالأجواء التي كانت تعيشها عائلاتها في أواخر الثلاثينات في ألمانيا.

وتحت عنوان «القضية الفلسطينية: مائة عام من النضال»، قدّم الناشط المكسيكي ألفريدو كانتيو، في العاصمة مكسيكو سيتي، بدءاً من السابع من شباط الماضي، وحتى السابع والعشرين منه، أربع محاضرات تناولت الأولى نشأة الحركة الصهيونية وبداية المشروع الاستيطاني والاحتلالي على الأراضي الفلسطينية، والتسهيلات التي قدّمتها بريطانيا لهذا المشروع، وصولاً إلى حرب النكبة في العام ١٩٤٨، عقب انتهاء الانتداب البريطاني.

أما الثانية، فتمحورت حول أشكال النضال الفلسطيني ضدَّ الاحتلال بعد حرب النكبة، والحروب التي خاضها الفلسطينيون والعرب، وصولاً إلى حرب تشرين، وكانت فاتحة للثالثة، وعالجت «اتفاقية أوسلو» وآثارها السلبية على القضية الفلسطينية، في حين كان المحور الأخير الذي عرضه كانتيو في المحاضرة الرابعة الأحداث الأخيرة المتواصلة، وما تتعرّض له غزّة من حرب إبادة ممنهجة، مؤطراً هذه الحرب داخل الصراع الذي تشهده المنطقة في الشرق الأوسط، وصراع الهويات الذي يؤجّجه كيان الاحتلال.

وفي ضوء مواقف الكتّاب والمثقفين المؤيدة لفلسطين والرافضة للحرب الإجرامية على غزة، أصدر مثقّفو جزر الكناري الإسبانية بياناً يدعم الشعب الفلسطيني ضدّ حرب الإبادة الجماعية التي تشنّها «إسرائيل» منذ السابع من تشرين الأول الماضي.

وجاء البيان على خلفيّة المظاهرة الكبيرة التي دعت إليها حركة «جزر الكناري من أجل فلسطين»، تلبية لدعوى المظاهرات العامّة التي جابت إسبانيا من الشمال إلى الجنوب، وطالبوا فيها الحكومة الإسبانية بقطع كافّة أنواع العلاقات مع إسرائيل، وكان لها أصداء واسعة انعكست في طبيعة المواقف السياسية الإسبانية من حرب الإبادة على غزة.

وورد في البيان، الذي وقّعت عليه شخصيات من عالم الثقافة والفن تحت عنوان «أصوات جزر الكناري من أجل فلسطين»: «يتعرّض الشعب الفلسطيني منذ أكثر من مئة يوم إلى حرب إبادة جماعية. لقد تسبّب هذا العدوان بقتل أكثر من ٢٤ ألف شهيد، وأكثر من ٦٠ ألف قتيل، إضافة إلى الدمار الشامل الذي تشهده مدينة غزّة، وما يعانيه سكّانها من حصار على حاجات الحياة الأساسية". وتابع البيان: «لا يمكن لهذا الوضع اللا إنساني أن يستمر، ولا بدَّ من وقف إطلاق النار في غزّة، لأن استمراره يعني تدهور الثقافة والحياة والإنسانية بشكل كامل. ويعني أنّنا فشلنا كبشر في التغلّب على الوحشية والهمجية».

واختتم البيان: «إنّنا من جزر الكناري، نعلن دعمنا للشعب الفلسطيني ونطالب المجتمع الدولي باتخاذ الإجراءات اللازمة ومعاقبة المسؤولين عن حرب الإبادة الجماعية وقتل الأطفال والنساء والمدنيين في غزّة».

يُذكر أنَّ البيان أعلن على هامش المظاهرة في جادة لويس موروت في لاس بالماس. ومن الشخصيات الثقافية التي وقعّته، نذكر: العازفة الموسيقية بياتريس ألونسو، والروائيون خافيير كابيرا، وخوسيه خونكو، وتيودورو سانتانا، وأغوستين ميلاريس، وإيساي إسكالادا.

وأطلقت مجموعة من الشعراء الإسبان الداعمين للحق الفلسطيني مبادرة شعرية بعنوان «شعر من أجل فلسطين: أبيات ضد الإبادة»، وذلك دعماً للشعب الفلسطيني في نضاله ضد حرب الإبادة.. وسرعان ما انتشرت المبادرة في مختلف المدن الإسبانية، وانضم إليها حتى الآن ما يقرب من ألف شاعرٍ. كما أنها تجاوزت حدود بلاد ثربانتس وانتقلت إلى القارة اللاتينية، حيث أعلن أكثر من شاعرٍ من عالم اللغة الناطقة بالإسبانية انضمامه إلى المبادرة، إيماناً منهم بأنَّ الشعر قادر على مواجهة هذا الطغيان الذي تمارسه «إسرائيل".

وقام كل شاعر من مدينته، بإلقاء قصيدةٍ شعرية من أجل فلسطين، تعبّر عن إدانته للإبادة وللعدوان الإسرائيلي على غزّة.

ووصل عدد المدن الإسبانية المشاركة في المبادرة إلى ثلاثين مدينة، منها: غرناطة ومدريد، وإشبيلية، وقرطبة، وسرقسطة، وماردة، وبلنسية، ومرسية، وجيّان وبيلباو، وأليكانتي، وبلد الوليد والعديد غيرها. أما بالنسبة إلى مدن أميركة اللاتينية، فستشارك كل من بوغوتا وبوينس أيريس، ومونتيفيديو، وميريدا (فنزويلا)، وسان كريستوبال (المكسيك).

وفي العام ٢٠١٣، أطلقت مجموعة من الأشخاص في الشمال الإسباني، تحديداً في مدينة سانتندير في كانتابريا،

مشروعاً ثقافياً اعتبر متمرّداً حمل عنوان "La Vorágine"، وكان من أهدافه الأساسية نقد الثقافة السائدة والأنظمة الأبوية والاستعمارية في العالم، إضافة إلى الحثّ على طرح الأسئلة والتشكيك في ما يتمُّ تقديمه على أنه «طبيعي»، و«مريح» أو «عالمي».

حقّق المشروع انتشاراً واسعاً بسبب التزامه بمبادئه وبالقضايا التي يدافع عنها، لا سيّما عبر سلسلة الفعاليات الثقافية التي نظّمها واستضافها في مكتبته، والتي تنوّعت موضوعاتها بدءاً من الثقافي وانتهاءً بالاجتماعي والسياسي.

ومع بداية العدوان الإسرائيلي على غزّة، كان موقف المشروع واضحاً مما يحدث من حرب إبادة جماعية، حيث نشر مؤسّسوه وطاقم فريق العمل بياناً يندّد بجرائم الاحتلال الإسرائيلي، ويطالب الحكومة الإسبانية بالتدخل لوقف إطلاق النار، كما شارك في التظاهرات الشعبية الداعمة لفلسطين.

وضمن أنشطته التضامنية مع القضية الفلسطينية، نظم فضاء "Vorágine" فعاليتين هُما: «شعر من أجل فلسطين.. أبيات ضد الإبادة» و«نساء فلسطين في الواجهة: المقاومة من أجل الدفاع عن الحياة".

أقيمت الفعالية الأولى في العشرين من كانون الثاني، وهي مبادرة أطلقها المشروع ودعا فيها شعراء من ١٥ مدينة إسبانية لقراءة نصوص شعرية تضامنية مع الشعب الفلسطيني، وكانت لكل شاعرٍ مدة ١٥ دقيقة لقراءة نصوص شعرية كتبها لتعبّر عن حالة الإنسان الفلسطيني الذي يدافع عن حقوقه ضد الاحتلال.

أمّا الفعالية الثانية «نساء فلسطين في الواجهة: المقاومة من أجل الدفاع عن الحياة»، فأقيمت في الرابع والعشرين من كانون الأول، وجرى خلالها التواصل مع نساء من داخل فلسطين كي ينقلن تجاربهن في مسار المقاومة، بحيث تحدّثن عن نضال النساء الفلسطينيات ودفاعهن عن الحياة والسيادة الشعبية والحقوق الجماعية؛ حيث يدور النقاش حول انتهاكات حقوق الإنسان الخطيرة التي تواجه النساء الفلسطينيات يوماً بعد يوم بسبب ممارسات الاحتلال الإسرائيلي، قبل عدوان غزّة الأخير وخلاله.

وما زالت التعبيرات عن مظاهر التضامن مع الشعب الفلسطيني تعمّ المدن الإسبانية. فلم يقتصر الأمر على تنظيم الفعاليات الثقافية أو على المظاهرات الشعبية التي خرجت تطالب بوقف العدوان الإسرائيلي على غزّة وتندّد بحرب الإبادة المُمنّهجة التي يخوضها الكيان الصهيوني في ظلّ صمت العالم وتفرّجه، أو حتى على إعادة طباعة بعض الكتب الهامة التي تعالج القضية الفلسطينية وتبيّن حقيقة نضال الإنسان الفلسطيني من أجل الحرية.

بل أخذ هذا التضامن أشكالاً جديدة، من آخرها ما أعلنت عنه "ديوان مجريط» الإسبانية، حيث أصدرت بياناً تحت عنوان «دعوة شعريّة تضامناً مع الشعب الفلسطيني ومقاومته في غزّة".

جاء في نص البيان التالي» تعلن دار نشر «ديوان مجريط» عن مسابقة شعرية بهدف نشر أنطولوجية شعرية

باللغة الإسبانية على أن تكون القصائد المكتوبة عن موضوع واحد فحسب: دعم الشعب الفلسطيني ومقاومته في غزّة". وتابع البيان «يعدُّ الشعر جنساً أدبيّاً يفترض التعبير عنه استخدام اللغة بطريقة حسّاسة تهدفُ لبناء جسرٍ بين الثقافات. وواحدة من الطرق لبناء جسر متين بين الشعوب والثقافات هي التضامن والتعاطف مع من يعاني من الظلم والاحتلال والحرب والإبادة..

ضمن هذا المعنى يستطيع الشعر أن يضع القرّاء في تلك الوقائع المفروضة على بعض الشعوب الأخرى، ونأمل أن تساهم هذه المبادرة في التأثير على شعراء اللغة الإسبانية".

يذكر أنَّ «ديوان مجريط» هي دار نشر إسبانية تأسّست في العام ١٩٩٩، وهي متخصّصة في نشر كتب الأدب العربي والدراسات الخاصة بالمغرب باللغة الإسبانية.

وبعبارة «سكوشيا بنك يُموّل الإبادة» التي كتبها ناشطون متضامنون مع القضية الفلسطينية على لافتاتهم، وردَّدوها بصوتٍ عالٍ، قُوطع حفلُ توزيع «جائزة غيلر» الأدبية، الذي أقيم في مدينة تورنتو الكندية، وحضره قرابة ٣٠٠ شخصية.

الحفل الذي أُعلن فيه فوز الروائية سارة بيرنشتاين (١٩٨٧) بالجائزة عن عملها «درسٌ في الطاعة»، تخلّلته أصوات احتجاج على المذبحة الصهيونية في غزة، حيث أظهرت مقاطع فيديو صوّرها بعضُ الحاضرين، الإعلامي والكاتب الكندي ريك ميرسر، الذي تولّى تقديم الحفل، وهو يُحاول تمزيق اللّافتات التي حملها الناشطون والناشطات، ثم دفعهم بعيداً إثر اعتلائهم المسرح إلى جانبه.

في الوقت ذاته، تنقّلت إحدى المتضامنات بين جمهور الحاضرين مُردّدة عبارات تُثبت تورُّط البنك المذكور (وهو المُموّل للجائزة الأدبية)، بجرائم الإبادة الجماعية التي ترتكبها «إسرائيل» في غزة. وعبّر المتضامنون عن إدانتهم لارتباط «جائزة غيلر» الأدبية، بمؤسسة مالية مثل «سكوشيا بنك»، التي تُساهم من خلال حصّتها المقدّرة بـ ٥٠٠ مليون دولار في أكبر شركة تصنيع للأسلحة بـ«إسرائيل» («إل بيت سيستيمز»).

وسرعان ما تدخّلت عناصر أمنية لدفع المُتضامنين خارج القاعة، ونزع اللافتات من بين أيديهم، في حين لم تُركّز الكاميرات التي نقلت الحدث مُباشرة على هذه المشاهد، وارتفعت أصوات الموسيقى للتشويش على نداءات المحتجّين. كذلك صدر التسجيل الرسمي للحفل عبر قناة «سي بي سي» على يوتيوب، صباح هذا اليوم، خالياً من المقاطع التي يظهر فيها الناشطون.

يُذكر أنّ الجائزة تأسّست العام ١٩٩٤، تكريماً لإنجاز الصحافية والمُحرّرة الأدبية دوريس غيلر، وتُمنح لمؤلّف كندي في الرواية أو القصة القصيرة المنشورة باللغة الإنكليزية (بما في ذلك الترجمة)، وتبلغ قيمتها ١٠٠ ألف دولار. وكانت خلاصة رسالة وقّع عليها أكثر من أربعة آلاف فنان وكاتب وأستاذ جامعي وعامل في قطاع الثقافة بكندا، أشارت بوضوح: "باعتبارنا فنّانين وعاملين ثقافيّين وأكاديميّين، فإننا نقف وندعم بقوة النضال

الفلسطيني من أجل الحرية، وضدّ جميع أشكال الفصل العنصري الإسرائيلي والاستعمار الاستيطاني والاحتلال العسكري والتطهير العرقي".

لم يكتف الموقّعون بإدانة الانتهاكات الإسرائيلية في غزّة اليوم، بل جاء في رسالة «مثقفون من أجل فلسطين - كندا» التي تم نشرها بالكامل باللغتين الإنكليزية والفرنسية «نحن ندرك أن أحداث السابع من أكتوبر لم تحدث من فراغ»، إذ تشير إلى أنه «على مدى عقدين من الزمن، احتجزت إسرائيل الفلسطينيين في غزة تحت الحصار، في سجن مفتوح، وأخضعتهم لمجازر وحشية واختبارات للأسلحة؛ وحرمانهم من السِّلع الأساسية والغذاء والمياه النظيفة والأدوية والمستلزمات الطبّية".

وتعهّد الموقّعون على الرسالة برفض الدعوات لتمويل من المؤسسات المرتبطة بالحكومة الإسرائيلية، التزاماً منهم بالقانون الدولي والمبادئ العالمية لحقوق الإنسان، لافتين إلى أنه منذ عام ٢٠٠٠، اعتقلت القوات الإسرائيلية أكثر من ١٣٥,٠٠٠ فلسطيني، من بينهم ٢١,٠٠٠ طفل فلسطيني ومئات الأكاديميين والفنانين والصحافيين والمُدافعين عن حقوق الإنسان والبرلمانيين.

وتابعوا: «ولا تزال الاحتجاجات السلمية تُقابَل برصاص القنّاصين الإسرائيليين، إذ يتم استهداف الصحافيين الفلسطينيين لأنهم يقدّمون لنا أخباراً على أرض الواقع، كما هو الحال مع مُراسِلة ‹قناة الجزيرة› شيرين أبو عاقلة، التي أُصيبت برصاصة في رأسها على يد القوات الإسرائيلية أثناء تغطيتها لهجماتها على مخيّم جنين للاجئين العام الماضي".

ونبّهت الرسالة إلى أنّ المتضامنين مع فلسطين والفلسطينيين في جميع أنحاء العالم، وخاصة في الولايات المتحدة وكندا وأوروبا، يتعرّضون للتجريم والترهيب والسجن، ويواجهون مستويات غير مسبوقة من العنصرية المناهضة للفلسطينيين والتحريض على العنف.

وأضافت «هذا العام، نفّذت حكومة اليمين المتطرّف في ‹إسرائيل› سياسة إجرامية شرعت بمداهمات المدن والقرى الفلسطينية في جميع أنحاء الضفة الغربية والقدس، حيث وصلت إلى مستوى قياسي من القتلى والاعتقالات الفلسطينية دون تهمة أو محاكمة.. لقد فهم العالم أجمع في حالة أوكرانيا أن مقاومة الاحتلال العسكري أمر مبرّر. وهو في الواقع حقّ يكفله القانون الدولي. إن رد الفعل المُسلّح من قبل الفلسطينيين في غزة في ٧ تشرين الأول ٢٠٢٣، هو نتيجة لعقود من المعاملة القاسية والقمعية".

وعبّر الموقّعون عن الشعور بخيبة الأمل والخجل من ردّ فعل الحكومة الكندية والممثلّين المنتخبين والمؤسسات في كندا، الذين أعربوا مرة أُخرى عن دعمهم الساحق لنظام الفصل العنصري الإسرائيلي، وإضفاء الشرعية على القصف المستمر لغزة وتصعيد العنف العسكري في الضفة الغربية.

وخُتمت الرسالة بالقول «من خلال فهم الطبيعة الاستعمارية الاستيطانية لكندا وأسسها على سرقة أراضي

وحياة السكان الأصليين، فليس من المستغرب تماماً أن تُدافع كندا عن الحصار والقتل وسرقة الأراضي، ما خلق جوّاً من العنصرية المتزايدة والترهيب والخوف من الفلسطينيين ومؤيّديهم في مستعمرة كندا الاستيطانية".

وفي تمّوز الماضي، أعلنت «مؤسَّسة جان لوك لاغارديز» و«معهد العالم العربي» في باريس عن القائمة القصيرة للمرشَّحين لـ«جائزة الأدب العربي» لعام ٢٠٢٣، والتي ضمّت الترجمات الفرنسية لثماني روايات؛ هي: «أتذكّر الفلوجة» لفرات العاني، و«أبواب الجنّة» لطالب الرفاعي، و«حدائق البصرة» لمنصورة عز الدين، و«خمس أخوات» لبيرسي كامب، و«لبنان الأسود» لسلمى كوجوك، و"على خطّ غرينيتش" لشادي لويس، و«لو كان لدي فرنك» لعبد الكريم صيفي، و«مقام الريح» لسمر يزبك.

وحسب القائمين على الجائزة، التي أُنشأت عام ٢٠١٣ وتبلغ قيمتها عشرة آلاف دولار أميركي، فإنّ اسم الفائز أو الفائزة سيُعلن في الثامن والعشرين من تشرين الثاني نوفمبر المُقبل في «معهد العالم العربي» بباريس.

قبل أيّام قليلة من الإعلان عن اسم الفائز بالجائزة، انخفض عدد المرشّحين إلى سبعة، مع إعلان الكاتب المصري شادي لويس، انسحابه منها، وهو القرار الذي ربطه بـ«الأحداث المأساوية الراهنة التي تشهدها غزّة»، وبـ«صعوبة التعامل في هذه الأوقات مع أيّ مؤسَّسة فرنسية لها انتماء أو مكانة رسمية".

ونشر لويس على حسابه في فيسبوك مقتطفاً من رسالةٍ وجّهها إلى دار «آكت سود»؛ ناشر الترجمة الفرنسية لروايته، وأعلمها فيها بقراره سحب اسمه من الجائزة. وممّا ورد فيها: «بعد تفكير طويل في ظلّ الأحداث المأساوية الراهنة التي تشهدها غزّة، توصّلتُ إلى قرار الانسحاب من جائزة ‹معهد العالم العربي›. لقد كان شرفاً لي الوصول إلى الجمهور الناطق بالفرنسية من خلال ترجمتكم لروايتي ‹على خطّ غرينتش›. كما أن التغطية الصحفية الفرنسية الإيجابية للرواية شرّفتني. ومع ذلك، أجد صعوبة في التعامل في هذه الأوقات مع أي مؤسّسة فرنسية لها انتماء أو مكانة رسمية". وأضاف الكاتب المصري في رسالته: «إنّ انسحابي ليس حتّى احتجاجاً على الموقف الفرنسي الرسمي بشأن غزّة، إذ إنّني أجد أنّ المأساة ساحقة إلى حدّ أنّ الاحتجاج لا معنى له. هذا القرار لي فقط حتى يكون ضميري مرتاحاً".

وكان من المقرَّر أن يشارك لويس في ندوة حول الجائزة تحتضنها مكتبة «معهد العالم العربي» في الثامن عشر من تشرين الثاني الماضي، وهي واحدةٌ من أربع لقاءات أدبية تُنظَّم خلال الشهر الجاري مع المرشَّحين النهائيّين.

وما زالت مجموعة «ناشرون من أجل فلسطين» تنظّم الفعاليات الثقافية الهادفة إلى الإضاءة على الأدب الفلسطيني، وواقع المثقّفين والكتّاب في ظلّ الإبادة الإسرائيلية المستمرّة منذ قرابة ستة أشهر، وضمن هذا الإطار، دعت المجموعة إلى أن يكون الخامس عشر من كانون الثاني الماضي، يوماً عالمياً مُخصّصاً للشاعر والأكاديمي الفلسطيني الشهيد رفعت العرعير، من خلال فعالية عالمية تحمل عنوان «اقرأ من أجل رفعت".

وافتتح اليوم العالمي، الذي صادف مرور أربعين يوماً على اغتيال قوّات الاحتلال الإسرائيلي صاحب «إن كان

لا بدّ أن أموت»، في السابع من كانون الأوّل الماضي، أسبوعاً من الأنشطة الأدبية والثقافية، التي تتّخذ من إسهامات العرعير موضوعاً لها، بهدف الإنهاء الفوري لوقائع الإبادة الجماعية في غزّة.

وممّا جاء في بيان المجموعة: «في أواخر تشرين الثاني الماضي، دعَونا القرّاء حول العالم ليقرأوا فلسطين خلال «أسبوع اقرأ فلسطين، واليوم ندعوكم لتقرأوا فلسطين مرّة أُخرى، ولكن هذه المرّة بصوتٍ عالٍ وفي العَلن، حتى تكون القراءة فعلاً احتجاجيّاً".

وتضمّنت الفعالية قراءات عَلنية من شعر العرعير، في المراكز التجارية، وأماكن العمل، والمدارس، والمرافق العامّة، وعلى وسائل التواصل الاجتماعي، وكذلك طباعة كتاباته وتوزيعها بين الناس مجّاناً، لإيصال الصوت الفلسطيني إلى جمهور أكبر.

وتمثّل قصيدة العرعير التي يفتتحها بقوله «إن كان لا بدّ أن أموت»، عملاً مركزياً كونها كُتبت في ظلّ المجزرة، وتشكّل توثيقاً أدبيّاً حيّاً للجرائم الإسرائيلية بحقّ المُبدعين.

ودعت المجموعة الناشطين وأصحاب المكتبات، وعموم الفاعلين الثقافيّين من تشكيليّين وكتّاب وموسيقيّين حول العالم، للاشتراك في الحملة التي تتواصل بين الخامس عشر والحادي والعشرين من كانون الثاني الجاري، في محاولة لـ»رفض الصمت والإسكات الذي يُمارسه الاحتلال".

وختمت المجموعة بأنّ المشاركات لا تقتصر على قراءة نصوص العرعير وحده، فشهداء القطاع الثقافي كثُر، ومنهم الشاعر سليم النفّار، والروائي الشاب نور الدين حجّاج، والشاعرة الشابّة هبة أبو ندى، إضافة إلى عشرات الكتّاب الأحياء في غزّة، والذين يواجهون الموت في أيّة لحظة.

«ناشرون من أجل فلسطين» هي مجموعة تضامُن عالمية تضمّ أكثر من ٣٠٠ ناشر يُدافعون عن العدالة وحرّية التعبير وقوّة الكلمة المكتوبة تضامناً مع شعب فلسطين، وترفض المحو أو الصمت، رغم أعمال العنف المروّعة التي ترتكبها «إسرائيل»، كما تسعى إلى مواجهة تواطؤ وسائل الإعلام الغربية والصناعات الثقافية.

وكانت معارض الكتب المُقرّرة أو المُستحدثة مساحة مهمة للتضامن مع القضية الفلسطينية، ورفض حرب الإبادة الإسرائيلية على قطاع غزة، وكان آخرها معرض بغداد الدولي للكتاب، بحيث حضرت قضية فلسطين والحرب على غزة بشكل مكثف فيه، هو الذي انتظمت فعالياته تحت شعار «صارت تسمى فلسطين».

المعرض الذي شاركت فيه أكثر من ٣٥٠ دار نشر عراقية وعربية وأجنبية، من ١٦ دولة، سيطرت عليه أجواء التراث الفلسطيني، وتزينت تصاميمه بنقوش الكوفية، وخصصت فعاليات وأنشطة فيه لإعلان التضامن مع الفلسطينيين. كما تصدرت كتابات غسان كنفاني، الدعاية الترويجية للمعرض، وتضمنت الفيديوهات الدعائية أشعارًا وكتابات فلسطينية معروفة.

وقالت إيهان ممتاز عضو اللجنة التنظيمية للمعرض في تصريحات صحافية، إن الدورة الحالية، جاءت تمثيلًا

لكل ما هو فلسطيني، و»صرخة رافضة للظلم الواقع على هذا الشعب».

وفي إطار هذا التضامن، لفتت إلى أن قاعات المعرض وأقسامه جميعها حملت أسماء مدن فلسطينية شهيرة، مثل: غزّة، والقدس، وجنين، وغيرها.

ضمن برنامج ثقافي يَحتشد باللقاءات والندوات الأدبية والفكرية، حضرت فلسطين في مغرض القاهرة الدولي للكتاب، الذي انطلقت فعاليات دورته الخامسة والخمسين في نهاية كانون الأول وتواصلت حتى السادس من كانون الثاني، وذلك عبر خمس ندوات خُصّصت واحدةٌ منها فقط للثقافة الفلسطينية، الشعر تحديداً، بينما تُركّز الندوات الأربع الأُخرى على الجوانب السياسية المتعلّقة بالدور المصري في القضيّة الفلسطينية، واتّصال الأخيرة بالأمن القومي المصري.

لكن، وبعيداً عن الندوات، وفي ظلّ العدوان الصهيوني على غزّة، يُبدي زوّار المعرض اهتماماً كبيراً بالكتب التي تُضيء على جوانب مختلفة من القضية الفلسطينية؛ ومنها موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية» للمفكّر المصري الراحل عبد الوهاب المسيري، إلى جانب كُتب أُخرى في أجنحة دُور نشر مصرية وعربية، أو في جناح فلسطين الذي يعرض عدداً كبيراً من الكتب التي تتناول تاريخ فلسطين وثقافتها وتراثها، إضافةً إلى صور تُوثّق لجرائم الاحتلال المتواصلة في غزّة منذ قرابة أربعة أشهر.

والجناح، الذي يحمل شعار «أطفالنا ليسوا أرقاماً»، شكّل قِبلة زوّار المعرض الأُولى، لاقتناء كُتب أو لالتقاط صُور مع عَلَم فلسطين وهُم يرفعون علامة النصر، تعبيراً عن تضامن المصريّين مع الفلسطينيّين وتأييدهم للحقّ الفلسطيني.

وفي دورته الثانية عشرة انتظمت فعاليات معرض مدينة تونس للكتاب تحت شعار "وجود ومقاومة"، بمشاركة أكثر من ثمانين دار نشر تونسية وعربية وعالمية.

التظاهرة التي سعت إلى دعم حضور الكتاب في المكتبات العمومية والشخصية ومكتبات المؤسَّسات التعليمية في العاصمة والولايات التي لا تحتضن معارض محلية للكتاب، تفتتح في شارع الحبيب بورقيبة حيث تشيّد جدارية ضخمة تحتوي نسخاً من خريطة فلسطين بجوار خريطة تونس.

وعقدت في يوم الافتتاح مائدة مستديرة حول أدب المقاومة بمشاركة باحثين وأكاديميين، في الدورة المهداة للشعب الفلسطيني، في إطار «دعمه في ظل حرب الإبادة البشعة التي يتعرض لها سكان قطاع غزة من قبل الاحتلال الصهيوني، وأيضاً في إطار تجديد دعم المثقفين التونسيين للحق الفلسطيني.

ولا تكاد فلسطين تغيب عن الفعاليات الثقافية في تونس منذ بدء العدوان الإسرائيلي على غزّة قبل قرابة ثلاثة أشهر؛ حيث أُقيمت، خلال هذه الفترة، العديد من المعارض والمهرجانات واللقاءات التي خُصّصت للإضاءة على القضية الفلسطينية في أبعادها وجوانبها المختلفة.

ينطبق ذلك على «معرض بنزرت للكتاب» في المدينة الواقعة شمالي البلاد، والذي انطلقت فعالياته في «المركّب الثقافي الشيخ إدريس»، وتواصلت حتى الثامن والعشرين من كانون الثاني الماضي، تحت شعار «خُذ الكتاب.. لفلسطين تشدو القلوب والألباب".

وحلّت فلسطين ضيف شرف في الدورة الجديدة التي قال مدير المركب الثقافي، بشير القمودي، إنّها «مهداةٌ للمقاومة الفلسطينية الباسلة وللشعب الفلسطيني الأبيّ، في رسالة تضامُن تونسي مطلَق وغير مشروط من أرض الجلاء بنزرت مع القضية والحقّ الفلسطيني في استرداد أرضه ودولته وعاصمتها القدس».

وشهدت الدورة الجديدة من المعرض، التي أقيمت بتنظيم من «المركب الثقافي الشيخ إدريس» و«اتحاد الناشرين التونسيين» و«المركز التونسي للكتاب»، مشاركة دُور نشر من تونس وبلدان عربية أُخرى، تحضر بقرابة ثلاثين ألف عنوان، حسب المنظّمين.

وتحت شعار «تسقط الأجساد ولا تسقط الفكرة»، انتظمت تظاهرة «أيّام غسّان كنفاني لفنون المقاوَمة»، التي تحتضنها «دار الثقافة النموذجية» في مدينة بن عروس التونسية، ضمن الأنشطة الثقافية التضامنية مع الشعب الفلسطيني، والتي تُقام في مدن تونسية مختلفة منذ بدء العدوان الإسرائيلي على غزّة .

وفي بيانٍ للتظاهرة، يعرّف المنظّمون الروائي والمناضل الفلسطيني الشهيد (١٩٣٦ - ١٩٧٢) بأنّه "المثقّف المتعدِّد الذي استعمل كلَّ الفنون لينصر قضيته الأُمّ قضية الشعب الفلسطيني؛ فكان أديباً وشاعراً ورسّاماً وصحافياً وسينمائياً... استعمل كلَّ الفنون ليدوّل قضيته، وتَعلَّم أكثر من لغة ليصل صوتُه وصوتُ شعبه للجميع".

ضمّ اليوم الأوّل ندوة بعنوان «الأدب والشعر والموسيقى: في مناصرة القضايا الإنسانية العادلة»، تُديرها الناقدة هيام الفرشيشي، ويتحدّث فيها كلٌّ من الأكاديمية سهام حرزالي عن «غسّان كنفاني: المثقّف المتعدّد»، والكاتبة نورة عبيد عن «تجلّيات عند غسّان كنفاني أديباً وشهيداً»، والناقدة حبيبة المحرزي عن «غسّان كنفاني ومرارة البرتقال الحزين»، والباحث محمّد المي عن «الشعر المقاوم لإبراهيم طوقان»، والأكاديمي توفيق العلوي عن «الغرافيتي: تعبيرة المقاومة".

وتحت عنوان «الإعلام والقضايا الإنسانية العادلة»، أقيمت ندوةٌ في اليوم الثاني، بعد غدٍ الجمعة، يديرها الصحافي محمد بوعود، ويتحدّث فيها كلّ من الصحافيّين مالك الخالدي عن «تغطية الإعلام التونسي لطوفان الأقصى بين التضليل في الخطاب السياسي والتحرّي في المعلومات: الإذاعات مثالاً»، وسمية حسين عن «الإعلام المقاوِم: تحدّيات الوحدة وإكراهات التفوّق»، ومنية العرفاوي عن «الإعلام العربي المكتوب على جبهة المقاومة»، والأكاديمي والباحث في علم الاجتماع ممدوح عز الدين عن «الحرب على غزّة: مقاربات سوسيولوجية".

وخصّص اليوم الثالث والأخير لمحور «السينما في خدمة القضايا العادلة»؛ حيث يدير الجلسةَ الممثّلة أمال علوان، مداخلات هي: «رواية عائد إلى حيفا لغسّان كنفاني بين شاشتَين» للأكاديمي المختصّ في سيميائيات الأدب أحمد القاسمي، و»السينما والحركات النضالية: فلسطين مثالاً» للناقد السينمائي الناصر السردي، و»الإبداع والالتزام: السينما الفلسطينية نموذجاً» للكاتب والسيناريست الطاهر بن غذيفة، بينما يُقدّم المُخرج رضا الباهي شهادةً عن فيلمه «السنونو لا تموت في القدس» (١٩٩٤)، والذي تدور أحداثه حول صحافي فرنسي يبحث عن أمّ فلسطينية ضائعة عن أهلها، يُرافقه مرشد فلسطيني إلى القدس والضفّة الغربية وصولاً إلى غزّة.

وفي الدورة الحادية عشرة من «مهرجان طنجة الدولي للشعر»، التي انتظمت في «المركز الثقافي إكليل» بمدينة طنجة المغربية، خُصّصت ثلاث فعاليات لاستذكار الشعراء الفلسطينيين الذين استشهدوا بسبب القصف الإسرائيلي الهمجي على غزّة.

التظاهرة التي تنظّمها «جمعية المدينة للتنمية والثقافة» تحت شعار «فلسطين.. بوصلة القلب في الشعر والذاكرة»، أقامت أمسية إهداءً لروح الشاعرة الشابة هبة أبو ندى التي استُشهدت في العشرين من تشرين الأول الماضي، ويشارك في الأمسية الشعراء: آنا فرنكي من كولومبيا، وعثمان الهيشو، ومحمد العشاب من المغرب.

كما عقدت أمسية أخرى استذكاراً للشاعر سليم النفّار الذي استشهد بغارة جوّية إسرائيلية استهدفت منزله في حيّ النصر بقطاع غزّة، وشارك فيها الشعراء: محمد جاويش من مصر، ومهند ذويب من فلسطين، وعبد الوهاب السملالي من المغرب.

وأقيمت في يوم الختام أمسية استذكاراً للأكاديمي والشاعر رفعت العرعير، الذي استشهد خلال القصف الإسرائيلي على شمال غزّة، بمشاركة الشاعر فيليب جيجيت من فرنسا، ومحمد شداد الحراق وفاطمة الزهراء بنيس من المغرب.

وأشار بيان المنظّمين إلى أن برمجة الدورة الحالية تأتي «في سياق الأحداث المهيمنة على الساحتَين الدولية والعربية، وحرصاً على ترجمة ما ينتاب القلوب من مشاعر المحبّة والميثاق القوي الذي يجمع شمل مدينة طنجة والمغرب بسائر أطيافه بفلسطين الحبيبة، وفي خِضمِّ ما يعيشه قطاع غزّة الجريح تحت آلة القصف الإسرائيلية التي لا تتوقّف ليلاً نهاراً، أمام صمت دولي رهيب تجرَّد من كلّ معاني الإنسانية، والذي أتاح المجال لانتهاك حقوق الإنسان بأبشع جريمة مُمارَسة في حقّ آلاف الأطفال والنساء والمدنيّين الأبرياء، شعب أعزل يقصف في ساحات المشافي وداخل البيوت، بأسلوب ممنهج للإبادة والتهجير".

وأوضّح البيان أن المهرجان يهدف إلى «الإنصات للقصيدة بمختلف تلاوينها وأطيافها والتأمّل في خصوصية البوح الشعري والذاتي والتجارب المتعدّدة، عبر القراءة والنقد والتفاعل والحوار بين الأجيال، في سياق متفاعل مع القضية الأم، قضية فلسطين، وما يجري على الواقع من أحداث أليمة أسالت مداد الشعراء واستنزفت مشاعرهم".

ومن الشعراء المشاركين في الدورة الحالية: خالد فتح الرحمن من السودان، وحمزة عبد الوارث من نيجيريا، وعماد أفقير وجليلة الخليع من المغرب، بالإضافة إلى مشاركة عدد من الفنانين يؤدّون معزوفات تضامناً مع غزّة.

وحضرت اللحظة الفلسطينية في العديد من فعاليات الدورة الثامنة من "معرض إسطنبول الدولي للكتاب العربي، بتنظيم من «الجمعية الدولية لناشري الكتاب العربي» في تركيا، بالتعاون مع «اتحاد الناشرين الأتراك»، و«جمعية الناشرين الأتراك".

التظاهرة التي تحافظ على انعقادها منذ العام ٢٠١٦، شارك فيها أكثر من مئتين وخمسين دار نشر تمثّل ثلاثين بلداً، حيث يُعرض ما يزيد عن ١٥٠ ألف عنوان، كما يتضمّن البرنامج الثقافي أكثر من مئة فعالية، منها ندوات ومحاضرات عديدة حول العدوان الإسرائيلي على غزة.

وأشار رئيس «الجمعية الدولية لناشري الكتاب العربي» إلى أن «المعرض يأتي بالتزامن مع الملحمة البطولية التي يُسطّرها أهلنا في غزة، بينما نقف نحن والعالم كلّه متفرّجين على شعب يُسطّر البطولات أمام غزو لم يشهد له التاريخ مثيلاً على منطقة صغيرة»، بينما ركّزت المداخلات على أهمية التظاهرة في التعريف بالثقافة والأدب العربي في تركيا.

وضمن فعاليات المعرض أقيمت محاضرة بعنوان «طوفان الأقصى.. معركة القِيم»، قدّمها نواف التكروري، كما قدّم هادي العبد الله محاضرة بعنوان «من إدلب إلى غزة.. ألم وأمل»، تلتها ندوة «السياسة الأميركية تجاه الشرق الاوسط» بمشاركة سامي رمضان وطارق الزمر.

وانتظمت أيضاً محاضرة بعنوان «طوفان الأقصى.. الجذور، السياق، والتداعيات» قدّمها أحمد الزعتري، فيما أقيمت ورشة عمل بعنوان «المقاومة والأدب.. عندما تكون المقاومة» أدارتها نردين أبو نبعة، وقدّم محمد العوضي محاضرة بعنوان «غزة والتصهيُن الثقافي".

أما إسراء الشيخ، فقدّمت محاضرة بعنوان «قراءة في تاريخ القضية الفلسطينية»، تبعتها محاضرة «غزة.. دروس وعِبر» لمحمود الحسنات، إلى جانب ندوة «الإعلام العربي والقضايا الراهنة» التي شارك فيها عددٌ من الصحافيّين والباحثين.

يُذكر أن المعرض يُعتبر أكبر تظاهرة ثقافيّة ومعرض دولي للكتاب العربي خارج الدّول العربيّة، ويقام بشكل دوري في إسطنبول، ويستقطب الجالية العربية المُقيمة على الأراضي التركية، والكثير من الأتراك المهتمّين باللّغة العربية وعلومها.

وفي خامس أيام معرض بيروت العربي الدولي للكتاب بدورته الخامسة والستين، تصدّرت فلسطين قائمة العناوين الجديدة التي أعلن عنها العديد من الناشرين، في مجالات معرفية وإبداعية متعدّدة.

ولم تغفل دُور النشر عن الإشارة إلى أن إصداراتها هذه تأتي في لحظة يتعرّض فيه الشعب الفلسطيني إلى

عدوان صهيوني همجي، بينما كان حضور فلسطين في البرنامج الثقافي للتظاهرة محصوراً في فعاليتين اثنتين يبدو أنه تمّ إضافتهما مواكبة للأحداث فقط.

لكن اللحظة الراهنة كانت مهيمنة على الافتتاح، حيث لفت المنظّمون إلى أن إقامة الدورة الحالية «تأكيد على دور بيروت كعاصمة للثقافة والمعرفة، وعلى التحدّي للعدوان الإسرائيلي في قطاع غزة وجنوبي لبنان".

كما حضرت صُور المسجد الأقصى والأعلام الفلسطينية في أروقة المعرض على نحو رمزي يعكس رؤية المعرض، بالإضافة إلى تثبيت لوح أبيض دوّن عليه روّاده كلمات عبّرت عن دعمهم للنضال والمقاومة في فلسطين.

ونظّمت أمسية شعرية بعنوان «تحية إلى غزّة» شارك فيها الشعراء: عباس بيضون، ومحمد ناصر الدين، وعبده وازن، ومحمود وهبة، ولين نجم، وإيهاب إيعالي، وحسن المقداد، وكانت أُقيمت أمسية بعنوان «فلتنتصر غزّة بالشعر والموقف»، شارك فيها كلّ من: جهاد الحنفي، وجمانة نجار، وجدي عبد الصمد، وعماد الدين طه، وميراي شحادة، ومردوك الشامي، وعصمت حسان، وقدّمتها أماني فارس أبو حمزة.

إلى جانب ذلك، تضمّن البرنامج العديد من الندوات التي تضيء قضايا وشخصيات مهمّة لها صلة بالواقع الفلسطيني، مثل ندوة «تحيّة إلى المطران جورج خضر» التي تحدّث خلالها حسن داوود ومارلين كنعان حول سيرة رجل دين انشغل بالقضية الفلسطينية تأليفاً وتنظيراً في كتابيه «فلسطين المستعادة» (١٩٦٩)، و«القدس» (٢٠٠٨)، وكذلك ندوة «استراتيجية الإعلام والاتصال في الحرب والأزمة» بمشاركة مصطفى متولي وزكي جمعة وراغب جابر وشيراز منصور.

وأصدرت، مجموعة من الشعراء الأتراك بياناً تضامنياً مع الشعب الفلسطيني، دعت فيه إلى «انتفاضة عالمية من أجل فلسطين». وقد لاقى البيان تجاوباً كبيراً في الأوساط الثقافية داخل تركيا وخارجها؛ حيث تُرجِم إلى لغات عديدة ووقّع عليه أكثر من ١٢٦ شاعراً، نادوا فيه الشعراءَ حول العالم للانضمام إلى بيانهم بهدف حشد الرأي العام العالمي لما يجري من حرب إبادة تشنّها «إسرائيل» على قطاع غزّة.

وجاء في البيان: «سنواصل الصراخ بأنّ الإنسانية تموت مع كلّ إنسان يموت. منذ أسابيع تُهاجم إسرائيل قطعة صغيرة من الأرض، غزّة، جوّاً وبرّاً وبحراً... وتُواصل الصحافة العالمية وصف هذا التدمير أُحادي الجانب، الذي لا هَوَادة فيه ويقوم به صانع قرار واحد، بأنه ‹حرب›، ولكن لا توجد حرب، بل تنفيذ واحدة من خطط التدمير والتطهير الأكثر مأساوية في تاريخ البشرية".

وتابع البيان: «تُباد النساء والمسنُّون والأطفال، ليس أمام أعيُننا، بل داخل أعيننا! وفي غُرَف بيوتنا، في الخُبز على موائدنا، في الطعام في حناجرنا، وفي صراخ الأطفال الذين يلعبون في باحة المستشفى! هذه الدولة الإرهابية لا تعرف شعور الرحمة، بل تُظهِر وجودها بالتدمير والإبادة، تحصد أرواح عدد لا يُحصى من المدنيّين كلَّ يوم، مثل المخلوقات الأسطورية التي تتغذّى على العقول البشرية، فيما ‹النظام العالمي› يستخدم جثث القتلى فقط

باعتبارها نوعاً من الإحصاءات. لن نُسلِّم أرواحنا إلى الأرقام أبداً... وسنواصل الصراخ بأنّ الإنسانية تموت مع كلّ إنسان يموت. وبالطبع، فإن للشعراء ما يقولونه ضدّ هذه الجريمة الكبرى والمذابح التي ترتكبها الهمجية الموعودة ضدّ «الإنسانية... لن نسمحَ للظلام بأن يبتلع الأمل! ورغم أننا نُواجه واحدة من القوى الوحشية النادرة في التاريخ، فإنّنا سنواصل الدفاع عن حقِّ أهل غزّة، خصوصاً الأطفال والنساء وكبار السنّ، وطيورها وكلِّ أرواحها، في العيش بحرّية داخل وطنهم... هذا حقُّهم الطبيعي ولا يُمكن لأي قوة أن تسلُبهم هذا الحق".

واختتم البيان: «نشهد اليوم عملياتِ إبادةٍ جماعية لأهل غزة باستخدام كلّ إمكانيات تكنولوجيا الحرب... لقد وصلنا إلى أقصى نقطة من الهمَجية... وهذه أيضاً هي الصورة الأخيرة لـ‹النظام العالمي› الذي دُمِّر إنسانيّاً ولم تعد له صلاحية. نحن، الشعراء، نمزِّق صورة ‹النظام العالمي» هذه، المُخَطِّط السرّي للعديد من الحروب القذرة، بوعينا وأرواحنا وكلماتنا... نحن، الشعراء، نعتبر أنّه من واجبنا حماية كرامة الإنسان ووجوده في ظلِّ الحصار على غزّة، ونقول للقاتل: توقَّف!".

من الموقّعين على البيان: عائشة آدم، وباريش آغير، وثريا أكتشاي، وحسين أكين، ومحمود أكسوي، وعائشة ألتنطاش، ويوسف ألبير، وشاهين ألتونير، وفاطمة أراس، وقادر أيديمير، وهيكران أصلان، وحسين أتلانسوي، وبشير أيفاز أوغلو، ويتشار بيدري، وأحمد بوزكرت، محمد خان دوغان، وفاروق بال، نور الدين دورمان، ألطاي عمر أردوغان، ومصطفى أطباي، وتوركاي كان تورك، توبا كابلان، وعائشة نالان، وهيثم إرغولن، ونهاد أوزدال، وإسماعيل كاركورت، وحقان كيسان، وشريف بلسيل، وحقان غوزيلديري، وغولسيل إينال، وأحمد تللي، وروحي شيرين، وفاروق أويصال، وكنان ساريالي أوغلو، وعدنان أوزير، ومراد صوياك، وأركان يلماز، وإبراهيم يولالان، ونهاد زيالان.

وعلى الموقع الإلكتروني الذي أطلق أخيراً، يعرّف «كتّاب ضد الحرب على غزة" (WAWOG) أنفسهم بأنهم تحالف ملتزم بالتضامن وتحرير الشعب الفلسطيني، من خلال الجمع بين الكتّاب والمحررين وغيرهم من العاملين في مجال الثقافة انطلاقاً من الولايات المتحدة، وتوفير بنية تحتية مستمرة للتنظيم الثقافي استجابة للحرب، وأنه تم تصميم هذا المشروع على غرار منظمة «الكتّاب الأميركيين ضد الحرب في فيتنام» التي تأسست العام ١٩٦٥.

وجاء في البيان الذي وقع عليه أكثر من أربعة آلاف شخص، ونشره الموقع منذ أيام أن «الحرب التي تشنها إسرائيل على غزة هي محاولة لارتكاب إبادة جماعية ضد الشعب الفلسطيني. هذه الحرب لم تبدأ في ٧ تشرين الأول. ومع ذلك، في الأيام الماضية، قتل الجيش الإسرائيلي أكثر من ٦٥٠٠ فلسطيني، من بينهم أكثر من ٢٥٠٠ طفل، وأصاب أكثر من ١٧٠٠٠ آخرين. إن غزة هي أكبر سجن مفتوح في العالم: حيث إن سكانها البالغ عددهم مليوني نسمة - غالبيتهم من اللاجئين، وأحفاد أولئك الذين سرقت أراضيهم في العام ١٩٤٨ - محرومون من حقوق الإنسان الأساسية منذ الحصار في العام ٢٠٠٦".

وتابع الموقعون: «نحن نشاطر تأكيدات جماعات حقوق الإنسان، والعلماء، وقبل كل شيء، الفلسطينيين العاديين: إسرائيل هي دولة فصل عنصري، مصممة لتمييز المواطنين اليهود على حساب الفلسطينيين، بغض النظر عن العديد من اليهود، سواء في إسرائيل أو في الشتات، الذين يعارضون وجودهم. التجنيد الإجباري في مشروع قومي - قومي".

وأوضح البيان «نجتمع معاً ككتاب وصحافيين وأكاديميين وفنانين وغيرهم من العاملين في مجال الثقافة للتعبير عن تضامننا مع شعب فلسطين. إننا نقف مع نضاله المناهض للاستعمار من أجل الحرية وتقرير المصير، ومع حقه في مقاومة الاحتلال. إننا نقف بثبات إلى جانب شعب غزة، ضحية حرب الإبادة الجماعية الحكومية التي تواصل الولايات المتحدة تمويلها وتسليحها بالمساعدات العسكرية - وهي أزمة تفاقمت بسبب الاستيطان غير القانوني ومصادرة أراضي الضفة الغربية وإخضاع الفلسطينيين داخل دولة إسرائيل".

وأضاف: «نحن نقف في وجه إسكات المعارضة والدورات الإعلامية العنصرية والتحريفية، التي تديمها محاولات إسرائيل لمنع التقارير في غزة، حيث منعت الصحافيين من الدخول واستهدفتهم القوات الإسرائيلية. وقد قُتل حتى الآن ما لا يقل عن أربعة وعشرين صحافياً في غزة. على المستوى الدولي، واجه الكتاب والعاملون في مجال الثقافة مضايقات شديدة، وعقابًا في مكان العمل، وفقدان الوظائف بسبب تعبيرهم عن التضامن مع فلسطين، سواء من خلال ذكر حقائق حول الاحتلال الاسرائيلي المستمر، أو لتضخيم أصوات الآخرين. هذه هي الحالات التي تمثل اختراقات خطيرة ضد وسائل حماية الكلام المفترضة. يتم توجيه اتهامات خادعة بمعاداة السامية ضد منتقدي الصهيونية؛ كان القمع السياسي عدوانياً بشكل خاص ضد حرية التعبير للمسلمين والعرب والسود الذين يعيشون في الولايات المتحدة وفي جميع أنحاء العالم. وكما كان الحال في أعقاب هجمات ١١ سبتمبر/أيلول، فإن الحماسة السياسية المعادية للإسلام والانتشار الواسع النطاق للادعاءات التي لا أساس لها قد حفزت التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة لتقديم الدعم العسكري لشن حملة وحشية من العنف".

ويطرح البيان تساؤلاً أساسياً: ماذا يمكننا أن نفعل للتدخل ضد الهجوم الإسرائيلي المتطرف على الشعب الفلسطيني؟ وتأتي الإجابة «إن الكلمات وحدها لا تستطيع أن توقف الهجمة الضارية التي تدمر منازل الفلسطينيين وأرواحهم، ويدعمها دون خجل ودون تردد محور القوى الغربية بأكمله. وفي الوقت نفسه، يتعين علينا أن نأخذ في الاعتبار الدور الذي تلعبه الكلمات والصور في الحرب على غزة والدعم الشرس الذي ولّدته.

وختم الموقعون: «نعمل جنباً إلى جنب مع الكتاب والعلماء والفنانين الذين أعربوا عن تضامنهم مع القضية الفلسطينية، مستلهمين روح الصمود والمقاومة الفلسطينية. منذ عام ٢٠٠٤، دعت «الحملة الفلسطينية للمقاطعة الأكاديمية والثقافية لإسرائيل" (PACBI) المنظمات إلى الانضمام إلى مقاطعة المؤسسات التي تمثل

الدولة الإسرائيلية أو المؤسسات الثقافية المتواطئة مع نظام الفصل العنصري. وندعو جميع زملائنا العاملين في المؤسسات الثقافية إلى تأييد تلك المقاطعة. وندعو الكتاب والمحررين والصحافيين والعلماء والفنانين والموسيقيين والممثلين وكل من له عمل إبداعي وأكاديمي إلى التوقيع على هذا البيان. انضموا إلينا في بناء جبهة ثقافية جديدة لفلسطين حرة".

"معرض الجزائر للكتاب»: فلسطين من زوايا مختلفة

كان القائمون على "معرض الجزائر الدولي للكتاب" قد أعلنوا عن البرنامج الثقافي الخاصّ بدورته السادسة والعشرين، التي انطلقت الأربعاء الماضي في الجزائر العاصمة، وتتواصل حتى السبت المُقبل في الجزائر العاصمة، حين بدأ العدوان الإسرائيلي على غزّة في السابع من تشرين الأوّل/ أكتوبر الجاري. لكنّ ذلك لم يمنع من تخصيص عددٍ كبير من الفعاليات التي تُواكب الأحداث؛ من بينها قرابة خمس عشرة ندوةً وأمسية خاصّة بـ فلسطين.

في هذا السياق، احتضن «فضاء غزّة» في «قصر المعارض»، أمس السبت، أُمسية شعرية تضامنية مع غزّة؛ شارك فيها كلٌّ من الشعراء الجزائريّين: سليمان جوّادي وعبد المالك قرين وعمر برداوي وإبراهيم قارة علي وفوزية لارادي، إلى جانب قاسي السعدي وفاتن أمازيغ بالأمازيغية، ونادية سبخي بالفرنسية. وقبل ذلك، أُقيمت صباحاً، في الفضاء نفسه، ندوةٌ بعنوان «الرواية والقضيّة الفلسطينية» تحدّث فيها الكاتب الفلسطيني إبراهيم نصر الله، وأدارها الأكاديمي الجزائري مشري بن خليفة.

ويوم الخميس الماضي، أُقيمت ندوة حول «شعر المقاومة»، بمشاركة الأكاديميَّين علي ملّاح وعبد الحميد بورايو والباحث محند أرزقي فرّاد.

وتحت عنوان «تسريد المقاومة الفلسطينية في الرواية العربية»، قدّمت الأكاديميّتان آمنة بلعلى وانشراح سعدي، مساء اليوم، ندوةً تطرّقتا فيها إلى حضور فلسطين في النصوص الروائية العربية، بينما تُقام، عند الرابعة من مساء غدٍ الإثنين، ندوة بعنوان «الرواية الجزائرية والتغريبة الفلسطينية»، يتحدّث فيها كلّ من الكتّاب واسيني الأعرج ومحمد ساري وعز الدين جلاوجي وعبد المنعم بن السايح وبومدين بلكبير، عن حضور فلسطين في الأعمال الروائية الجزائرية.

وعند الرابعة من مساء الخميس المُقبل، تُقام ندوة بعنوان «الرواية العربية وسرد المأساة الفلسطينية»، يتحدّث فيها الكتّاب والأكاديميّون السعيد بوطاجين وفيصل الأحمر وقلّولي بن ساعد ولونيس بن علي. وتحت عنوان «الجزائر والقضية الفلسطينية»، يُقدّم الكاتب الجزائري امْحمّد بوعزارة محاضرةً، عند الرابعة من مساء الجمعة المُقبل، يتناول فيها مكانة القضية الفلسطينية تاريخياً في السياسة الرسمية والوجدان الشعبي الجزائريَّين.

«معرض لبنان الدولي للكتاب»: حِداد على شهداء غزّة

أعلنت اللجنة المُنظّمة لـ"معرض لبنان الدولي للكتاب" إغلاق أبوابه أمام الزوار، اليوم، وذلك استجابةً لإعلان رئيس حكومة تصريف الأعمال نجيب ميقاتي، الأربعاء «يوم حِداد وطني على الشهداء والضحايا الذين يسقطون نتيجة المجازر والاعتداءات التي يرتكبها العدوّ الصهيوني، وآخرها المجزرة التي استهدفت المدنيّين العزّل في المستشفى الأهلي المعمداني في غزة، وشكّلت وصمة عار في سجلّ الإنسانية".

وراح ضحية هذه المجزرة أكثر من ٥٠٠ شهيد والعديد من الجرحى، الذين كانوا يحتمون من القصف فيما اعتقدوا أنّه مكان آمن. ولا تتوفر أماكن في مستشفيات غزّة الأُخرى لاستقبال الجرحى بسبب اكتظاظها، بالإضافة إلى أنّها تقترب من الانهيار والخروج من الخدمة، بسبب نفاد مصادر الطاقة وإنهاك مواردها البشرية، الذين قتل عدد منهم بالقصف الإسرائيلي الذي استهدف في الأيام الأُولى الكوادر الطبّية وسيارات الإسعاف، قبل أن يبدأ بتحذير المستشفيات بضرورة إخلائها لأنها ستتعرض للقصف، وهو ما حدث أمس مع المستشفى المعمداني.

وأُلغيت العديد من الفعاليات الفنّية والثقافية العربية بعد العدوان الإسرائيلي على غزّة، الذي بدأ عقب عملية «طوفان الأقصى»، كما شهدت فعاليات دولية، أبرزها «معرض فرانكفورت للكتاب»، انسحابات عربية احتجاجاً على الانحياز الغربي للاحتلال الإسرائيلي.

يُذكَر أنّ «معرض لبنان الدولي للكتاب» بدأ فعالياته مساء الجمعة، الثالث عشر من تشرين الأوّل/ أكتوبر ٢٠٢٣ ، وعاود فتح أبوابها اعتباراً من الخميس واستمر حتى يوم الأحد ٢٢/اكتوبر.

وفي «متحف الفن الإسلامي» بالدوحة، تواصل حتى الحادي والثلاثين من كانون الثاني الماضي معرضٌ بعنوان «كتب فلسطين: رحلة عبر الزمن»، يضمّ مجموعةً نادرة من الكتب التي تستعرض أبرز معالِم تاريخ فلسطين وتراثها الثقافي.

والكتب المعروضة هي جزء من محتويات «غرفة الكتب النادرة» في المتحف، والتي تضمّ مجموعة كبيرة من الكتب النادرة التي ألّفها رحّالة أوروبيون ويعود تاريخ تأليفها إلى الفترة بين ١٦١٥ و١٩٣٠، وتناولوا فيها جمال الهندسة المعمارية والطبيعة والثقافة والعادات في فلسطين.

من بين الكتب التي يتضمّنها المعرض: «تاريخ القدس في عهد المسلمين: من ٦٥٠م إلى ١٥٠٠» لـ غي لو سترينغ، والرملة: مدينة فلسطين الإسلامية ٧١٥ - ١٩١٧: دراسات في التاريخ والآثار والعمارة» لـ أندرو بيترسن، و»الفنّ الإسلامي والآثار في فلسطين» لـ ميريام روزن أيالون، و»أوراق فلسطين: نهاية الطريق؟» لـ كلايتون إ. سويشر، و»حمّامات فلسطين الإسلامية» لـ مارتن داو، و»أسفار أوليا شلبي في فلسطين ١٦٤٨ - ١٦٥٠ لـ أوليا شلبي، و»فلسطين عبد الحميد: صور فوتوغرافية نادرة عمرها قرن من الزمان من المجموعة الخاصة للسلطان العثماني تُنشر الآن للمرّة الأُولى» لـ جاكوب م. لانداو.

وعُرضت أيضاً كتب: «فنون الشرق الأوسط، وتشمل بلاد فارس وما بين النهرين وفلسطين» لـ ليونارد وولي، و«العمارة المحمَّدية في مصر وفلسطين» لـ مارتن س بريغز، و«موطن من روعة لا تتلاشى: أو فلسطين اليوم» لـ جورج نابير ويتنغهام، و«رسائل من فلسطين من الكابتن إيه سي هاملتون، المهندسون الملكيون، إلى والدته» لـ إيه سي هاملتون، و«غزل العروق: عين جديدة على التطريز الفلسطيني» من تأليف «المتحف الفلسطيني» في سويسرا، و«طنجور! طنجور! طنجور! حكاية شعبية فلسطينية» لـ مارغريت ريد ماكدونالد، و«الزيّ الفلسطيني» لـ شيلاغ وير، و«دراسات عن العالم الفلسطيني القديم «لـ فريدريك فيكتور، و«الموسيقى الشعبية الفلسطينية» لـ باتريك لاما.

ومن الكتب المعروضة أيضاً: «فلسطين الخلّابة وسيناء ومصر» لـ تشارلز ويليام ويلسون، والذي يعود إلى أوائل ثمانينات القرن التاسع، وقد جرت رقمنته وإتاحته عبر الإنترنت.

كما حضرت في المعرض كتب لمؤلّفين عرب؛ وهي: «الفن الفلسطيني ١٨٥٠ - ٢٠٠٥» لـ كمال بُلّاطه، و«التطريز الفلسطيني: غرزة الفلاحي التقليدية» لوداد قعوار، و«فن التطريز الفلسطيني» لليلى الخالدي، و«الزي الفلسطيني» لجيهان س. رجب، و«التراث الثقافي الفلسطيني» لماهر شريف.

وبحسب القائمين على المعرض، فإنّه «بمثابة تعبير بسيط عن دعمنا لأهلنا في فلسطين، وكمساحة مفتوحة تتيح للجمهور فرصة إلقاء نظرة على تاريخ فلسطين وجمالها»؛ حيث يمكن للزوّار قراءة الكتب وكتابة ملاحظاتهم لتعليقها على شجرةٍ تحمل اسم «ادعم فلسطين".

استضاف «معهد ثربانتس» في العاصمة الإسبانية مدريد، قبل أيام، بالتعاون مع سفارة فلسطين، «يوم الثقافة الفلسطينية"، والذي يصادف ذكرى ميلاد الشاعر الفلسطيني محمود درويش (١٩٤١ - ٢٠٠٨). وبالرغم من عدم وجود أي كاتب فلسطيني يمثّل الثقافة الفلسطينية في يومها، إلا أنَّ مدير «معهد ثربانتس» الشاعر الغرناطي البارز لويس غارسيا مونتيرو (١٩٥٨)، أنقذ الموقف عندما استحضر الشعرية الفلسطينية ملقيا الضوء على تجربة محمود درويش، وكما جاء على لسانه في الكلمة الافتتاحية التي ألقاها، محمود درويش «زميلي الأبدي، الذي كان التزامه بأرضه، فلسطين، التزاماً بالإنسانية»، ولكننا جميعاً نشهد «ما تتعرض له فلسطين من انتهاكات لحقوق الإنسان منذ أشهر عدة»، في إشارة إلى الإبادة الجماعية التي يقوم بها الكيان الصهيوني في غزّة منذ ١٦٠ يوماً.

واستطرد مونتيرو متحدّثاً عن أهمية الثقافة الإنسانية التي تتجاوز الحدود في عالمٍ لا يتوقف على التعولُم، وعن ضرورة التواصل الثقافي الإنساني، فيما وراء الأسياج والأيديولوجيات، حيث قال إنّه ما كان «سابقاً يعدُّ من تحت الطاولة، أو بطريقة سرّيةٍ، كما أُعدّ الانقلاب العسكري في تشيلي على الرئيس أللليندي، أو كما حدث في حرب فيتنام، فإننا اليوم نشهده، نشهد الإبادةَ منقولةً على شاشات هواتفنا المحمولة. لذلك أطالب، باسم الثقافة الإنسانية، بالعدالة وحقوق الإنسان، في فلسطين. فالكلمات تحمل أشياء كثيرة. يمكن استخدامها للكذب، ولكن أيضاً يمكن استخدامها لنشر الحبّ".

مثقّفو إقليم الباسك.. كلّنا مع فلسطين

منذ بداية العدوان الإسرائيلي على غزّة، قبل خمسة أشهر، وإقليم الباسك في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية، بقطاعاته الشعبية والثقافية، يعبّر عن تضامنه مع الشعب الفلسطيني ضدَّ الإبادة الصهيونية، وقد تُرجم هذا التضامن عبر العديد من المظاهرات التي طالبت بوقف العدوان، وإنهاء الاحتلال الصهيوني، إضافة إلى العديد من الفعاليات الثقافية التي عرّفت سكّان الباسك على القضيّة الفلسطينية، وعلى الجرائم التي يرتكبها نظام الفصل العنصري الصهيوني.

في هذا الإطار، دعت مجموعة من المثقّفين والأكاديميّين والكُتّاب في الإقليم المجتمعَ الباسكي «لرفع صوته بأكمله والتضامن مع الشعب الفلسطيني»، وذلك عبر مظاهرة كبرى تنطلق يوم السابع عشر من آذار/ مارس الجاري في مدينة سان سيباستيان، وتأتي هذه الدعوة ضمن حملة بعنوان «أوقفوا الإبادة".

وقد ضمّت المجموعة شخصيات ثقافية بارزة في إسبانيا، مثل المسرحيَّين غوركا أوتوكسا، وخوان مايا، إضافة إلى الفنّان آليسك أبواغو، والصحافي إنياكي غابيلوندو، والكاتبَين توتي مارتينيز وبريناردوا أتكساغا، إضافة إلى العديد غيرهم، حيث اجتمعوا يوم السبت الماضي في مؤتمر صحافي وأطلقوا بياناً تضامنيّاً مع الشعب الفلسطيني، ندّدوا فيه باستمرار الجرائم الصهيونية بحقّ الشعب الفلسطيني.

وممّا جاء في البيان التضامني: «إنَّ الحقيقة البسيطة المتمثّلة في السماح للوقت بالمضيّ دون القيام بأي شيء لمواجهة الإبادة الجماعية والفصل العنصري المُنهج يحتّم علينا أن نطلب من حُكّامنا ومن السياسيّين أن يوقفوا جميع العلاقات التجارية والعسكرية الدبلوماسية مع ‹إسرائيل›".

وتابع البيان: «ومن أجل مواجهة المذبحة، نطلب من الاتحاد الأوروبي اتّخاذ إجراءات قويّة لإجبار المُعتدي على وضع حدٍّ لهجومه الوحشي: وقف نهائي لإطلاق النار، وإنهاء الاحتلال، وإنهاء العنف ضدّ المدنيّين، رجالاً ونساءً وأطفالاً وأبرياء".

وختم البيان الذي ألقاه المثقّفون بصوت واحد: «إنَّ ما ترتكبه ‹إسرائيل› يتسبّب في خسارة الإنسانية وتطبيع الإرهاب. لا نريد أن نعتاد على كيان عنصري وإجرامي يقتل مئات الأبرياء كلَّ يوم".

مثقفون أوروبيون.. فلسطين وأزمة الأخلاق في الغرب

مع دخول العدوان الصهيوني الإبادي على غزّة شهرَه الخامس، تتواصل الفعاليات الثقافية والفنية المؤيدة للحقّ الفلسطيني في مدن أوروبية عديدة، حيث أعلنت «كلّية الدراسات الشرقية والأفريقية» (سواس) في لندن عن تنظيم يوم دراسي تحت عنوان «ثورة! الإمبريالية والأزمة السياسية".

تنطلق أعمال الفعالية عند الثانية عشرة من ظهر الأحد، الثامن عشر من الشهر الجاري، حيث يضيء المشاركون «ما خلقه الهجوم الإسرائيلي من أزمة عالمية، فمع خروج الملايين إلى الشوارع هنا وفي جميع أنحاء العالم،

أصبحت إسرائيل ومؤيّدوها في الغرب معزولين أكثر فأكثر»، بحسب بيان المنظّمين.

كما أوضح البيان إلى أنه مع استمرار العدوان فإن خطر نشوب حرب أوسع يتزايد يوماً بعد يوم، مؤكّداً أن دعم النُّخب الغربية لـ»إسرائيل» تسبّب في حالة من الاضطراب، حيث تحدّت الاحتجاجات الحاشدة محاولة الحظر، وأدّت إلى إقالة وزيرة الداخلية البريطاني، وأدّت إلى أزمة داخل «حزب العمّال".

يناقش اليوم الدراسي أسباب وعواقب هذه الأزمة وكيف يمكننا تعزيز المقاومة لسياسات الغرب الداعمة للكيان، بمشاركة الباحثين والأكاديميين والناشطين السياسيين؛ البريطاني الباكستاني طارق علي، والبريطانية الفلسطينية ليان محمد، والجنوب الأفريقي أندرو فينشتاين، والبريطانيَّين ليندسي جيرمان، وهولي ريجبي، وبارنابي رين، وجون ريس.

من جهة أخرى، تُقام في فضاء «يلوو» بلندن ورشة فنية بعنوان «الاحتفال بفلسطين» تنقسم إلى حلقتين؛ الأولى بعنوان «فنّ الوسائط المتعدّدة» حيث يقوم المشاركون بعمل تصميمات رموز من الثقافة والتاريخ الفلسطينيَّين، والثانية بعنوان «الحقائب والأعلام» وفيها يطبع المشاركون صورة أو شعار يمثّلان فلسطين.

وبهدف الكشف عن مدى التسليح الفرنسي لحرب الإبادة في غزّة والعمل على إيقافه، تُنظّم مجموعة «أوقفوا تسليح إسرائيل» في فرنسا، لقاءً يجمع صانع الأفلام الفرنسي ماثيو ريغوست مع الباحث باتريس بوفيريه والمُصوِّرة آن باك (سبق لها أن وثّقت تورّط شركات فرنسية في عدوانات إسرائيلية على غزّة)، عند السابعة من مساء الاثنين المُقبل في «مجلس العمل» بباريس. وتنعقد عند السابعة من مساء الخامس عشر من الشهر الجاري، في «معهد التقنيات» بمانشستر البريطانية، جلسة نقاش بعنوان «أوقفوا قصف غزّة، أوقفوا قصف اليمن» يُشارك فيها ناشطون ومتضامنون أُمميون، هم: أندرو فينشتاين، ولويس ريغان، وأليكس سنودن، وغسان غبن.

من جهة أخرى، دعا ناشطون مؤيّدون للحقّ الفلسطيني للاحتجاج ضد الشركة الدنماركية لتصنيع الأسلحة «تيرما»، أمام مكتبها في مدينة لايدن الهولندية، عند الثالثة والنصف من مساء بعد غدٍ الأربعاء، تحت شعار «أوقفوا تسليح إسرائيل، أوقفوا الإبادة الجماعية".

وأشار الناشطون في بيانهم إلى أنّ الشركة تزوّد «إسرائيل» بقطع لطائرات حربية من طراز «إف ١٦» و»إف ٣٥» وهي تقصف بها غزّة منذ أربعة أشهر، وبالتالي فـإنّ "تيرما" متواطئة في الإبادة الجماعية»، كما دعا البيان العاملين في الشركة إلى «إيقاف الإنتاج وتحويله إلى إنتاج يُفيد الإنسان والبيئة بدلاً من تدميرهما». كما تشهد، مساء بعد غدٍ، ثلاث مدن ألمانية: برلين وميونخ وكيل، مظاهرات مُندّدة بالتسليح الألماني للإبادة، دعت إليها «حركة الكفاح من أجل فلسطين»، تحت شعار «نرى جرائم حكومتنا ونتّخذ الإجراءات اللازمة".

إشبيلية.. ألف صوت من أجل فلسطين

مع دخول العدوان الإسرائيلي على غزّة يومه الـ١١٧، لا تزال المبادرات الثقافية الداعمة للشعب الفلسطيني الذي يواجه حرب إبادة جماعية، قائمةً في العديد من المدن الإسبانية. وربما كانت مدينة إشبيلية واحدة من أبرز هذه المدن الإسبانية التي انتفضت تضامناً مع الشعب الفلسطيني، حيث خرجت فيها العديد من المظاهرات التي تندد بالاحتلال.

كذلك قامت العديد من الجمعيات والمؤسّسات الثقافية والمنتديات الإشبيليّة بتنظيم فعاليات تضامنية مع الشعب الفلسطيني، إضافة إلى العديد من المحاضرات والندوات التي عرّفت الجمهور الإسباني بحقيقة ما يجري على الأرض الفلسطينية، وحقيقة نضال الإنسان الفلسطيني ضد الاستيطان والاستعمار.

"ألف صوت من أجل فلسطين» عنوان الفعالية الثقافية التي ينظّمها «منتدى الأندلس من أجل السلام» في إشبيلية، عند الثانية عشرة من منتصف يوم الرابع من شباط/ فبراير. تتناول الفعالية قراءات متنوّعة لنصوص سيقرأها ألف مشارك، موضوعها الرئيس دعم الشعب الفلسطيني ومقاومته في غزّة.

وستتمّ قراءة هذه النصوص على هامش التظاهرة الشعبية التي دعا إليها المنتدى في اليوم نفسه، وسيشارك في الفعالية والقراءة شخصيات ثقافية بارزة، سواء عبر إلقاء نصوص عفوية كتبوها بأنفسهم، أو عبر قصائد ونصوص كتبها شعراء وكتّاب إسبان عُرفوا بمقاومتهم لكافة مظاهر الطغيان من أمثال لوركا، وميغيل هيرنانديز، وميغيل دي أنامونو، ورافائيل ألبريتي والكثير غيرهم.

إضافة إلى التضامن مع الشعب الفلسطيني، تعدُّ هذه الفعالية، كما صرح منظّموها، بمثابة فرصة لإعطاء صوت للمجتمع المدني في إدانة ورفض الأحداث التي تجري، وهو أمر لم يتوقف الشعب الإسباني عنه منذ بدء العدوان والرعب والهمجية التي تشهدها غزّة، في ظل صمت وتواطؤ بعض البلدان الغربية.

حرب الآثار والتاريخ ... أكتوبر ٢٠٢٣

أ.حسام أبو النصر*

لم تكن الهجمة على الآثار والتاريخ الفلسطيني مقتصرة على عدوان أكتوبر ٢٠٢٣، بل منذ بداية الاحتلال أخذت إسرائيل على عاتقها تدمير وسرقة وإخفاء كافة الآثار والمعالم التي تدل على عراقة الحضارة الكنعانية والتجذر العربي على أرض فلسطين ونستطيع القول أن عملية سرقة ونهب الآثار زادت بعد عام ١٩٦٧م وهزيمة العرب واحتلال الأراضي العربية وتجلى ذلك بعمليات التنقيب غير الشرعية والتي قامت بها السلطات الإسرائيلية في القدس بالاستعانة بباحثي اثار يهود بذريعة البحث عن هيكل سليمان المزعوم، إلا أن الموضوع لم يقف عند هذا الحد فقام موشي ديان وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك بالإشراف شخصياً على عمليات النهب فيما عرف بسرقة كبرى في موقع تل العجول « النصيرات « وهو موقع الملكة هيلانة الحالي وتم سرقة كافة الآثار المكتشفة منها آثار كنعانية ومجسمات وأواني فخارية ضخمة، كما سرق أيضاً من منطقة أبو سليم في دير البلح، فيما عرف بالآثار الفرعونية الكنعانية وتماثيل لملوك وآثار دلت على عمق العلاقة بين الحضارة الكنعانية والفرعونية آنذاك وقد اشتهرت في الأسرة الثانية عشرة من خلال رسائل تل العمارنة التي اكتشفت في مصر وذكرت ١١٩ مدينة كنعانية والملوك الكنعانيين وعلاقتهم بالفراعنة، فيما ذكرت القدس عدة مرات فيها باسم اورسالم، وهنا اقسم وضع الآثار الفلسطينية الى مرحلتين مهمتين في الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين المرحلة الأولى مرحلة الحفر والتنقيب والسرقة والنهب بدأت منذ عام ١٩٦٧ بشكل علني فقد نشرت صحيفة يديعوت احرنوت في ١٩٨٦/٤/٢٧ ان سلطات الاثار اكتشفت الكثير من القبور في منطقتي نابلس والقدس الشرقية وهي غنية بالمواقع الاثرية، فيما نقلت الصحف الاسرائيلية عن ضابط اثار انه تمت مصادرة قطع اثرية في نابلس، والمرحلة الثانية مرحلة التدمير وطمس ما تبقى من آثار فلسطين بدأت بشكل علني بعد اندلاع انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠ وهذا لا يعني انه لم تحدث خلال هاتين الفترتين عمليات تدمير ولكن بشكل غير معلن .

في المرحلة الأولى استطاعت إسرائيل ان تسرق الكثير من الآثار الفلسطينية الهامة والمخطوطات في غزة والضفة

* باحث ومؤرخ من فلسطين.

الغربية وحولت جزءاً كبيراً منها إلى المتاحف الإسرائيلية من أهمها آثار غزة ومخطوطات البحر الميت ومواقع أخرى في الضفة الغربية وقد قام باحثون فرنسيون خلال الأعوام السابقة بتسليط الضوء على المتحف الإسرائيلي في تل أبيب والذي يعرض هذه الآثار ، اما المرحلة الثانية بعد ان بدأت إسرائيل بقصف وتدمير كافة المنشات الفلسطينية فكان واضحاً أن من أهدافها تدمير الآثار الفلسطينية وكان آخرها تدمير مسجد النصر الأثري والذي يعود بناؤه لعام ٦٣٧هـ كما دمرت مركز شرطة بلدية غزة الذي بني في ثلاثينات القرن الماضي، كما استولت على عدة مواقع اثرية منها قبة راحيل ومسجد بلال بن رباح فيما ظلت أعمال التنقيب في القدس وما حولها حتى اليوم حيث اكتشفت عام» ٢٠٠٩ « قطعاً ذهبية نقدية يعود تاريخها لنهاية العصر البيزنطي عام ٦١٠ م ـ ٦١٤ م تحمل صور القيصر هيراكليوس وقامت إسرائيل بمصادرتها، وشهد نيسان ٢٠٠٢ على اكبر عملية تدمير واعتداء على اثار فلسطين شملت اقتحام البلدة القديمة في نابلس وحي الياسمين الاثري وجامع الخضرا المملوكي ومصبنتي كنعان والنابلسي الاثريات ودير الروم الارثوذكس (١٨٨١) فيما تم اقتحام بلدة بيت لحم وأحدثت دبابات الاحتلال دماراً هائلاً في الازقة القديمة واعتدت على كنيسة المهد واحرقت غرفة سكن الرهبان اثناء ما عرف بحصار كنيسة المهد لمناضلين ومدنيين لجأوا الى الكنيسة احتماءً من غدر الاحتلال، وفي عام ٢٠٠٥ قامت جرافات الاحتلال بهدم السور الخارجي للكنيسة البيزنطية في غزة التي بنيت عام ٤٤٤ م فيما قامت الدبابات عام ٢٠٠٧ و ٢٠٠٩ بهدم أربعة وأربعين قبراً انجليزياً وكندياً خلال اقتحام مقبرة الانجليز التي بينت عام ١٩١٤، واستمرت الاعتداءات حتى يومنا هذا بعد أكتوبر ٢٠٢٣.

***اليونسكو والقرارات الدولية بشأن الآثار الفلسطينية:**

ورغم قرار اليونسكو بعضوية فلسطين الكاملة حقوق وواجبات، وهو أنه نتاج طبيعي لحالة السخط الدولي من السياسات الاميركية والاسرائيلية في المنطقة، وان القرار يحمل دلالات ثقافية اكثر منها سياسية لانه ينسجم مع القرارات السابقة التي اتخذت منها اتفاقية لاهاي عام ١٩٥٤ الواضحة في نصوصها بضرورة حماية الممتلكات الثقافية خاصة في النزاعات المسلحة مما ينطبق على فلسطين، كما جاءت توصيات مؤتمر نيودلهي عام ١٩٦٥ بمنع الحفريات في الأراضي المحتلة بالإشارة إلى حفريات القدس، وأيضا عام ١٩٨٠م حين أدان مؤتمر اليونسكو عدم التزام إسرائيل بقرارات المنظمة الدولية بشأن القدس، وفي عام ١٩٨٥ تم طلب توجيه الدعم للأوقاف الإسلامية في فلسطين، وفي عام ١٩٨٧ طالبت المنظمة إسرائيل بالوقف الفوري والكامل لأعمال الحفريات، ولكن بقيت القرارات طي الأدراج باعتبار انه لا يوجد أصلا دولة اسمها فلسطين من منظورهم ، حتى لو تم اعتبارها أراضٍ محتلة مع ذكر أنها للفلسطينيين، رغم اعتراف الأمم المتحدة بحدود حزيران عام ١٩٦٧ كأراضٍ محتلة من قبل إسرائيل مما يعني أن كل ما يخضع داخل هذه الحدود هو ملك الفلسطينيين وحماية الإرث الإنساني فيها واجب دولي لحين الاستقلال وحق تقرير المصير.

في حين قرار اليونسكو بخصوص القدس عاصمة لإسرائيل في ٢٠١١م، وهذا مانفته لاحقاً، المتناقض مع

القرارات الدولية الصادرة عنها سابقا، ومنها قرار عام ١٩٧١ الذي أقر في دورته رقم ١٧ لاتفاقية حماية التراث العالمي اعتبار القدس ضمن قائمة التراث العالمي المهدد بالخطر وذلك لما تتعرض له من عمليات طمس وتغيير المعالم باعتبار القدس خاصة وفلسطين عامة آثارها ضمن الإرث الإنساني المهدد بالاندثار وضرورة الحفاظ عليه وإلقاء مسؤولية ذلك على إسرائيل كجهة محتلة للأرض، فجاءت عضوية اليونسكو كأبسط رد اعتبار وتوضيح موقف بعد استنكار عربي وفلسطيني ودولي والاستغراب من القرار وظروفه وخطورته على تهويد الآثار والمقدسات الإسلامية والمسيحية في المدينة المقدسة.

وقد طالب أعضاء الكنيست بضم عدد من المواقع الأثرية اخرى في جبل الخليل بالمدينة القديمة ومغارات «قمران» في البحر الميت، وجبل عيبال في شمال مدينة نابلس، وجبل جرزيم جنوب مدينة نابلس، وموقع القطار في قرية سبَسطية وقبر يوسف كما هو الحال في بئر يعقوب في نفس المدينة والذي شهد أول اعتداء عام ١٩٧٩ فالمحاولات مستمرة لإخضاع هذه المواقع الأثرية المقدسة لتكون ضمن محاولات تزوير التاريخ وهذا ما ينفيه على الأقل قرار اليوم الاعتراف بفلسطين في اليونسكو لان كل ما سبق يقع في حدود حزيران.

آثار غزة في حرب أكتوبر ٢٠٢٣:

ما إن دخلت الهدنة الوحيدة ساعاتها الأولى خلال الحرب، حتى بدأ مَن يستطيع الوصول إلى منطقته، فى تفقُّد ما تبقى من بقايا المنازل، وبقايا الذكريات، وبقايا جثث الشهداء الملقاة على الأزقة وتحت الركام، ليتكشف لنا الجانب الآخر من العدوان والذى أظهر استهداف التاريخ والهوية وليس الإنسان فقط.

منها الجامع العمرى فى جباليا، وقد تمّ بناؤه على الطراز المملوكيّ، ويرجح المؤرّخون تأسيسه في عام ١٥ هـ وتمّ تدميره تدميرًا كلّيًا في ١٩ تشرين الأوّل/ أكتوبر الماضي. وجامع الشيخ سليم أبو مسلم في بيت لاهيا، وفيها مقامه (بُني منذ ٦٠٠ عام)، ودُمّر كلّيًا، إلى جانب جامع الشيخ سعد في بيت لاهيا أيضًا، وعمره أكثر من خمسمائة عام، ودُمّر جزئيًا. كما تعرّض جامع كاتب الولاية إلى تدمير جزئيّ، في ١٧ تشرين الأوّل/ أكتوبر الماضي.

فى حين تم استهداف المستشفى المعمدانى، فيما لم تسلم أهم مكتبات غزة من هذا العدوان الذى يذكّرنا بزمن المغول والتتار، فأحرقت قوات الاحتلال الاسرائيلي مكتبة جامعة الأزهر، ومكتبة الجامعة الإسلامية، ودمّرت جزءاً من مكتبة مركز التخطيط التى تأسست ١٩٦٥م، ومكتبة العباس التى تضم كتباً حجرية وبعض المخطوطات التاريخية، ومكتبة بيت القدس للدراسات والبحوث الفلسطينية، فيما شمل القصف المسجد العُمري الكبير وسط مدينة غزّة، ودمّر مئذنته التي يعود تاريخ بنائها إلى ١٤٠٠ عام، علمًا أنّه المسجد الأكبر والأقدم في قطاع غزّة، بمساحة تبلغ نحو ٤١٠٠ متر مربع فيما كانت تبلغ مساحة البناء ١٨٠٠ متر مربع، واحدث دمار كبير داخل المسجد، فى مشهد يحيلنا إلى العصور الوسطى، لتُدفن الكتب مع الشهداء، وترثى الكلمات الكلمات، وسط صمت عالمي على كل هذه الجرائم التى لم تشفع ولم توقف سقوط أكثر من اثنين وثلاثين ألف شهيد.

فكيف للقوانين الدولية أن تمنع أيضاً وقف تدمير كل ما يشكل دليلاً على الوجود الحضاري والإنساني لشعب فلسطين الكنعاني، الذى أثبت تجذُّره على مر العصور، الذى تعرض أيضاً للعدوان بعد حرب أكتوبر، والنتيجة أن إسرائيل استباحت كل ما هو فلسطيني فى غزة، ولم تحترم اتفاقيات جنيف الدولية، حتى القصف طال مؤرخين وعاملين في مجال التاريخ منهم المؤرخ د.جهاد المصري، وعائد أبوجياب ورمزي حمودة ممن يعملون فى مجال الأبحاث التاريخية، فى بيت القدس للدراسات والبحوث الفلسطينية، ومروان ترزي وهو مؤرشف فوتوغرافي لتاريخ فلسطين وخاصة غزة، والمؤرخ د. ناصر اليافاوي عضو اتحاد المؤرخين العرب، بل واستشهد الشعراء والأدباء والكُتاب والفنانون.

ودمّر جيش الاحتلال أيضًا موقع البلاخية الأثريّ، وميناء غزّة القديم (ميناء الأنثيدون الأثريّ) في شمال غربي مدينة غزّة، والذي يعود بناؤه إلى ٨٠٠ عام قبل الميلاد، وكان يعتبر من أهم المعالم الأثريّة في القطاع، وهو مدرج على اللائحة التمهيديّة للتراث العالميّ ولائحة التراث الإسلاميّ، وتل رفح وهو موقع أثريّ يعود إلى الفترتين اليونانيّة والرومانيّة، ويعرف محلّيًا باسم تل زعرب نسبة إلى عائلة زعرب، التي تقطن تلك المنطقة جنوب غربيّ مدينة رفح، وتبلع مساحته ١٦٠ دونمًا، وتعاقبت عليه العديد من الحضارات، أقدمها الحضارة اليونانيّة (٣٣٠ عامًا ق. م)وهما من أقدم المواقع الأثرية، وموقع تل أم عامر (دير القديس هيلاريون)، الذي يعود بناؤه إلى أكثر من ١٦٠٠عام، والكنيسة البيزنطية بجباليا التي تأسست ٤٤٤م، كنيسة اصلان في جباليا، وعلى مر العصور تعرضت غزة للتدمير والغزو، ولكن لم تشهد أبداً من قبل حجم هذا الدمار الذى يعادل أكثر من قنبلة ذرية، هدم أكثر من ٦٥٪ من مباني القطاع بين كلي وجزئي، كل ذلك يؤكد محاولات الاحتلال مسح غزة عن الخارطة، كما تمنوا يوماً أن يبتلعها البحر، لكن ظلت عصيةً عليهم، لتكتب دماء الشهداء من جديد تاريخ فلسطين الذي حاولوا طمسه لصالح الرواية الإسرائيلية واستكمالاً للاستعمار الذى يشمل تهويد التاريخ والثقافة والإرث الفلسطيني.

إلى جانب مواقع أثرية أخرى تضررت بشكل غير مباشر بأضرار جزئية وما زالت مهددة؛ منها مقبرة الإنجليز ١٩٠٤م، مبنى بلدية غزة ١٨٩٣م، حمام السمرة يعود تاريخه إلى عام ١٣٢٠م على الأقلّ يقع في حيّ الزيتون والذي أقيم في مبنى مملوكيّ أُسّس قبل ثمانية قرون.

وقصر الباشا يعود تاريخه إلى العصر المملوكي وتحديداً عام ١٢٦٠م، وتحوّل إلى متحف يحتوي على العشرات من القطع الأثريّة النادرة، وقد مسح بالكامل وبقيت واجهة صغيرة تدل على المكان، والمدرسة الكمالية، التي تعود لعام ١٢٣٧م، في الفترة الأيوبية والمملوكية وتقع في حي الزيتون.

ومسجد السيد هاشم ويضم قبر جد الرسول هاشم بن عبد مناف، وبني فى العهد المملوكي، وجامع علي ابن مروان (١٣٧١م)، ومواقع أخرى لا تزال مهددة، وكذلك قلعة برقوق، خان الأمير يونس، بناها الأمير فى عام ١٣٨٧ وسط خان يونس، تعرضت لتشققات وتصدعات خطيرة إثر قصف مبنى بلدية خان يونس

التاريخى الذى يعود تاريخه إلى عام ١٩١٧م، وأيضا سبيل السلطان عبد الحميد (١٥٨٦م) دمر بالكامل، ومأذنة مسجد المحكمة البرديكية (١٤٥٥م) حيث دمر المسجد في عام ٢٠١٤، وجامع الظفر دمر (١٣٦١م)، وجامع الشيخ علي المنطار(٧٢٨هـ) ويقع على تلة المنطار، ومسجد الست رقية العثماني ويقع في الشجاعية، والمدرسة الشافعية العثمانية في الشجاعية، وجامع ابن عثمان المملوكي، ومسجد المغربي المملوكي القائم في حي الدرج،ومسجد عثمان قشقار الذي بني ١٢٢٣م، ويقع في حي الزيتون، ومسجد الشيخ زكريا التدمري الذي بني عام١٣٤٨م، في حي الدرج، وجامع العجمي الصيحاني الذي بني في القرن ١٤ م، والزاوية الاحمدية في حي الدرج التي بنيت في نفس الفترة، وقد كشف تقرير أنه تعرض نحو ٢٠٠موقعاً أثرياً من أصل ٣٥٠ موقعاً للتدمير، بينها ما تعرض لتدمير كلى وبينها ما هو جزئي، كما تم استهداف مقر شرطة البلدية التاريخي في شارع عمر المختار وهو ليس الاستهداف الأول، بل استهدف في يناير ٢٠٠٩م.

***مقامات غزة:**

كما استهدفت عدة مقامات منها مقام النبي يوسف في بيت لاهيا وهو عثماني، ومقام الشيخ شمس الدين أبو العزم وهو مملوكي بني في ١٥٠٢م، يقع في حي الدرج، وهدمه نابليون سابقا في ١٧٩٩م وجدد في القرن الـ ١٩ وادعي فيما بعد ان فيه قبر شمشون الجبار، ومقام ابن مروان الواقع في حي التفاح بني ٧١٥هـ ومقام الشيخ عبد القادر الغصين في حي الدرج، ومقام قبة وضريح الشيخ محمد المشيش الملاصق لجامع العمري جباليا، ويعود للعهدالمملوكي، وتم الاعتداء عليه سابقا في عامي ٢٠٠٨ و ٢٠١٤ حتى دمر بالكامل في عدوان أكتوبر، ومقام الخضر الذي كان بيزنطيا ثم إسلاميا ويقع في دير البلح، ومقام خليل الرحمن في عبسان وهو عثماني، واستهدف ٢٠١٤.

***متاحف غزة:**

أما المتاحف فقد تم تدمير متحف العقاد والذى تم تأسيسه قبل ٤٥ عاماً على يد صاحبه وليد العقاد فى خان يونس وضم حتى الآن أكثر من ٣٢٠٠ قطعة أثرية، وخلال عدوان أكتوبر تعرض المتحف لأضرار جسيمة خلال استهدافات غير مباشرة، فى محيطه أدت إلى تدمير خزانة أثرية كاملة تضم عشرات القطع تعود للعصر اليوناني والروماني والبيزنطي وأضرار جسيمة جراء الاستهدافات، كذلك متحف التراث الفلسطيني الذي أسسه مروان شهوان منذ أكثر من ٣٠ عاماً فى مدينة خان يونس، ويضم أكثر من ١٠٠٠٠ قطعة أثرية وتاريخية متفاوتة العصور وأغلبها ذو طابع تراثي، وبسبب القصف المستمر على منطقة خان يونس تعرض لأضرار عديدة جاءت على بعض محتوياته وتصدعات فى المتحف.

أما متحف خان يونس، والذي أنشئ حديثاً لتوضع فيه المكتشفات الأثرية التى يتم الكشف عنها خلال عمليات التنقيب، فقد تم تدمير أجزاء منه خلال غارات عنيفة على خان يونس ما أدى إلى تهشم عشرات القطع الأثرية منها فخارية فيما جزء منها غير قابل للترميم.

كذلك متحف الخضري أيضاً، والذي أسسه رجل الأعمال جودت الخضري، حيث عمل على جمع الآثار

وحفظها منذ ٤٥ عاماً، حتى قرر بناء هذا المتحف المطل على البحر ويضم آلاف القطع الأثرية الفريدة، منها ما يعود إلى العصرين الكنعاني والفرعوني، وقد تعرض المتحف لأضرار جسيمة منذ اندلاع الحرب، وجراء قصف مسجد الخالدي الذي يقابله شمال غزة.

***مخطوطات غزة القديمة :**

الى جانب الاثار تعرضت المخطوطات التاريخية والكتب الحجرية الى دمار كبير خلال استهداف دائرة الآثار والمخطوطات التابعة لوزارة الأوقاف، عبر قصف مباشر دمر مكتبة العباس التي تضم اهم الكتب التاريخية الحجرية والتي طبعت في مطابع الحجر، وهي أول مطابع في التاريخ، وكانت تضم عدداً بسيطاً من المخطوطات بعد ان نقلت الى مكتبة العمري، ولكن حتى مكتبة العمري لم تسلم من العدوان حيث تم قصف المسجد العمري الكبير في غزة القديمة والذي يضم المكتبة (مكتبة الظاهر بيبرس) التي تحتوي على أغلب المخطوطات التاريخية والتي احتوت على ذخائر ونفائس التراث، حيث احتوت على ١٨٧ مخطوطة ما بين مصنف كبير ورسالة صغيرة، ويعود تاريخ نسخ أقدم مخطوط فيها إلى سنة ٩٢٠هـ (بين سنتي ١٥١٤م و١٥١٥م)، وكان يوجد في المكتبة عشرون ألف مجلّد في مختلف العلوم والفنون، منها إتحاف الأعزة في تاريخ غزّة» للطباع، وبحسب مؤرّخين، تعرّضت للسرقة والنهب والعبث، حيث ظلّت عامرة حتى مجيء الحملة الفرنسيّة على مصر وبلاد الشام؛ عام ١٧٩٩م، ثمّ تفرقت تلك الكتب القيمة من مخطوطة ومطبوعة، ونالت مكتبات القاهرة وباريس وبرلين منها قسطًا وافرًا وحظًا عظيمًا، وسرقت إسرائيل بعد عام ١٩٦٧ اكثر من ٧٠٠ مخطوط من اصل ٩٠٠ من المكتبة « ويذكر ان المكتبة تقع بجانب مركز المخطوطات القريب من منطقة الساحة، مما أدى لأضرار كبيرة في المركزين، فيما دمرت الطائرات الأرشيف المركزي لبلدية غزة والذي يضم أرشيف عمره أكثر من ١٥٠ عاما فيه أهم وثائق العائلات والطابو والأحوال الاجتماعية وغيرها من الأرشيف الهام وبذلك تفقد غزة جزءاً كبيراً من تاريخها، كما فقدت ثلاث مخطوطات ووثائق من العهد العثماني والبريطاني من بيت القدس للدراسات والبحوث الفلسطينية خلال العدوان البري.

***استهداف كنائس تاريخيّة في غزة:**

كذلك استهدف القصف الإسرائيليّ ثلاث كنائس تاريخيّة في غزّة، لا سيما كنيسة القديس برفيريوس العريقة، والتي تُعَدّ أقدم كنيسة في غزّة، ويعود تاريخ البناء الأصليّ للكنيسة إلى عام ٤٠٦ ميلاديّة، فوق معبد وثنيّ خشبيّ يعود لحقبة سابقة، حيث دمِّر مجلس وكلاء الكنيسة بالكامل، وكنيسة العائلة المقدّسة للاتينيّين، التي شيّدها الأب جان موريتان في غزّة عام ١٨٦٩م، بحيث طاولها تدمير جزئيّ أدّى إلى تشقّقات في الجدران والنوافذ، وهي الكنيسة الكاثوليكيّة الوحيدة في القطاع، والكنيسة المعمدانيّة التي تأسّست عام ١٨٨٢م، من قبل جمعية الكنيسة الإرساليّة التابعة لكنيسة إنكلترا، وأعيد بناؤها عام ١٩٥٠م، فقد أحدث القصف الذي استهدفها دمارًا كبيرًا في المباني الرئيسيّة والملحقة سواء في الكنيسة أو المستشفى الأهليّ المعمدانيّ.

***بيوت غزة الأثرية :**

إلى جانب ذلك، تعرّضت معظم أجزاء البلدة القديمة لمدينة غزّة وفيها ١٤٦ بيتًا قديمًا، إضافة إلى مساجد وكنائس وأسواق ومدارس قديمة وتاريخيّة، لتدمير شبه كليّ في هجمات جويّة ومدفعيّة إسرائيليّة، من أهمها بيت السقا الأثريّ في حيّ الشجاعيّة شرق مدينة غزّة، والذي يعود تاريخ بنائه إلى ٤٠٠ عام على مساحة كانت تبلغ ٧٠٠ متر، وبيت الغصين وهو مبنى تاريخيّ يعود إلى أواخر الفترة العثمانيّة يقع في حي الدرج، كما تم تدمير جزء من سوق القيساريّة، وسوق الزاوية، و سوق الذهب، وأيضا تدمير سباط العلمي وسباط كساب وكلاهما عثماني، وبيت حتحت الاثري يعود للقرن الـ ١٨ م وهو بجانب سباط العلمي، وبيت الحتو التاريخي بني ١٩٠٨م، وبيت الجعفراوي العثماني، في حي الدرج، وبيت الغلاييني وهو عثماني، يقع في حي الزيوت شارع الغلاييني، وبيت العشي في حي الدرج، وقصر الداية العثماني الذي يقع في حي الزيتون.

وقد أدان ممثل فلسطين في اتحاد المؤرخين العرب، سطو الاحتلال على مخازن للآثار الفلسطينية في غزة خلال الاجتياح البري، في ٢٤ يناير ٢٠٢٤، وتعود للكنعانيين والحقب اليونانية، الرومانية، والبيزنطية والإسلامية، فيها مئات الجرار الفخارية، والأواني والأدوات الأثرية، نقلها جنود الاحتلال إلى أماكن مجهولة داخل دولة الاحتلال، ويأتي ذلك في سياق السطو على التاريخ الفلسطيني واستبداله بروايات اسرائيلية مزيفة، وتهويد الهوية الوطنية، وهو استكمال لعمليات السرقة التي تمت قبل عام ١٩٤٨ وصولا لعام ١٩٦٧، ونقل آثار من الضفة الغربية وقطاع غزة إلى اسرائيل، ومنها حفريات دوثان، وآثار التي نهبها ديان وبقيت حتى الآن معروضة في المتاحف الإسرائيلية إضافة للمخطوطات التي نهبت من القدس وغزة.

وقد لفت محمد الكحلاوي، رئيس المجلس العربي للاتحاد العام للآثاريين العرب، إلى أن تقرير ممثل فلسطين في اتحاد المؤرخين العرب، يؤكد أن سلطات الاحتلال بهذه الجرائم ارتكبت مخالفة صريحة لاتفاقية لاهاي ١٩٥٤ لحماية الممتلكات الثقافية في حالة النزاع المسلّح، وتتجسّد فى المادة ٥ من اتفاقية لاهاى تحت عنوان «الاحتلال» ونصها :

١- على الأطراف السامية المتعاقدة التي تحتل كلًا أو جزءًا من أراضي أحد الأطراف السامية المتعاقدة الأخرى تعضيد جهود السلطات الوطنية المختصة في المناطق الواقعة تحت الاحتلال بقدر استطاعتها في سبيل وقاية ممتلكاتها الثقافية والمحافظة عليها.

٢- إذا اقتضت الظروف اتخاذ تدابير عاجلة للمحافظة على ممتلكات ثقافية موجودة على أراض محتلة منيت بأضرار نتيجة لعمليات حربية وتعذر على السلطات الوطنية المختصة اتخاذ مثل هذه التدابير، فعلى الدولة المحتلة أن تتخذ بقدر استطاعتها الإجراءات الوقائية الملحة، وذلك بالتعاون الوثيق مع هذه السلطات.

كما خالفت سلطة الاحتلال المادة ٤ من الاتفاقية تحت عنوان «احترام الممتلكات الثقافية» ونصها

تتعهد الأطراف السامية المتعاقدة بتحريم أي سرقة أو نهب أو تبديد للممتلكات الثقافية ووقايتها من هذه الأعمال ووقفها عند اللزوم مهما كانت أساليبها، وبالمثل تحريم أي عمل تخريبي موجه ضد هذه الممتلكات، كما تتعهد بعدم الاستيلاء على ممتلكات ثقافية منقولة كائنة في أراضي أي طرف سام متعاقد آخر، كما تتعهد الأطراف السامية المتعاقدة بالامتناع عن أية تدابير انتقامية تمس الممتلكات الثقافية.

وهنا علي ان أقول بوضوح أن ما لم تفقده غزة من آلة الحرب والعدوان من كتب، استعمل حطباً ووقودا ضد برد الشتاء بعد تهجير الناس في العراء، فيما تحولت حجارة التاريخ إلى رمل، إضافة إلى حرق مخطوطات غزة وكتبها الحجرية، فيما عدد الوثائق والارشيف الذي فقد في غزة يعادل ١٠٠ ضعف الأرشيف الذي فقد في مركز الأبحاث – بيروت، وأن كافة متاحف غزة تضررت جزئيا وكليا بما فيها من مقتنيات أثرية من الكنعانيين حتى الانتداب البريطاني، وأغلب المؤسسات العاملة في مجال التاريخ والتوثيق قصفت أو تضررت مثلها مثل كل مؤسسات القطاع المدنية والصحية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية وغيرها.

مراجع:

*أوس يعقوب، إسرائيل تسعى لمحو إرث حضارات غزّة المتعاقبة، ضفة ثالثة، ٢٣ نوفمبر ٢٠٢٣

*أحمد عرفة، اتحاد المؤرخين العرب: الاحتلال يسطو على مخازن للآثار الفلسطينية، اليوم السابع، القاهرة، ٢٦ يناير ٢٠٢٤.

*أحمد صبري، مجلس الآثاريين العرب يعلن إحصائية بالمواقع الاثرية المتضررة، صدى البلد، القاهرة، ٤ نوفمبر ٢٠٢٣.

* الهام الكردوسي، الاحتلال يدمر التراث ويستهدف هوية فلسطين، صحيفة الوطن،القاهرة، ١٥ديسمبر ٢٠٢٣، العدد ٤٢٤٧، ص٢.

* بديعة زيدان، آثار غزة التاريخ الحجري تحت القصف، العربي الجديد، الدوحة، العدد ٣٣٥٥، ٨ نوفمبر ٢٠٢٣، ص ٢٢.

*حسام أبو النصر، غزة تفقد تاريخها، صحيفة الوطن، القاهرة، ١٥ديسمبر ٢٠٢٣، العدد٤٢٤٧، ص٣.

*حسام أبو النصر، آثار فلسطين... احتلال . سرقة . تدمير، الحوار المتمدن، العدد: ٥١١٢ ، ٢٤ مارس ٢٠١٦ .

*محمد جاسم المشهداني، بيان صادر عن أمين عام اتحاد المؤرخين العرب، رقم ٢٠٢٣/١، بغداد، ١٦أكتوبر ٢٠٢٣.

*محمود السعدي، المؤرخ أبو النصر: الاحتلال يحاول محو تاريخ غزة، صحيفة القدس،العدد ١٩٤٨٧، ١٨ نوفمبر ٢٠٢٣، ص١١.

*يوسف الشايب، القصف الإسرائيلي يطال مواقع اثرية وتاريخية في غزة، صحيفة الأيام، العدد ١٠٠٣٤، ٧ نوفمبر ٢٠٢٣، ص٥.

*عبد الله عيسى، أبو النصر: قرار اليونسكو خطوة مهمة نحو الحفاظ واسترجاع الآثار والارث الانساني المنهوب، دنيا الوطن، غزة، ١ نوفمبر ٢٠١١.

غزّة تفرض نفسها على العالم سينمائيّاً

يوسف الشايب*

حضرت فلسطين بقوة وبأشكال متنوعة في حفل توزيع جوائز الأوسكار، في آذار ٢٠٢٤، وعبّر عدد من النجوم البارزين عن تضامنهم مع القضية الفلسطينية من خلال وضع "دبّوس" على صدورهم عليه رسم «كف حمراء بداخلها قلب أسود»، ويرمز إلى الدعوة لـ«وقف إطلاق النار في غزة»، أو من خلال كلمات ألقوها في الحفل أو بتصريحات على هامشه في حين نظم مناصرون لفلسطين تظاهرة أمام المسرح الذي استضاف الحفل.

وأدان المخرج البريطاني جوناثان جليزر الحرب على قطاع غزة، وذلك في خطاب فوزه بالأوسكار عن فيلمه بشأن ما حدث خلال الهولوكوست، «زون أوف إنتريست» (منطقة الاهتمام) والذي فاز بجائزة أفضل فيلم أجنبي.

وتدور قصة الفيلم حول أسرة تعيش في منزل وحديقة بالقرب من معسكر اعتقال، ويقوم ببطولته الممثل الألماني كريستيان فريدل، حيث يجسد دور قائد معسكر «أوشفيتز» رودولف هوس، وتلعب ساندرا هولر دور زوجته هيدفيج.

ويعد هوس من أقدم ضباط النازية، الذي يعرف بصورة كبيرة أنه واحد من مخططي عمليات الإبادة الجماعية خلال الهولوكوست.

وبدا جليزر مرتعشاً أثناء قبوله الجائزة وهو يقرأ خطاب فوزه، وقال: «جميع خياراتنا تم اتخاذها لتواجهنا في الحاضر، ولا نقول انظروا ماذا فعلوا حين ذاك، ولكن انظروا إلى ما نفعله الآن".

وقال المخرج وهو يهودي الديانة: «نحن نرفض السماح بإساءة استخدام يهوديتنا والمحرقة من أجل احتلال تسبب في الكثير من المعاناة للعديد من الأبرياء".

واعتبر أن الإسرائيليين الذين قضوا في الهجوم الذي أطلقته «حماس» في السابع من تشرين الأول، ويعرف باسم «هجوم السابع من أكتوبر»، والفلسطينيين الذين سقط منهم حوالى ٣١ ألف قتيل جراء الحرب التي أعقبت

* كاتب وباحث من فلسطين.

الهجوم، «جميعهم ضحايا التجريد من الإنسانية»، وهو موضوع فيلمه.

ومن النجوم الذين عبّروا عن تضامنهم مع فلسطين الممثل الأميركي من أصل مصري، رامي يوسف، الذي كان من أوائل ضيوف الحفل الذين وصلوا إلى السجادة الحمراء وهو يرتدي الجلابية ويضع الدبوس، ثم مارك رافالو بطل فيلم «أشياء بائسة" (Poor Things)، والمغنية بيلي إيليتش، والممثلتان أميركا فيريرا وفينياس أوكونيل، وبطلا فيلم «تشريح السقوط" (Anatomy of a Fall) : سوان أرلو وميلر ماتشادو غارنر، بالإضافة إلى فريق الفيلم التونسي «بنات ألفة»: النجمة هند صبري، والمخرجة كوثر بن هنية، والنجم نديم شيخورة. وفي الوقت الذي كان يتم فيه توزيع جوائز الأوسكار، كانت هناك تظاهرة احتجاجية خارج مسرح دولبي، تندد بالحرب على غزة وتجويع سكانها.

وبالرغم من الإجراءات الأمنية المشددة، استطاع مئات من الأشخاص من تنظيم حركة احتجاجية عرقلوا خلالها حركة السير أمام المسرح.

ورفع المتظاهرون الأعلام الفلسطينية، وهتفوا بالعبارات التضامنية مع فلسطين، لا سيما المنددة بفرض الحصار على سكان قطاع غزة.

وتزامنت تلك الاحتجاجات مع بدء توافد النجوم للسير على السجادة الحمراء، فيما كُتب على إحدى اللافتات: «في أثناء مشاهدتكم، تتساقط القنابل"، كما رفعوا لافتة أخرى كتب فيها «أوقفوا قتل الأطفال في غزة"، وعليه شهد حفل الأوسكار تأخيراً لمدة خمس دقائق نتيجة احتشاد المتظاهرين.

وكان عدد كبير من روّاد مواقع التواصل الاجتماعي في ألمانيا، تداولوا منشوراً نُشر لدقائق على إحدى الصفحات الرسمية التابعة لمهرجان برلين السينمائي الدولي، الذي اختُتم في الخامس والعشرين من شباط الماضي، يدعو لوقف الإبادة الجماعية في غزّة، وإعلان التضامن مع فلسطين وينقد صمت النُّخب الثقافية الألمانية عن الجريمة، ليتمّ حذف المنشور ولتُنشر بعدها كلّ الصفحات التابعة للمهرجان منشوراً اعتذارياً باللغتين الألمانية والإنكليزية تتنصّل فيه من المنشور المتضامن.

وجاء المنشور الذي كتبه «مجهول» يبدو أنّه من أحد العاملين في المهرجان، بألوان النسخة الجديدة من المهرجان وبالشعار الرسمي في خلفيته، وقد كُتب في الصحفة الأولى بالخطّ العريض «الإبادة الجماعية هي إبادة جماعية، كلّنا متواطئون»، ليسترسل أنّ السبب الذي دفعهم للحديث «هو كمّية الشكاوى التي وصلت عن المهرجان لسكوته عمّا يحصل في فلسطين، ولارتفاع خطر الأحزاب اليمينية في ألمانيا، وأنّ الصمت تُجاه الإبادة الجماعية والتطهير العِرقي يجعل العاملين مُشاركين في الجريمة».

وأكّد المنشور أنه يأتي بعد «نقاش داخلي طويل تقرَّر فيه أنّ الشعور الألماني بالذنب لا يُبرِّئ الألمان لا من تاريخهم ولا من تواطُؤهم مع ما يقوم به الاحتلال الإسرائيلي»، وفي النهاية أكّد المنشور أنّ العاملين في المهرجان «يضُمُّون

أصواتهم للملايين حول العالَم للدعوة إلى وقف إطلاق نار فوريٍّ في غزّة، ويدعون كلّ المؤسسات الثقافية في ألمانيا لتفعل مثلهم»، ليُختَتَم بكتابة «من ماضينا النّازي الذي لم يتم حلُّه إلى حاضرنا الإبادي، نحن لا نزال في الجانب الخاطئ من التاريخ، لكن لم يفت الأوان بعد لتغيير مستقبلنا".

يُشار إلى أن المنشور كان قد نُشر على صفحة «بانوراما برلين»، وهي إحدى الفئات الثابتة في المهرجان والتي تهتمّ بالأفلام التي تستخدم أساليب جديدة ومميزة، سواء في الإخراج أو التصوير أو السرد البصري، تؤكّد على صفحتها الرسمية أنها معنية بشكل واضح بكل القضايا السياسية وعلى دعمها للفنّ السياسي والأعمال الجريئة، وهو ما يدفع الكثير من الناشطين للتخمين أن المنشور جاء فعلاً بعد نقاش داخلي للقائمين على هذه الفئة، قبل أن تقوم إدارة المهرجان العُليا بالاعتراض وسحب المنشور، لكنّ هذه تبقى تكهُّنات غير أكيدة، إذ لم يصدر بعد عن أحد من العاملين أي تعليق على الموضوع، خصوصاً أن المهرجان قد هدّد بأن تتم محاسبة الفاعلين قضائياً.

وجاء في البيان الذي نشرته الإدارة: «إنّ الصور والكلمات المنشورة على صفحة فئة بانوراما عن الصراع الدائر في الشرق الأوسط لم تأت من المهرجان ولا تعبِّر عن توجُّهه، وقد قمنا بحذفها فوراً، ونقوم الآن بتحقيق داخلي وقد رفعنا شكوى قضائية ضدّ مجهول".

هذا التهديد كان مثار امتعاض وسخرية عدد من الناشطين، فمثلاً كتب القائمون على صفحة «عتمة - برلين» وهو تجمُّع لعدد من الكتّاب والموسيقيّين المُقيمين في برلين: «لم نَخْبَر في أيّ مكان في العالَم هذا القرب بين الجهات الثقافية والشرطة، هنا مؤسسات دائماً تهدِّد بالدعاوى الجنائية وتتبع بفخر الخطّ المرسوم لها... وفي نهاية المطاف ثقتنا هي ما تصنعكم وليس الدولة".

وقد أثار تضامن عدد كبير من المشاركين في المهرجان مع الشعب الفلسطيني، سواء أثناء تسلُّمهم للجوائز أو المقابلات الصحافية التي يُجْرونها زوبعةً من النقاش، حفيظة إدارة المهرجان وعدداً من السياسيّين الألمان الذين تنصُّلوا منها وأدانوا أصحابها، بل وملاحقتهم بدعوى «معاداة السامية»، وبهذا يضمن المهرجان للمؤسسات الثقافية التي تتعامل بسلطوية مع المشاركين فيها، وتنساق في خطاباتها السياسية مع توجُّهات السلطة، وتفقد شيئاً فشيئاً مركزها كأداة للديمقراطية والانفتاح الثقافي والسياسي.

وقبل أيام من موعد دورته الرابعة والسبعين، التي انطلقت في العاصمة الألمانية، أصدر عاملون في مهرجان برلين السينمائي الدولي بياناً دعوا فيه إلى وقف الحرب الإسرائيلية على غزّة، وطالبوا إدارة المهرجان باتخاذ موقف حاسم وواضح ضدّها.

وندّد البيان بجرائم القتل والهجوم على المدنيّين والصحافيّين والفنّانين والعاملين في مجال السينما في غزّة، وأضاف: «نتوقّع من المهرجان اتّخاذ موقف يتوافق مع المواقف المتّخَذة ردّاً على الأحداث الأُخرى التي شهدها المجتمع الدولي خلال السنوات الأخيرة".

وانتقد البيان، الذي نُشر على الإنترنت ووقّعه أكثر من ثلاثين عاملاً في مهرجان برلين السينمائي، الجمود المسيطر حالياً على المؤسّسات الثقافية في ألمانيا والقيود المفروضة على حرّية التعبير في البلاد، كما عبّر الموقّعون عن معارضتهم «الهجوم الحالي على الحياة الفلسطينية»، وأعلنوا انضمامهم إلى «حركة التضامن العالمية للمطالبة بوقف فوري لإطلاق النار والدعوة إلى إطلاق سراح جميع الرهائن".

وتضمّ قائمة الموقّعين أعضاء في لجان اختيار الأفلام في أقسام المهرجان المختلفة، ومشرفين وممثّلي اتصالات الضيوف، وأُتيح البيان على الإنترنت حتّى يتسنّى لعاملين آخرين التوقيع عليه.

ويمكن النظر إلى البيان بوصفه ردّاً على إدارة المهرجان، التي قالت في بيان نشرته نهاية الشهر الماضي: «تعاطفنا مع جميع ضحايا الأزمات الإنسانية في الشرق الأوسط وأماكن أخرى»، و»نتّخذ موقفاً حازماً ضدّ جميع أشكال التمييز، ونلتزم بالتفاهم بين الثقافات".

وكانت إدارة المهرجان قد أثارت موجة عارمة من السخط بسبب دعوتها خمسة سياسيّين من حزب «البديل من أجل ألمانيا» المتطرّف لحضور حفل الافتتاح، قبل أن تتراجع عن ذلك بعد أن تظاهر مئات الآلاف للاحتجاج على الدعوة والتنديد بأفكار الحزب المتطرّفة.

في ذات الاتجاه، وفي بيان صدر في شباط أيضاً، أعلن سينمائيون وعاملون في صناعة الفيلم بقبرص رفضهم المطلق «لاستغلال السينما ذريعة لتبييض الإبادة الجماعية للفلسطينيين»، في إدانة للاتفاقية التي وقّعتها حكومة بلادهم مع دولة الاحتلال بشأن الإنتاج المشترك بينهما، وصادق عليها البرلمان في التاسع والعشرين من كانون الثاني الماضي.

وشهد البرلمان القبرصي نقاشات حادّة حول الاتفاقية انتهت بموافقة أغلبية أعضائه على الاتفاقية، حيث أيّدها ٢٥ نائباً مقابل اعتراض اثني عشر نائباً، وامتناع ثلاثة نواب عن التصويت، حيث طالب برلمانيون بالانحياز لمبادئ القانون الدولي والمطالبة بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة التي تدين جرائم إسرائيل.

وأشار ممثل «الحزب التقدمي للشعب العامل، النائب جيورجوس لوكايدس، إلى أنه من المأساوي أن تتم مناقشة الإنتاج المشترك للأفلام بدلاً من الفظائع التي ترتكبها إسرائيل، وفرض العقوبات عليها، موضحاً أن الدول الصغيرة مثل قبرص على وجه الخصوص يجب أن تسلط الضوء على الالتزام بالقانون الدولي وليس على المصالح التي تجعلها تحت رحمة الأقوياء.

ودعت «شبكة عمال السينما من أجل فلسطين» مختلف العاملين في صناعة السينما القبرصية والرسوم المتحركة إلى التوقيع على بيان جاء في مفتتحه «باعتبارنا صانعي أفلام، وعاملين في مجال السينما، وأعضاء في مجتمع السينما في قبرص، لا يمكننا أن نبقى صامتين في وجه الهمجية المذهلة التي شهدناها في الأشهر الأخيرة. ولا يمكننا الاستمرار في صناعة أفلام عن العنصرية والتمييز وما بعد الاستعمار والهجرة، والحديث عن الألم الإنساني،

والدراما الإنسانية، والتطرق إلى الجوانب الأكثر حساسية في الوجود الإنساني، والتزام الصمت في مواجهة الرعب الحقيقي".

وتساءل الموقعون عن دوافع النواب الذين وافقوا، سواء بالتصويت بالموافقة أو الامتناع، في هذه الفترة التي سيسجلها التاريخ بأحلك الألوان، مستنكرين تبرير موافقتهم في سياق «تطوير السينما» التي يفسرونه دائماً بمصطلحات اقتصادية فقط، كما لو أن السينما ليست سوى «تجارة» و«استغلال» أو شيء يستثمر للخضوع لسلطة ما، سلطة الدولة التي ترتكب جرائم القتل، والذي يجري تقديمه باسم «التعاون".

وأضاف البيان: «السينما، قبل كل شيء، تمثّل هموم الأشخاص المعنيين في هذا البلد ويتم التعبير عنها من خلالهم»، مؤكدين معارضتهم المطلقة لهذا القرار وإدانتهم بشكل قاطع أي محاولة لانتهاك حقوق الإنسان، واتخاذ السينما أداة لتبييض الأعمال الشنيعة التي ترتكبها دولة إسرائيل، وحكومة نتنياهو اليمينية المتطرفة ضد الشعب الفلسطيني".

يُذكر أن قبرص احتضنت خلال الأشهر الماضية العديد من الفعاليات التضامنية مع الشعب الفلسطيني، وكان آخرها «مهرجان الفيلم الفلسطيني المستقل» الذي اختتمت نسخته الأولى في الثاني والعشرين من الشهر الماضي في مدينة ليماسول.

من بين الموقعين: إيفيغينيا أبراهام، وأرسينيو أغيسيلاو، وأندرياس أناستاسياديس، ومارينا أسيوتي، وبانوس أخيوتيس، وأندرياس ديميتريو، وفيميا ديموستينوس، وكيستريل فارين ليا، وماريوس يوانو، وأولغا كوريلو، وماريوس ميتيس، ومارينا زينوفونتوس، وماريا باباكوستا، وكريستيانا بيريسي، وسافاس ستافرو، ومارينا سيمو، وناوسيكا هاتزيكريستو، ويانيس كريستيديس.

وأضاء مهرجان غلاسكو للفيلم القصير(GSFF)، الذي انطلقت فعاليات دورته السابعة عشر في الشهر الأول من العام الجاري، على محطّات من تاريخ الشعب الفلسطيني في نضاله ضدّ الاستعمار.

وخصّصت التظاهرة برنامجاً خاصاً بعنوان «نحو التحرير» وتتضمّن عروض الأفلام القصيرة الوثائقية والروائية من جميع أنحاء العالَم، وتشترك في نقاش قضايا الجماعة والتحرّر والأرشيف.

الجلسة الثالثة من برنامج «نحو التحريرعقدت في فضاء «سيفيك هاوس»، تحت عنوان «أسلحة النقد والوعي المكرّس»، حيث أشار بيان المنظِّمين إلى أنّ البرنامج استمدَّ عنوانه من مقولة للمفكّر الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد، الذي يُقتبس من حديثه ضدّ «اتفاقية أوسلو» في الفيلم الافتتاحي «٢٠ مصافحة من أجل السلام» (٢٠١٥) للمخرج الفلسطيني الدنماركي مهدي فليفل.

كما عُرض فيلم «كأننا عشرون مستحيلاً» (٢٠٠٣) للمخرجة الفلسطينية آن ماري جاسر، الذي يروي قصة طاقم فيلم فلسطيني يقرّر تفادي نقطة تفتيش مغلقة واتخاذ طريق التفافي، لتتّضح سياسات تجزئة وتقسيم

الشعب الفلسطيني التي يقوم بها الاحتلال الصهيوني وانتهاكاته الوحشية، بالإضافة إلى فيلم "أبوكي خلق عمره ١٠٠ سنة، زي النكبة» (٢٠١٧) للمخرجة الفلسطينية رزان صالح، التي تعيد جدّتها إلى مدينتها حيفا افتراضياً، وهي الطريقة الوحيدة التي يمكنها من خلالها رؤية فلسطين، بالإضافة إلى الفيلم التحريكي «ذاكرة الأرض» (٢٠١٧) للفنانة الفلسطينية سميرة بدران، الذي يروي رحلة شخصيّته الأساسيّة المحاصرة لدى حاجز يمثّل آليّة الاحتلال الإسرائيليّة الأساسيّة، باحثةً عن وسيلة للهروب من الواقع بينما ينخر جسدها العنف الممنهج والجسدي والعدوان والتعسّف، مانعاً إيّاها من الحركة ومهاجماً وجودها.

وعقب ذلك عرضٌ حيّ للموسيقي وفنّان الصوت البريطاني الفلسطيني كريم سمارة، تذهب نصف عائداته من مبيعات التذاكر لصالح «جمعية العون الطبي الفلسطيني".

وانتظمت العديد من المهرجانات الفلسطينية في مختلف دول العالم، أو مهرجان للسينما الفلسطينية انتظمت عالمياً، وكان أحدثها الدورة الأولى من مهرجان الفيلم الفلسطيني للدول الاسكندنافية، والتي انطلقت في السابع عشر من آذار وتتواصل لأكثر من شهر في مدن السويد، ومنها إلى النرويج والدنمارك، وذلك بهدف رفع مستوى الوعي في دول الشمال الأوروبي حول تاريخ وثقافة فلسطين، وتعزيز التبادل الثقافي بين شعوبها والشعب الفلسطيني من أجل تنظيم مهرجانات سينمائية في المدن السويدية الكبرى وفي جميع أنحاء البلدان الاسكندنافية.

وتذهب عائدات المهرجان الذي يحمل شعار «تنفّس هواء الحرية»، لدعم صانعي الأفلام الشباب في فلسطين، وخاصة في غزة، من أجل تطوير مشاريعهم السينمائية، كما يخصص جزء منها لترجمة الأفلام الفلسطينية إلى اللغات الاسكندنافية، وإنشاء قاعدة بيانات إلكترونية للأفلام الفلسطينية القديمة والحديثة.

ويشير بيان المنظّمين إلى أنهم يستخدمون «الفيلم كأداة للتغيير الاجتماعي»، حيث تضيء الأفلام المشاركة الهوية الفلسطينية، وسياسات تهويد القدس، وجدار الفصل العنصري، ومواجهة الاستيطان، والحياة اليومية للغزيين تحت الحصار، والعدوان الإسرائيلي الذي يتكرّر كلّ مرة بصورة أكثر وحشية وانتقاماً.

يُعرض فيلم «ملاحظات على النزوح» (٢٠٢٢)، لخالد جرار، الذي يوثق رحلة لجوء عائلة فلسطينية من سورية إلى ألمانيا، و»عمر» (٢٠٢٣) لمحمد نايف علي، الذي يروي جرائم الاحتلال الإسرائيلي خلال الحرب على غزة في العام ٢٠٢١، من خلال شخصية عمر، وهو الناجي الوحيد من عائلته التي بقيت تحت الأنقاض لمدة اثنتي عشرة ساعة، بالإضافة إلى أفلام «نكبة أخرى» (٢٠٢٤) لعرابي السوالمة، و»الحياة حلوة» (٢٠٢٣) لمحمد الجبالي، و»هذه الحياة لي، وسأعيشها» (٢٠٢٣) لميسلون يونس، و»غزّتي» (٢٠٠٩) للسويدي بير أكه هولمكويست، وغيرها.

وفي نهاية كانون الثاني الماضي، أعلنت مجموعة تطوعية عن بدء استعدادها لإطلاق «مهرجان فلسطين للأفلام» في اسكتلندا، الذي يتصدّر أهدافه رفع مستوى الوعي حول القضية الفلسطينية، وسط حملات التحريض التي طاولت العديد من المؤسسات الثقافية بغرض إسكاتها عن إدانة حرب الإبادة على غزة.

واختار المنظّمون أن تتوزّع التظاهرة على مدن اسكتلندية عدّة، حيث تنطلق فعاليات الدورة التأسيسية في مدينة أوبان على الساحل الغربي في الثامن من أيار المقبل، قبل أن تنتقل إلى جيرة أوبان ما بين التاسع والثاني عشر من الشهر نفسه، ثم تختتم العروض في العاصمة إدنبرة في السادس والعشرين.

إدارة المهرجان التي تعتمد على التبرعات الجماعية لتنظيمه، أشارت في بيان صحافي أنه يتم تلخيص واقع الشعب الفلسطيني بأنه «شعب محتَلّ»، كما لو أنه ليست لديهم قصص أخرى ليروووها، موضحة أنه باستخدام السينما كأداة للمقاومة، تبذل الجهود لتفكيك الرواية الاستعمارية، والاحتفال بالفن والثقافة في فلسطين.

ولفت البيان إلى أن حضور الفن والثقافة الفلسطينيين في اسكتلندا لا يزال محدوداً، ولذلك يسعى المهرجان إلى المساهمة في سد هذه الفجوة، من خلال تقديم السينما الفلسطينية الكلاسيكية والمعاصرة، بشكل أساسي، ولكن لن ينحصر البرنامج بعرض الأفلام، إذ تقام جلسات نقاشية لتحدي المفاهيم المسبقة عن الفلسطينيين بوصفهم ضحايا أبديين، وتسليط الضوء بدلاً من ذلك على مقاومتهم الثابتة، وحفاظهم على الثقافة واستمرارية تعبيراتهم عنها.

وتتزامن العروض مع إقامة أسبوع يضيء النكبة الفلسطينية بمناسبة مرور ستّة وسبعين عاماً عليها، حيث ينظّم نشطاء اسكتلنديون فعاليات تتناول التطهير العرقي الذي مارسته العصابات الصهيونية العام ١٩٤٨، تدمير أكثر من سبعمئة قرية، والتهجير القسري لمئات آلاف الفلسطينيين.

ويتضمّن برنامج المهرجان عقد ندوات تقييمية عقب عرض كل فيلم من الأفلام المشاركة، كما تقام أمسيات حول التراث الفلسطيني من طعام وموسيقى ورقص، بالإضافة إلى تنظيم معارض فوتوغرافية وتشكيلية توثّق تاريخ النضال الفلسطيني.

يُذكر أن «مهرجان غلاسكو للأفلام القصيرة» في دورته المقبلة التي تنطلق في مدينة غلاسكو الاسكتلندية، يتضمّن برنامجه عرض أفلام فلسطينية تتناول إنهاء الاحتلال الإسرائيلي وواقع اللاجئين الفلسطينيين في الشتات.

وفي تشرين الأوّل الماضي، أعلن منظّمو «مهرجان الفيلم الفلسطيني» في أستراليا عن تأجيله، كشكل من أشكال الحداد على الشهداء والضحايا في غزّة، وكذلك تجنّباً لردود الفعل التي انتشرت حول العالم في بداية العدوان، متأثّرة بالرواية الصهيونية للحدث.

لكن مع مرور الوقت واستمرار جرائم الإبادة الممنهجة، أصبحت الأجواء مهيّأة لتقديم صورة شاملة عن الواقع، والتعرّف أكثر من قبل الجمهور الغربي على تاريخ فلسطين وراهنها، و«يمكن للفن والسينما أن يكونا جيّدين جدّاً في توفير ذلك»، بحسب المنظّمين.

وتضمّنت فعاليات الدورة الثانية عشرة من المهرجان، أفلاماً وثائقية طويلة وقصيرة، وتواصلت لأحد عشر يوماً، تتوزّع عروضها على المدن الأسترالية: سيدني وكانبيرا وبريسبان وأديلايد وهوبارت وملبورن وبيرث

وعرض المهرجان فيلم «بيت في القدس» (٢٠٢٣) لمؤيد عليان، والذي تدور أحداثه حول الطفلة ريبيكا التي تعاني مأزقاً نفسياً خطراً بإنكار وفاة والدتها في حادث سيارة، رغم أنّها كانت موجودة معها لحظة الحادث، فيقرّر والدها، اليهودي البريطاني، الانتقال من إنكلترا إلى القدس لتكون تلك البداية الجديدة بادرة شفاء لابنته من ماضيها المؤلم، لكن عند استقرارهما في منزل قديم في القدس الغربية، تُصادف ريبيكا شبح الطفلة رشا، وهي فتاة فلسطينية في مثل عُمرها، كانت قد انفصلت عن عائلتها عام ١٩٤٨.

كما عُرض فيلم «لماذا المقاومة» (١٩٧١) للمخرج اللبناني الراحل كريستيان غازي (١٩٣٤ - ٢٠١٣)، ويشتمل على لقاءات بالإنكليزية مع كُتّاب وشخصيّات أدبية وفكرية وسياسية عديدة، برزت خلال عقدَي سيتينات وسبعينات القرن الماضي على صعيد الثورة الفلسطينية، مثل غسان كنفاني وأنطوان زحلان وصادق جلال العظم وأوغيت كالان وأحمد خليفة ونادية حجاب، حول ضرورة المقاومة، إلى جانب عرض أفلام «ويك إند في غزة» (٢٠٢٢) لباسل خليل، و«باي باي طبريا» (٢٠٢٣) للينا سويلم، و«علم» (٢٠٢٢) لفراس خوري، و«بيت لحم ٢٠٠١» (٢٠٢١) لإبراهيم حنضل، و«نادي غزّة لركوب الأمواج» (٢٠١٧) لفيليب جنات وميكي يمين، و«١٢ سريراً» (٢٠٢٢) لرينيه متري، و«اللد» لرامي يونس وسارة إيما فريدلاند، و«حرية الغد» (٢٠٢٢) لجورجيا وصوفيا سكوت، و«حديقة الحيوان» (٢٠٢٣) لطارق الريماوي.

"مهرجان الأرض"، الذي انطلق العام ٢٠٢٢ بتنظيم من "جمعية الصداقة سردينيا -فلسطين في مدينة كالياري، عاصمة جزيرة سردينيا، أحد أبرز المهرجانات المكرَّسة للقضيّة الفلسطينيّة في أوروبا، حيث يستضيف، في كلّ دورة، أفلاماً تُضيء على جوانب متعدّدة من قضية فلسطين والقضايا العربية.

تأتي الدورة العشرون من المهرجان، في ظرف استثنائي تتعرض فيه غزّة لحرب إبادة مستمرة منذ قرابة خمسة أشهر، وهكذا، خصّص القائمون عليه مساحةً أكبر لمناقشة الراهن الفلسطيني مع الجمهور صنّاع الأفلام.

افتتحت الدورة بفيلم «لد» (٢٠٢٣) للمُخرجَين رامي يوسف وسارة فريدلاند، والذي يحكي قصّة مدينة اللدّ منذ تهجير الفلسطينيّين وارتكاب الاحتلال مجازر فيها العام ١٩٤٨، وصولاً إلى اليوم، مُتخيّلاً مستقبلاً مفترَضاً للمدينة لو لم تتعرّض للاحتلال.

وإلى جانب فيلم الافتتاح، عُرضت أربعة أفلام فلسطينية أُخرى في مسابقة الأفلام الوثائقية الطويلة؛ وهي: «يلّا غزّة» (٢٠٢٣) للفرنسي رولاند نوريبه، والذي يتناول ما يعيشه سكّان قطاع غزّة من رعب دائم وحصار إسرائيلي عبر البرّ والبحر والجوّ، مُضيئاً على مساحات من الأمل رغم هذا الواقع.

أمّا فيلم «لقمة عيش» لمروة جبارة، فيتتبّع رحلة العمّال الفلسطينيّين للعمل في الأراضي المحتلّة بسبب البطالة وتردّي الأوضاع الاقتصادية، وما يعانونه في سبيل استصدار تصاريح العمل، وخلال عبورهم الحواجز المعدنية الضيّقة إلى أماكن عملهم، وصولاً إلى ظروف العمل غير الإنسانية.

وحضرت فلسطين، أيضاً، في مسابقة الأفلام الوثائقية القصيرة من خلال: «سنبقى» لبشار زعرور عن المجتمعات البدوية الفلسطينية حول مدينة القدس، و«ثلاث أمنيات في غزّة» للإيطالي ماركو بيريللو عن أمنيات سكّان غزّة، و«المعادن الثقيلة» لـ إدوارد نولز وتيمو برون عن شابّات فلسطينيات من مخيّم البقعة في الأردن ويحلمن بالمشاركة في الألعاب الأولمبية، و«تسلّق المقاومة» لـ نيك روزين وزكاري بار عن الأميركي تيم برونز الذي يفتح أوّل قاعة لتعليم تسلّق المرتفعات في فلسطين.

وتضمّن قسم أفلام الخيال خمسة أفلام عن فلسطين، هي: «المفتاح» لركان مياسي، و«أجمل الأمّهات» لمحمود أبو جازي، و«يا عمّ أعطني سيجارة» المستوحى من قصّة الكاتب الأسير وليد دقة، وحمزة: أطارد شبحاً يطاردني» لورد كيال، و«ماما مار» لمجدي العمري، و«الزيارة» لعلي السعدي.

وتحت عنوان «سينما من أجل فلسطين»، انطلقت في «كاسا بيرافا» في العاصمة المكسيكية، في نهاية شباط و ولغاية الرابع عشر من آذار، فعالية اشتملت على عرض ثلاثة أفلام تعالج القضية الفلسطينية، هي: «مولود في غزّة»، و«غزّة: نظرة في عيون الهمجية» و«عمر"، بحيث افتتحت الفعالية بعرض فيلم «مولود في غزّة» (٢٠١٤) للمخرج الأرجنتيني هرنان زين، ويروي الوثائقي، الذي أنجزه المخرج بعد زيارة قام بها إلى قطاع غزّة في العام ٢٠١٤، مأساة العدوان، حيث يتتبّع، على مدى اثنتين وسبعين دقيقةً، الحياة اليومية لعشرة أطفالٍ فلسطينيين يعيشون تحت القصف الإسرائيلي، عارضاً مأساة الحياة في ظلّ حصارٍ خانق تفرضه «إسرائيل» على سكّان القطاع، أما الفيلم الثاني «غزّة: نظرة في عيون الهمجية»، فهو وثائقي كتب نصه وأخرجه الإسباني خوليو كارلوس مارتينيز وزميله بيريز دي الكامبو، ويوثّق خلال ١٨ دقيقة العدوانات الإسرائيلية المتكرّرة على قطاع غزّة، ويرصد الفترة التي تلت توقّف القصف في العام ٢٠١٩، وتراجع الاهتمام الإعلامي بالقضية الفلسطينية، في حين الفيلم الثالث «عمر» (٢٠١٣) من تأليف وإخراج هاني أبو أسعد، يحكي قصة الشاب الفلسطيني «عُمَر»، الذي اعتاد تجنّب رصاصات المراقبين أثناء عبور الجدار العازل من أجل زيارة حبيبته نادية، لكن فلسطين المحتلّة لا تعرف الحب البسيط، ولا الحرب واضحة المعالم. فعلى الجانب الآخر من الجدار، يصبح الشاب مناضلاً من أجل الحرية، عليه مواجهة خيارات مؤلمة في الحياة بشجاعة.

ومنذ العام ٢٠١١، ينتظم في مدينة بريستول (جنوب غرب بريطانيا) مهرجان مخصّص لعرض أحدث الأفلام الفلسطينية، إلى جانب جملة فعاليات موسيقية تتوزّع في فضاءات عدّة من المدينة، كما تنتقل بعض العروض إلى مدن بريطانية أخرى.

وواجهت إقامة هذه الدورة عوائق عديدة نتيجة عزوف مؤسّسات ومراكز ثقافية عن استقبال أنشطة ذات صلة بفلسطين، مع استمرار الانحياز للرواية الإسرائيلية في الإعلام البريطاني ولدى العديد من صنّاع القرار، حيث انسحب فضاء «أرنولفيني» من استضافة ايّة فعالية لهذا العام.

وأشار بيان المنظّمين إلى الالتزام بالهدف التأسيسي للتظاهرة «المتمثّل في عرض السينما والثقافة الفلسطينية»،

مع التأكيد على إيمانهم بضرورة توفير منصّة للنقاش حولها عبر تنظيم جلسات يشارك فيها عددٌ من المخرجين الفلسطينيين.

وافُتتح المهرجان بفيلم «فرحة» للمخرجة الأردنية الفلسطينية دارين سلّام (٢٠٢١)، الذي يتناول قصة واقعية دارت أحداثها في العام ١٩٤٨، حين اضطر مختار إحدى القرى حبْس ابنته في غرفة المؤونة عند مهاجمة العصابات اليهودية على قريته، فتمضي في الغرفة أشهراً عدة تنظر من نافذة صغيرة على فظائع تلك العصابات، حتى يتسنّى لها الهروب منها والمغادرة قسراً إلى سورية، كما عُرض أيضاً فيلم «٢٠٠ متر» للمخرج الفلسطيني أمين أبو نايفة (٢٠٢٠)، يضيء معاناة الفلسطينيين في ظل جدار الفصل العنصري انطلاقاً من تجربةٍ عاشها مخرج الفيلم علي نايفة خلال طفولته، حيث الاضطرار للوقوف عند الحواجز الإسرائيلية وصعوبات التنقل داخل الوطن الواحد، والحصار الذي يفرض على المدن والبلدات الفلسطينية.

ومن بين الأفلام المعروضة: «اليد الخضراء» (٢٠٢٢) للمخرجة الفلسطينية جمانة منّاع، و«غزّة» (٢٠١٩) للمخرجين الأيرلنديين غاري كين وأندرو ماكونيل، وكذلك فيلم كين الذي يحمل عنوان «في ظل بيروت» (٢٠٢٢) وشاركه الإخراج مواطنه ستيفن جيرارد كيلي، و«المخدوعون» (١٩٧٢) للمخرج المصري توفيق صالح والمقتبس عن رواية «رجال في الشمس» لغسان كنفاني، وغيرها.

يُذكر أن المهرجان انطلقت فكرته في العام ٢٠٠٧، حين زار فريق محلي لكرة القدم من بريستول فلسطين ولعب مباريات مع أندية فلسطينية، وعند عودتهم إلى بريطانيا قرّروا تأسيس تظاهرة سينمائية تهتم بفلسطين وثقافتها.

وانطلقت الدورة الثانية عشرة من مهرجان السينما الفلسطينية في جنيف تحت شعار «التصوير فعلُ وجود» من قاعة «سينما سبوتنك» بالمدينة السويسرية، حيث أشار المنظّمون إلى أنه بعد أشهر من القصف الإسرائيلي على غزة، فإن الدورة الحالية لن تكون مثل الدورات السابقة، في إشارة إلى أن المهرجان سيُظهر أكثر من أي وقت مضى أن السينما موجودة في فلسطين.

المهرجان الذي تأسّس في العام ٢٠١٢، يُعدّ أول تظاهرة ناطقة بالفرنسية في البلاد مُخصّصة بالكامل للسينما الفلسطينية، وتُشرف على تنظيمه لجنة تطوّعية، وينطلق بالتزامن مع «اليوم العالمي للتضامن مع الشعب الفلسطيني» الذي أقرّته «الأمم المتحدة» العام ١٩٧٧، وتمّت استضافة أكثر من مئتين وعشرين فيلماً، واستضافة نحو خمسين مخرجاً فلسطينياً خلال العقد الماضي.

يهدف المهرجان إلى «توعية الجمهور الناطق بالفرنسية بالواقع اليومي للشعب الفلسطيني ومناقشة القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، ولا سيما ما يتعلّق منها بالمقاومة والاحتلال والاستعمار والنفي، من خلال عيون المخرجين الفلسطينيين أينما كانوا»، بحسب بيان المنظّمين.

كما أشار المنظّمون إلى أنهم يقدّمون تظاهرتهم في وقت تسعى فيه «إسرائيل» إلى إحداث نكبة ثانية في غزة من خلال القصف وتهجير الفلسطينيين وإدامة الحصار المفروض عليهم، كما يُواصل الاحتلال اعتداءاته في الضفة الغربية، ولكن كل ذلك يرتبط بما يُواجهه الشعب الفلسطيني منذ خمسة وسبعين عاماً من استعمار عنصريّ، لم يعد يُخفي رغبته في القضاء عليه.

وأضاءت الدورة الحالية مسألة أساسية وهي أن الشباب الفلسطيني لن ينسى نكبة ١٩٤٨ أبداً، في وقت يحاول الاحتلال تكرارها، لذلك جرى التوجّه إلى السينما التي يصنعها مخرجون شباب، مثل: «حبيبي بيستناني عند البحر» (٢٠١٣) لميس دروزة، و«مريم» (٢٠٢٠) لدانا دُر، و«هوامش طاردة» (٢٠١٧) لخالد جرار، و«صارورة» (٢٠٢٢) لنيكولا زامبيلي، و«علم» (٢٠٢٢) لفراس خوري، و«سرّي مرّي» (٢٠٢١) للؤي عوّاد، و«بيت في القدس» (٢٠٢٢) لمؤيد عليان، و«نهاية الأسبوع في غزة» (٢٠٢٢) لباسل خليل، و«رقم ٢١» (٢٠٢٢) لمهند يعقوبي، و«المنعطف» لرفقي عساف، و«حمزة: أطارد شبحاً يطاردني» (٢٠٢٢) لورد كيّال، و«فلسطين ٨٧» (٢٠٢٢) لبلال الخطيب، وغيرها.

واستهل مهرجان الفيلم الفلسطيني في لندن، الذي افتتح في «سينما باربيكان»،استهلّ عروضه بالفيلم الوثائقي «حرية الغدّ» (٢٠٢٢) للمخرجتين البريطانيتين جورجيا وصوفيا سكوت، الذي استغرق إنتاجه نحو ستّ سنوات لتقديم قضية المناضل الفلسطيني مروان البرغوثي إلى العالم، من خلال إجراء مجموعة من المقابلات مع شخصيات مقرّبة منه، مع مزج بين شأن خاص يتعلّق بعائلته وكيفية زيارتها له في السجن، وبين الهمّ العام المتصّل بالاحتلال الإسرائيلي وانتهاكاته الدائمة، كما عرض ثلاثة أفلام قصيرة، هي: «بونبونة» (٢٠١٧) للمخرج الفلسطيني ركان مياسي الذي يتناول واقع الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال وتهريب النطف منها، و«برعم» (٢٠٢٢) للمخرج الفرنسي كميل كلافيل الذي يتناول عودة نغم لقرية عائلتها التي دمّرت في العام ١٩٤٨، إلى جانب فيلم الأنيميشن «بيان للمقاومة» (٢٠٢٢) للمخرج الفلسطيني علي جبالي الذي يضيء حالة مدينة تتعافى من تحت القصف والركام.

ومن بين الأفلام المعروضة في المهرجان: «باي باي طبريا» (٢٠٢٣) للينا سويلم، و«طريق السموني» (٢٠١٨) لستيفانو سافونا، و«غزة» (٢٠١٩) لغاري كين وأندرو ماكونيل، و«١٢ سريراً» (٢٠٢٢) لرينيه متري، و«علم» (٢٠٢٢) لفراس خوري.

وفي تشرين الثاني الماضي، نظّمت «مؤسسة الدوحة للأفلام» في العاصمة القطرية سلسلة عروض سينمائية مُهداة إلى فلسطين تحت عنوان «أصوات فلسطينية» إحياءً للذكرى السنوية القاتمة لوعد بلفور المشؤوم، وتتضّمن تسعة أفلام أُنتجت خلال العقدين الأخيرين.

اختارت المؤسسة في النسخة العاشرة من «ملتقى قمرة السينمائي»، التي انطلقت في مسرح «متحف الفن الإسلامي» بالدوحة، ثمانية أفلام روائية ووثائقية طويلة حظيت بدعم منها، تتواصل عروضها حتى السادس من

الشهر المقبل.

من بين الأفلام المعروضة عملان من فلسطين، الأول يقدّم يوم الافتتاح بعنوان «باي باي طبريا» (٢٠٢٣)، من سيناريو وإخراج لينا سويلم، ويروي قصة أربعة أجيال من النساء في عائلة فلسطينية، حيث الجيل الأول عاش قبل النكبة وهجّر قسراً من أرضه، بينما نساء الجيل الثاني أكملن دراستهن وعمل معظمهن في التعليم، ثم جيل ثالث تتنوّع فيه الاهتمامات وتتغيّر النظرة إلى قضايا اجتماعية عديدة مع مزيد من الاغتراب، وصولاً إلى الجيل الرابع الذي تمثّله المخرجة نفسها، كونها نصف فلسطينية ونصف جزائرية.

أما الفيلم الثاني فهو «عمل فدائي» (٢٠٢٤)، للمخرج كمال الجعفري الذي يعود إلى احتلال الجيش الإسرائيليّ بيروت، في صيف العام ١٩٨٢، وكيف تمّت مداهمة «مركز الأبحاث الفلسطينيّ»، وتدميره، ونهب مكتبته، التي تحتوي على ٢٥٠٠٠ مجلد عن فلسطين، وتعدّ هذه المكتبة واحدة من أكبر المجموعات في العالم، حيث يناقش نهَبُ المحفوظات، والصّور، والأفلام، والوثائق، في محاولة لخلق صورة مضّادة ردًا على نهب الذّكريات.

ومنذ تشرين الأول الماضي تواصل مؤسسة خالدة شومان (دارة الفنون) في العاصمة الأردنية عمّان تنظيم سلسلة فعاليات ومعارض تضيء اللحظة االراهنة، كان آخرها عرض تركيب «لن نرحل» للفنّانة سهى شومان، ويتضمّن عدّة أجزاء متّصلة توثّق التاريخ الفلسطيني منذ نكبة ١٩٤٨.

أمّا "غزة: صيف ٢٠٢١» فكان عنوان الأمسية التي نظّمتها الدارة، وتضمّنت عرض سلسلة أفلام قصيرة تم تصويرها في غزة كجزء من ورشة صناعة أفلام أشرفت عليها المخرجة الفلسطينية أسماء بسيسو.

تعكس هذه السلسلة «تفاصيل وقائع حياة أربع شخصيات غزيّة وأحلامها والتحديات التي تواجهها. تتضمن هذه الشخصيات: عازف عودٍ شاب، وطفل يبيع النعناع في شوارع القطاع، وناشطة مجتمعية في مجال إعادة التدوير انطلاقًا من شواطئ غزة، وصاحب مبادرة لإيواء الحيوانات الضالة»، بحسب بيان المنظّمين.

وعُرضت أربعة أفلام أُنتجت خلال هذه الورشة، وتحمل عناوين: "نشاز"، و"ضحكة خميس"، و"لمين البحر؟"، و"سلالة"، نفّذها صنّاع الأفلام: أسيل الودية، ومريم بركات، ويوسف أبو عميرة، ومحمد المصري، وتالين زقوت، وأحمد أبو شمالة، ويارا أيوب، وآية عاشور، ومحمد الشوا.

كما أطلقت الدارة ورشة صناعة أعمال فيديو تحت عنوان «شهادات بصرية» من تيسير المخرجة أسماء بسيسو، وتواصلت لأحد عشر يوماً في تركيز على التوثيق البصري للحرب المستمرة على غزّة.

وتناولت الورشة الدور المحوري للتوثيق البصري في كشف أكاذيب جيش الاحتلال وفضح جرائمه، حيث يستمر العديد من السكان عبر هواتفهم بتوثيق حجم الدمار الهائل الذي حلّ بالقطاع وتفاصيل الحياة تحت القصف.

وقام المشاركون في الورشة من الفنانين وصناع الأفلام باستكشاف ما تم توثيقه من تسجيلات بصرية وصوتية

وكتابية، واستخدامها في بناء وصناعة أعمال فيديو تستجيب للحظة الراهنة وتنتصر لصمود غزة وللسردية الفلسطينية.

وأحيت «الجمعية اللبنانية للفنون – رسالات» في العاصمة اللبنانية، حفل إطلاق الدورة الأولى من مهرجان "الخيط القصير لأفلام الـ ١٠٠ثانية»، الذي ينظّم للمرّة الأولى في لبنان، على مسرح «رسالات» في بلدية الغبيري.

المهرجان، الذي كان من المقرّر أن تنطلق دورته الأولى في العام الماضي، تأخّر بسبب الظروف التي تعصف في المنطقة العربية، وآخرها حرب الإبادة الجماعية التي تشنّها إسرائيل على غزّة منذ السابع من تشرين الأول الماضي.

وهدف المهرجان، كما جاء في بيان القائمين عليه «لإحداث تغيير إيجابي في المجتمعات العربية عبر منح الموهوبين الفرصة للتّعبير عن أفكارهم ونظرتهم للقضايا الهامّة وتبادل الثقافات عبر الأفلام، إضافة إلى فتح الطريق أمام الشباب للإبداع وصناعة الروايات الكاملة ونقل الحقائق كما هي بأسلوب مبتكر، في ظلّ تشويهٍ ممنهجٍ للأحداث والقضايا، وخصوصاً تلك المتعلّقة بمنطقتنا".

وتمَّ تخصيص جائزة تكريمية عن كل فئة من الفئات المذكورة لأفضل عملٍ حول فلسطين وما يجري في غزّة ولبنان من إجرام صهيوني وتخاذل عالمي.

وخلال افتتاح فعاليات دورته الثالثة، في «سينما الهناجر» بـ»دار الأوبرا المصرية» في القاهرة، عمد القائمون على «مهرجان القاهرة للسينما الفرنكوفونية» إلى إلغاء المظاهر الاحتفالية واستبدال السجّادة الحمراء المعهودة في الفعاليات السينمائية بسجّادة سوداء، تعبيراً عن التضامن مع الشعب الفلسطيني الذي يتعرّض لإبادة مستمرّة منذ قرابة ثلاثة أشهر.

وتوشّح عددٌ من الفنّانين المشاركين في المهرجان بالكوفية والعلَم الفلسطينيَّين؛ مثلما فعل المُخرج المصري علي بدر خان الذي قال، في تصريحات صحافية، إنّ «الكوفية الفلسطينية أصبحت شعار المرحلة، مثلما أصبحت السينما الفلسطينية حاضرةً اليوم في كثير من المهرجانات، كنوع من المساندة لهذا الشعب الباسل".

وقدّم المهرجان، الذي تأسّس في ٢٠٢١، تحيّةً للسينما الفلسطينية، من خلال برنامج يتضمّن عروض أفلام روائية ووثائقية، بين طويلة وقصيرة، تناولت القضية الفلسطينية؛ من بينها الوثائقي القصير «ثلاث قصص من غزّة» للمخرج الفلسطيني السوري محمد خميس، والذي عُرض في الافتتاح، وتدور أحداثه أثناء العدوان الإسرائيلي على غزّة العام ٢٠١٢، من خلال قصّة صحافي عاش أحداث الحرب ووثّقها بكاميرته.

وبعد أيام قليلة من بدء العدوان الصهيوني، أعلنت إدارة «مهرجان الجونة السينمائي» تأجيل انطلاق دورته السادسة إلى نهاية تشرين الأول الماضي، ليتمّ تأجيلها إلى أجل غير مسمّى والاكتفاء بتقديم التبرعات لدعم جهود الإغاثة الإنسانية إلى غزّة.

في الوقت الذي تمّ فيه تأجيل وإلغاء المهرجانات السينمائية في مصر، حدّدت إدارة التظاهرة موعداً جديداً لتنظيمها بعد استحداث برنامج مُهدى إلى السينما الفلسطينية، يتضمن عرض مجموعة أفلام عن فلسطين، مع إلغاء جميع المظاهر الاحتفالية تعبيراً عن التضامن مع الشعب الفلسطيني.

واشتملت فعاليات الدورة السادسة من المهرجان في المدينة المصرية التي يحمل اسمها على ساحل البحر الأحمر، "نافذة على فلسطين»، وهو عنوان القسم الذي استُحدث هذا العام، وتم تنسيق معظم أفلامه بالتعاون مع مؤسسة الفيلم الفلسطيني، مع استضافة لعدد من صنّاعها، بهدف التأكيد على التزام المهرجان بدعم القضية العادلة للشعب الفلسطيني، بحسب بيان المنظّمين.

وتضمّن البرنامج عرض فيلم «إسعاف» (٢٠١٦) لمحمد الجبالي، ويتناول الحياة اليومية خلال عمل المسعفين لإنقاذ المصابين من الأحياء التي تعرّضت للقصف أثناء العدوان على غزة العام ٢٠١٤ بعدسة مصوّر جاب شوارع المدينة، وفيلم "باي باي طبريا" (٢٠٢٣) للينا سويلم، التي يتناول مفهوم الهوية عبر رحلة شخصية لأربعة أجيال من النساء الفلسطينيات.

عُرض أيضاً فيلم التحريك «الرسم من أجل أحلام أفضل» (٢٠١٧) لمي عودة، والذي يتتبّع أطفالاً فلسطينيين يتعلّمون الرسم في زمن الاحتلال، وأيضاً فيلم «بلا سقف» (٢٠١٦) الذي تختار مُخرجته سينا سليمي قصّة امرأة غزّية تتلقّى مكالمة هاتفية تحذّرها من قصف منزلها بعد عشر دقائق خلال إعدادها وجبة الإفطار لأسرتها في شهر رمضان، كما عُرض فيلم «باب الشمس» (٢٠٠٤) ليسري نصر الله المقتبس عن رواية لإلياس خوري بالعنوان ذاته، وتدور أحداثه حول الشاب يونس الذي يغادر قريته في فلسطين ١٩٤٨، فيما تظل زوجته نهيلة متمسكة بالبقاء في قريتها في الجليل، إلى جانب أفلام «الشجاعية» (٢٠١٤) لمحمد المغني، و»الواقي الرصاصي» (٢٠١٣) لعرب وناصر طرزان، و»الأستاذ» (٢٠٢٣) لفرح النابلسي، و»إلى أبي» (٢٠٠٨) لعبد السلام شحادة، و»ليست فقط صورتك» (٢٠٢٣) لآن باك ودرور ديان.

وعُقدت، ضمن هذه النافذة، حلقة نقاشية بعنوان «الكاميرا في أزمة: عدسة على فلسطين»، تُخصص لمناقشة المشهد المعقد لصناعة الأفلام في فلسطين، وشارك فيها المخرجون والفنانون: رشيد مشهراوي، ونجوى نجار، وخليل المزين، وأحمد المنيراوي.

وتحت شعار «من نساء تونس إلى نساء فلسطين: ألمُ الأرض واحد»، انطلقت في فضاء «بِيبليوتِيه» بتونس العاصمة، فعاليات الدورة الأولى من تظاهرة «أيّام أصوات السينمائية"، التي تنظّمها «جمعيّة أصوات نساء».

وتضمّن البرنامج عرض ثلاثة أفلام وثائقية تُضيء جوانب من المقاومة الفلسطينية النسائية، وحقوق النساء العاملات في القطاع الفلّاحي في تونس، بالإضافة إلى حلقات نقاش حول «الدَّور الحيَوي للنساء في القطاع الفلّاحي، حيث يتم استكشاف تشابُك نضالهنّ مع نضال النساء الفلسطينيات المُقاومات، بما أنّ القضية النسائية

تتقاطع مع كلّ القضايا الإنسانية»، كما جاء في البيان التقديمي.

افتُتحت التظاهرة بفيلم «لو حكت أسماء» للمخرجة يافا عاطف، والذي يطرح معاناة الأسيرات الفلسطينيات في سجون الاحتلال الإسرائيلي، وتلا العرض نقاشٌ مع الأسيرة الفلسطينية المُحرّرة ميسر عطياني، والناشطة الحقوقية التونسية ومؤسّسة «مدرسة لينا بن مهني» هندة الشنّاوي.

كما عُرِض فيلم «احكي يا عصفورة» لعرب لطفي، والذي يتحدّث عن البُعد النسوي في المقاومة الفلسطينية، من خلال تجارب مُناضلات من جيل السبعينات، مثل: ليلى خالد وتيريز هلسة ووداد قمري، وتجربتهنّ في المقاومة من أجل فلسطين، وبعد العرض قدّمت ليلى خالد مُداخلة عبر مكالمة فيديو، بالإضافة لمشاركة من الحقوقية التونسية غادة شرّاد.

وبعد تأجيلها بسبب العدوان الإسرائيلي على غزة في تشرين الأول الماضي، انطلقت فعاليات الدورة الثانية من «الأيام السينمائية لفيلم التراث» في «قاعة سينماتيك» بالحزائر العاصمة.

التظاهرة التي نظّمتها وزارة الثقافة و»المنظّمة الجزائرية للتراث والسياحة والصناعة التقليدية» اختارت فلسطين ضيف شرف، عبر عرض مجموعة من الأفلام، منها: «جسر العودة» (٢٠٢٢) لعصام بلان، الذي يتناول قصصاً لفلسطينيين من أجيال مختلفة تمّ تهجيرهم قسراً على يد العصابات الصهيونية في العام ١٩٤٨ من مدينتي صفد وبئر السبع، كما عُرض ضمن قسم «بانوراما السينما الفلسطينية» فيلم «ميلاد مر» (٢٠١٧)، لمحمد الكرمي، الذي يصوّر الانتهاكات المتواصلة لجنود الاحتلال الإسرائيلي في مدن الضفة الغربية، عبر قصة لأسيرة فلسطينية لحظة المخاض، بينما يقدّم فيلم «جدتنا الزيتونة» (٢٠٢٢) لسعود مهنا، توثيقاً لرمزية شجرة الزيتون عبر التاريخ الفلسطيني، أما الفيلم القصير «وقعت عن الحمار» (٢٠١٩) لبشار النجار، المقتبس عن أحداث حقيقية عاشها أحد الأسرى الفلسطينيين داخل سجون الاحتلال تضمّنها نصّ للكاتب وليد الهودلي، وتروي فاطمة الحلو في فيلمها «آمال» (٢٠٢٢)، قصة فتاة فلسطينيّة تعيش مع جدّتها في أحد المُخيّمات في الضفة الغربية، فقدت والديها برصاص الجنود الإسرائيليين ولا تتمكّن في الذكرى السّنوية الأولى لاستشهاد والدها من زيارة قبره بسبب وضعها تحت الإقامة الجبرية من طرف الاحتلال، إلى جانب «غزال» (٢٠١٩) لأمجد أبو عرفة، و»عدت إليها» (٢٠٢٠) لغصون الماضي، وفيلم «القدس أرض الله الطاهرة» (٢٠٢٢) للمخرج الجزائري فؤاد روايسية.

وفي الدورة الرابعة عشرة من مهرجان كرامة لحقوق الإنسان في العاصمة الأردنية عمّان، كان الحضور الفلسطيني لافتاً، بعد أن حذفت كلمةُ المهرجان من اسم التظاهرة، واقتصرت فعاليات الدورة على عرض الأفلام، مع إلغاء جميع المظاهر الاحتفالية بما فيها جوائز المهرجان، عدا جائزة الجمهور، تضامناً مع غزّة.

وعبّرت جميع الأفلام التي تُعرض في الدورة الحالية في المركز الثقافي الملكي بالعاصمة الأردنية، عن الراهن الفلسطيني، كم أشار إيهاب الخطيب، بما يتوافق مع مساعي المهرجان إلى إعلان موقفه الذي أُطلق لأجله المتصلة

بحقوق الإنسان العربي، وإيصال رسالة إلى الغرب، بأن القضية الفلسطينية مركزية وأساسية لكل العالم العربي".

وشارك في المهرجان أكثر من أربعين فيلماً تمت برمجة عروضها خلال الأيام الثمانية، بالإضافة إلى ٣٠ فيلماً جديداً، جميعها تحمل رسالة دعم قضية فلسطين، بوصفها «البوصلة الأخلاقية لإعادة تعريف نضال العالم العربي وكافّة الشعوب ضد فوقية الاستعمار، ومشروعه الاستعماري الذي يستهدف الشعب الفلسطيني، وهو أمر يتخالف مع قيم وشرائع العدالة والحرية في جميع أنحاء العالم»، بحسب بيان المنظّمين.

وكان القائمون على المهرجان الدولي للفيلم الوثائقي والروائي القصير في مدينة مدنين التونسية على وشك إلغاء دورته التاسعة لهذا العام، بسبب إكراهات التمويل المالي، لكنّ حرب الإبادة التي شنّها الاحتلال الإسرائيلي على غزّة، جعلتهم يُعيدون النظر في ذلك، ويُقرّرون إقامة الدورة بما توفّر من إمكانيات، وتخصيص جانب كبير منها لفلسطين.

وعليه جاء تنظيم الدورة انطلاقاً في الرغبة في «أنْ تُسهم، من موقعها، في طرح القضية الفلسطينية باعتبارها إحدى القضايا التي تعوَّد المهرجان على طرحها، إضافةً إلى دعم المقاومة الفلسطينية في هذه الفترة التي تعيش فيها غزّة أبشع أشكال الانتهاك والعدوان».

وانطلقت الدورة الجديدة في المركز الثقافي بمدنين، لتستمرّ ثلاثة أيام، متضمّنةً عدداً من الفقرات عن القضية الفلسطينية، منها عروض أفلام حول المقاومة الفلسطينية، وتنظيم ندوة حول «توظيف الصورة في دعم المقاومة الفلسطينية». كما أعلن المنظّمون إلغاء كلّ أشكال الاحتفال خلال الدورة.

وتحت عنوان «أيام الفيلم الفلسطيني»، نظمت «الهيئة الملكية الأردنية للأفلام» في «سينما تاج» بعمّان عروضها لمجموعة أفلام فلسطينية استمرت لأسبوع، وهي: «ديغراديه»، و«حتى إشعار آخر»، و«غزة مونامور»، و«٣٠٠٠ ليلة»، و«المطلوبون الـ ١٨".

ثم أعادت الهيئة تنظيم فعالية جديدة تحت العنوان ذاته، بعدها بأسابيع، في «سينما الرينبو» بالعاصمة الأردنية، وضمّ بعض الأفلام التي عرضتها بالإضافة إلى الفيلم التسجيلي «إسعاف» (٢٠١٦) لمحمد الجبالي.

وبالتزامن مع العروض الوجاهية التي تنظّمها الهيئة، أطلقت عروضاً على منصّاتها الإلكترونية بهدف تقديم تجارب سينمائية أخرى تناولت مواضيع وقضايا تهمّ الشعب الفلسطيني، حيث يُعرض الفيلم الوثائقي «غزّة تنادي» (٢٠١٢) لناهد عواد، الذي يصوّر حياة سامر في رام الله بعيداً عن عائلته التي تعيش في غزة ولم يلتقيها منذ نحو ستّ سنوات، ولا تواصل بينهما إلا عبر شبكة الإنترنت.

كما تضمّن البرنامج الذي نُظّم بالاشتراك مع «مؤسسة الفيلم الفلسطيني»، عرض الفيلم الوثائقي «الشجاعية» (٢٠١٦) لمحمد المغنّي الذي يستهلّه بالوقوف أمام بيت في حيّ الشجاعية بغزّة دمّره القصف الهمجي الصهيوني، ليصوّر بعدها معاناة عائلته التي تُواجه عوائق عديدة في استمرار حياتها اليومية بعد انتهاء العدوان، أما فيلم

«حبيبي راسك خربان» (٢٠١١) للمخرجة سوزان يوسف، فتدور أحداثه حول قيس وليلى اللذين يتعلّمان في «جامعة بيروت»، حيث يدرس قيس التاريخ، وليلى الهندسة، ويقع كل منهما في حبّ الآخر وسط أخبار الحرب والدمار في غزّة، وعُرض أيضاً فيلم «قفزة أُخرى» (٢٠١٩) للمخرج الإيطالي إيمانويلي غيروزا الذي يصوّر مجموعة شبّان في غزّة اختاروا احتراف رياضة «الپاركور»، وفيلم "إلى أبي" (٢٠٠٨) للمخرج الفلسطيني عبد السلام شحادة الذي يصوّر قصته الشخصية في العيش تحت الاحتلال.

واختارت قناة «الجزيرة الوثائقية» عرض مجموعة من الأفلام ضمن سلسلتها الوثائقية «قصة فلسطين"، بالتزامن مع حرب الإبادة التي يواصل الاحتلال الإسرائيلي شنّها على غزّة، وهي تضيء محطّات تاريخية متعدّدة في سيرة النضال الفلسطيني.

من بين هذه الوثائقيات، فيلم «غريب في بلادي» (٢٠٠٩) من إعداد وإخراج فسنا شلبي، ويتضمّن شهادات من فلسطينيين يعيشون في المناطق التي احتّلت من فلسطين عام ١٩٤٨، حيث يعيشون واقعاً مركباً وصعباً تحت الاحتلال، ولديهم شعور بالغربة وهم في وطنهم.

كما يُعرض فيلم «الزواري.. طيار المقاومة» (٢٠١٧) من إعداد وتقديم تامر المسحال وإخراج أشرف المشهراوي، ويروي تفاصيل حياة واغتيال المهندس التونسي محمد الزواري، مخترع الطائرات المسيّرة والقيادي في كتائب عز الدين القسام، وقد اغتاله الموساد العام ٢٠١٦.

"عز الدين القسام – مفجر الثورة الفلسطينية الكبرى» (٢٠١٥) عنوان الوثائقي الذي أعدّته القناة، ويستعرض سيرة الشيخ عز الدين القسام الذي يُعد أول من رفع راية الجهاد ضد المشروع الاستعماري والصهيوني في فلسطين، حيث قدم إليها عام ١٩٢٩ وعمل في حيفا معلماً وإماماً من خلال مداخلات الباحثين والسياسيين، وهم: صقر أبو فخر، وسميح حمودة، وأسامة حمدان، وبيان نويهض الحوت، ومحسن صالح، وإبراهيم أبو جابر، وأحفاده إيمان محمد عز الدين القسام، وأحمد محمد عز الدين القسام، وابتهال محمد عز الدين القسام.

أما فيلم «فلسطين.. عودة مشتاق» (٢٠١٨) الذي أعدّته القناة، و يسجّل سيرة مدينة يافا الفلسطينية عبر شهادات عدد من الفرنسيين عاشوا فيها وأحبوها، وجاءت روايتهم تساند الرواية الفلسطينية وتصادقها، إلى جانب فيلم «وعد بلفور»(٢٠١٧) من إخراج محمد سلامة، ويناقش كيف انتقلت الرسالة التي عرفت باسم وعد بلفور من عنوان اللورد روتشيلد في وسط لندن إلى آفاق سياسية بعيدة مدفوعة بمصالح بريطانية وأحلام صهيونية، من خلال مداخلات لعدد من المؤرخين والمتخصصين في السياسة.

ويصوّر فيلم «السجن خارج القضبان» (٢٠١٢) من إخراج سوسن قاعود، الحياة اليومية لأسيرات فلسطينيات محررات من لحظة الإعلان عن نية إخراجهن من سجن الاحتلال الإسرائيلي ضمن صفقة «شاليط» التي قامت بتنفيذها «حركة حماس»، حيث تم تحرير ١٠٠٠ أسير فلسطيني و٢٧ أسيرة، كانوا وراء القضبان، ليواجهوا الواقع

الجديد الذي فرضه الاحتلال عليهم للمرّة الثانية ولكن خارج القضبان.

كذلك عرضت «الجزيرة الوثائقية» فيلم «عبّاس ٣٦» (٢٠١٩) من إخراج مروة جبارة طيبي ونضال علي رافع، والذي يقدّم قصة عائلتين فلسطينيتين سكنتا البيت نفسه في فترتين زمنيتين مختلفتين في شارع عباس ٣٦ بمدينة حيفا. من خلال رحلتين متوازيتين تسعى خلالهما العائلتان لاستعادة منزلهما.

وتضامناً مع قصص ونضالات الشعب الفلسطيني أطلقت مؤسسة الدوحة للأفلام في العاصمة القطرية سلسلة عروض سينمائية مُهداة إلى فلسطين تحت عنوان «أصوات فلسطينية»، عُرض في افتتاحها فيلم «الزمن المتبقي» (٢٠٠٩) لإيليا سليمان الذي يقدم فيه سيرته الذاتية يسرد عبرها بطريقة فنية ما شهدته الأراضي الفلسطينية منذ العام ١٩٤٨ إلى يومنا هذا من أحداث، وكيف اقتحمت العصابات الصهيونية المدن واعتقلت وقتلت وروّعت الفلسطينيين في مشاهد مختصرة تروي كيف أجبروا على مغادرة منازلهم ورحلوا عنها على أمل العودة إليها بعد أيام، وكذلك فيلم «حبيبي بيستناني عند البحر» (٢٠١٣) لميس دروزة، التي تقدّم وثائقياً عن رحلة عودتها لأول مرة إلى وطنها فلسطين، لتطرح من خلاله مجموعة تساؤلات عن مواصلة الحلم بالتحرر وعن مآلات النضال الفلسطيني خلال عقود، بالإضافة إلى عرض فيلم «٣٠٠٠ ليلة» (٢٠١٥) لمي المصري، وتدور أحداثه حول مُدَرِسة فلسطينية تُعتقل في أحد السجون الإسرائيلية بسبب تهمة لم ترتكبها، وبينما هي في السجن تلد ابناً، وتفاصيل معاناتها ومعاناة الأسيرات الفلسطينيات في سجون الاحتلال.

كما عُرض فيلم «فلسطين الصغرى.. يوميات الحصار» (٢٠٢١) لعبد الله الخطيب، وهو وثائقي طويل جمع مجمل أحداث مخيم اليرموك بالقرب من دمشق، التي دارت فيه منذ انطلاق الثورة السورية عام ٢٠١١ حتى تهجير آخر ساكنيه منتصف ٢٠١٨، في رحلة تعكس تراجيدياً أحد أبرز مخيمات اللجوء الفلسطيني سواء في كثافته السكانية أو التضحيات الذي قدّمها أبناؤه طوال السنين الماضية، فيما تواصلت سلسلة العروض في مسرح الدراما بالحي الثقافي (كتارا)، وبينها أفلام: «يد إلهية» (٢٠٠٢) لإيليا سليمان، و«السطح» (٢٠٠٦) لكمال الجعفري، و«ديغراديه» (٢٠١٥) لعرب وطرزان ناصر، و«٢٠٠ متر» (٢٠٢٠) لأمين أبو نايفة، و«واجب» (٢٠١٩) لآن ماري جاسر.

وفي تونس انطلقت تظاهرة سينمائية جديدة بعنوان «مئة فيلم على مئة شاشة»، تتضمّن عرض سلسة من الأفلام السينمائية الفلسطينية، أو التي تناولت القضية الفلسطينية، في مؤسّسات ثقافية بولايات تونسية مختلفة.

جاءت التظاهرة ضمن سلسلة الأنشطة التي تقوم بها المؤسَّسات الثقافية لمناصرة القضية الفلسطينية والتعريف بها للأجيال الجديدة، حسب مديرة مؤسَّسات العمل الثقافي في وزارة الثقافة التونسية ربيعة بلفقيرة، والتي اعتبرت، في تصريحات صحافية، أنّ من شأن السينما «تعريف الأطفال والشباب على القضية الفلسطينية انطلاقاً من سياقها التاريخي ومراحلها والمحطّات التي مرّت بها.

وتوزّعت العروض بين دُور الثقافة والمراكز والمركبات الثقافية والمكتبات العمومية. ومن بين الأفلام التي تُعرض ضمن التظاهرة: «كفر قاسم» لبرهان علوية الذي أُنتج في العام ١٩٧٥ وحاز جائزة «التانيت الذهبي» في «أيام قرطاج السينمائية» عام ١٩٧٨، و»أطفال شاتيلا» (١٩٩٨) لمي المصري.

وبثلاثة أفلام قصيرة، انطلقت عروض السلسلة الأسبوعية التي يخصّصها نادي السينما في «جمعية النهضة - مركز جزويت القاهرة» للسينما الفلسطينية، في تشرين الثاني الماضي.

وتضمّنت الأمسية ثلاثة أفلام، بداية بـ»مشاهد من الاحتلال في غزّة»، وهو للمخرج الفلسطيني الراحل مصطفى أبو علي من إنتاج العام ١٩٧٣، ويندرج في إطار أفلام الثورة الفلسطينية، وقد حاز العمل جائزة أفضل فيلم في «مهرجان دمشق السينمائي» (١٩٧٣)، وهو الفيلم الوحيد الذي أنتجته جماعة السينما الفلسطينيّة، التي أصبحت تُعرف، لاحقاً، بمؤسسة السينما الفلسطينيّة، ثم فيلم «ليس لهم وجود» (١٩٧٤)، للمخرج نفسه أيضاً، ويُصوّر الفيلم الغارات الوحشية على مخيمات النبطية وعين الحلوة والرشيدية والبرج الشمالي في جنوب لبنان، كمحاولات إبادة احتلالية ضدّ الفلسطينيّين، كما يُذكّر بمحاولات شبيهة ارتُكِبت في غير منطقة من العالم، وخُتمت بالفيلم الوثائقي «جنين جنين» (٢٠٠٢) للمخرج محمد بكري، ويوثّق العمل الأحداث التي وقعت في مخيم جنين للاجئين في نيسان ٢٠٠٢، حيث كانت هذه المجزرة ضمن عملية اجتياح شاملة للاحتلال الإسرائيلي على الضفة الغربية، وكانت تهدف من خلالها للقضاء على فصائل المقاومة الفلسطينية، واستشهد خمسون مقاوماً ودُمّرت عشرات البيوت في المخيم.

واستكملت العروض الأسبوعية، بفيلم «فرحة» (٢٠٢١)، للمخرجة دارين سلام، و"المخدوعون" (١٩٧٢) للمخرج توفيق صالح، و"لأن الجذور لا تموت" (١٩٧٧) لنبيهة لطفي، و"فلسطين في العين" (١٩٧٧) لمصطفى أبو علي، و"المنام" (١٩٨٧) لمحمد ملص، واختتمت التظاهرة بفيلم «حمى البحر المتوسط» (٢٠٢٢) لمها حاج.

وفي أعقاب إلغاء الدورة العاشرة من مهرجان أيام فلسطين السينمائية الدولي، وتنظمه مؤسسة «فيلم لاب فلسطين»، نظمت المؤسسة ومقرها مدينة رام الله، بمبادرة وشراكة محورية مع مؤسسة «أفلامنا» في العاصمة اللبنانية بيروت، و»أفلام س» في مصر، وبالتزامن مع ذكرى وعد بلفور المشؤوم، بدءاً من ٢ تشرين الثاني، بالتزامن مع ذكرى وعد بلفور المشؤوم، فعاليات «أيام فلسطين السينمائية حول العالم»، بواقع ١٧١ عرضاً في ٤١ دولة.

وتحت عنوان «يلّا غزة»، وبالتزامن مع اليوم العالمي للتضامن مع الشعب الفلسطيني (٢٩ تشرين الثاني)، نظمت منصة فلسطين الثقافية (المنصة) ومسرح وسينماتك القصبة، بالشراكة مع مؤسسة الفيلم الفلسطيني، فعالية سينمائية تضامنية لعروض أفلام أنجزها مخرجون أجانب، تواصلت حتى العشرين من كانون الأول ٢٠٢٣.

حملت الفعالية عنوان فيلم الافتتاح، «يلّا غزة» (٢٠٢٣)، للمخرج الفرنسي رولان نوريبه، في أول عرض له في المنطقة العربية، وهو الأحدث إنتاجاً من بين الوثائقيات الأجنبية حول قطاع غزة.

ضمت فعالية «يلّا غزة» سبعة أفلام، بواقع عرضين أسبوعياً، تتواصل على مدار قرابة الشهر في سينما القصبة بمدينة رام الله، ويُعرض فيها أفلام صنعها مخرجون من الولايات المتحدة الأميركية، وبلدان أوروبية عدّة، وأُنتج معظم هذه الأفلام بعد العام ٢٠١٠.

ومن بين هذه الأفلام، إلى جانب عرض الافتتاح «طريق السموني» (٢٠١٨) للمخرج الإيطالي ستيفانو سافونا، و»قفزة أخرى» (٢٠١٩) للمخرج الإيطالي إيمانويل جيروسا، و»غزة» (٢٠١٩) للمخرجين الإيرلنديين غاري كين وأندرو ماكونيل، و»نادي ركوب الأمواج» (٢٠١٦) للمخرجين الألماني فيليب غنادت والألماني المصري ميكي يمين.

وعرضت الفعالية، أيضاً، فيلم «غيتو غزة: صورة لعائلة فلسطينية» (١٩٨٤) للمخرجين السويديين بير ــ آكي هولمكويست وبيير بيوركلوند والمخرج الأميركي جوان ماندیل، وهو وثائقي يتمحور بالأساس حول حياة عائلة فلسطينية كانت تعيش في مخيم جباليا للاجئين، وقتذاك.

واختتما «يلّا غزة»، بفيلم «إيراسموس في غزة» (٢٠٢٢) في أول عرض له في فلسطين، ومن أوائل العروض له في المنطقة العربية، وهو من إخراج الإيطالية كيارا أفيساني والإيطالي ماتيو دلبو، والأخير كان من بين صانعي فيلم «قفزة أخرى تكفي».

يوثق «إيراسموس في غزة» الطريق التي سار عليها جرّاح إيطالي طموح، يُدعى ريكاردو كورادیني، هو أول طالب على الإطلاق ضمن برنامج التبادل «إيراسموس»، وعُرض عدد من المهرجانات السينمائية الدولية العام الماضي والحالي، وحاز عدداً من الجوائر.

لا يصور العمل تجربة كورادیني فحسب، بل ينقل أيضاً إحساسه الذي يعكس ما قد يعتمل داخل جيل بأكمله من الأوروبيين، أي إحساس أن تعيش كالسجين في منزلك تحت التهديد المستمر بالقصف.

بالنسبة لمخرجي الأفلام والجهات المنتجة والموزعة لها، فإن «يلّا غزة» فعالية يعبّرون من خلالها عن تضامنهم مع فلسطين، وخاصة قطاع غزة، كما أنّها بمثابة سردية تواجه سرديات الاحتلال بعيون سينمائية محايدة، وثقت ما رأته في القطاع المحاصر على مدار عقود.

أوراق الذاكرة

إبداع الحزن النبيل (١٩٤٨-١٩٥٥)

عبد القادر ياسين

حسب ناقد أدبي فلسطيني مرموق، كانت القصة القصيرة لسان حال المرحلة (١)، لما فيها من نفثة وجدانية، وبُعد عن التحليل، والتساؤل، والتعمُّق. وإذا كان الشعر اختار، بعد النكبة، التغني بالعز الضائع، وندْب حياة المخيم، والتنديد بتقصير الحكام العرب، وتهاون المسؤولين الفلسطينيين؛فضلاً على استنهاض الشِعر الهمم، والإلحاح على إحياء المجد العربي الغابر، ووجوب الرد السريع الحاسم على الصهاينة، وأسيادهم الاستعماريين؛ فإن القصة القصيرة زادت على هذا كله، اختيارها لمفاصل أقرب إلى روح المعالجة.(٢)

القصة القصيرة

لقد أعان الاحتكاك بالغربيين، منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، الفلسطينيين على فتح النوافذ على آفاق قصصية، وإن كانت النكبة أخذت القصة القصيرة في مسارب أُخرى (٣).

شقَّ طريق الفترة الأولى من المرحلة (١٩٥٥-١٩٤٨)، إميل حبيبي، الذي بادر إلى نشر قصة قصيرة، أرسلها من حيفا إلى بيروت، قبل أن يستوعب الناس نكبة ٤٨، ووقَّعها حبيبي باسمه الكتابي المعروف : «جهينة»(٤). وفيها يحاول فلسطيني تخليص آخر من يأسه، فيقصُّ الأول على الثاني حكاية فلاح تاه، فصادفته ضبع، لتقوده إلى وكرها، وينصاع الفلاح لها، لكن رأسه تصطدم بصخرة، على باب وكر الضبع، ويسيل دم الفلاح، ليثوُب إلى رُشده، ويسترد إرادته، فيقضي على عدوه.

في نهاية الفترة الأولى، أصدرت أسمى طوبي، مجموعتها القصصية «أحاديث في القلب»(بيروت، ١٩٥٥)، وفيها أوردت طوبي «مونولوج» لفلاح فلسطيني، بصدد الأرض: «لقد حرثها أبائي وأجدادي، لعشرات السنين.فلن أكون الرجل الذي يضيِّعها».

بيد أن بقية كُتَّاب القصة القصيرة لم ينسجوا على المنوال نفسه؛فثمة أمين فارس ملحس، الذي رصَّع الواقعية الجديدة بالرومانسية، قبل أن يصل إلى الواقعية الاشتراكية (٥). بينما غرقت سميرة عزام في سوداويتها، حيث بدأت إحدى قصص مجموعتها «أشياء صغيرة»(٦)، بالموت، فاليُتم، والرحيل، والشقاء، إلى أن تعود الأُم إلى ولدها البكر من زوجها الأول، ومعها ابنها اليتيم من زوجها الثاني.

الرواية

نأتي إلى الرواية الفلسطينية، وهي قرين استثمار الواقع؛ مع التصاق المُبدع، كشاهد مُلزَم بتقديم الحقيقة، ومُشارك في صنع الموقف السياسي. ولعل خصوصية الواقع الفلسطيني، المتمثلة في النفي والاقتلاع، كانت أهم ما دفع الروائي إلى الواقعية، ووسم أعماله بالانفعالية، المجلَّلة بالحزن، والحنين الرومانسي إلى المكان المفقود. وقد أخذت الرواية الفلسطينية تنحو، منذ ستينات القرن العشرين، منحى واقعيًا واضحًا، بسبب سيادة الأفكار، والمفاهيم التحررية الجديدة، وفي موازاة المد الاشتراكي، في الوطن العربي، منذ النصف الثاني من خمسينات القرن العشرين، ونموحركات التحرر الوطني في العالم الثالث، وانطلاق حركة التحرر الوطني الفلسطينية. كما خضعت الرواية لأدلجة شبه منهجية. وقد استنسخت الرواية الفلسطينية، بشكل متفاوت فنيًا، تاريخ فلسطين منذ « وعد بلفور»، حتى الراهن الفلسطيني. ويمكن أن نميِّز اتجاهات ثلاثة في الرواية الفلسطينية : أولها تاريخي، وثانيها اجتماعي، وثالثها سياسي (٧).

هذا روائي فلسطيني معاصر مرموق، ظهر أواسط ستينات القرن العشرين، يقدِّم شهادته، على تكوينه السياسي والأدبي (٨): « أنا من جيل قُذف به في هذه الحياة، ليواجَه في ضياع الوطن، والتشرُّد، والجوع، وامتهان الكرامة، وذل وقوف الآباء والأمهات طوابير، لتسلُّم معونات (وكالة الغوث). جيل أدرك أن موازين العدل مختلَة، وأن جولة الظلم تصوُل وتجوُل على أرض فلسطين، ورؤوس أهلها. طاحنة بعجلاتها، الثقيلة الوطأة، مفاهيم الحق، والعدل، والخير، والجمال.

أردَف: « كنا، ونحن نكبر في أتّون حياة شاقة، كلها شظف عيش، وبهدلة، أمام خياريْن : النسيان، والذوبان، والتلاشي، أوالمقاومة؛ وكان أن قاوم شعبنا، قاوم من جيل الآباء والأُمهات، وما تبقى من الأجداد؛ ومن الآباء والأجداد، رَوَت روح المقاومة نفوسنا، نحن جيل النكبة.

«أول أشكال المقاومة تجلَّت في أن أبناء كل قرية، ومدينة، تساكنوا متجاورين، في خيام المخيمات... واجهوا الأمراض بالنظافة، والجهل بالتعليم....

«وثالثة أشكال المقاومة، هي رواية الرواية الفلسطينية، شفويًا، من أفواه الآباء، والأُمهات، والأجداد، وصبَّها في ذاكرة الجيل الذي حُمِّل العبء صغيرًا، ونهض به كبيرًا. هذه الرواية لم تكتفِ بسرد جرائم بريطانيا المنتدَبة على فلسطين، أووقائع الحرب التي شنَّتها العصابات الصهيونية، أوتخاذل وتواطؤ نُظم حكم عربية، ولكنها ذهبت إلى الجذور، وزرعتها في العقول، والنفوس، والذاكرة، الفردية والجمعية «.

لقد عجزت الرواية عن اكتساب حضورها، قبل النكبة، أوأن تشكل إرثًا، وجذرًا لروايات ما بعد النكبة.ولأن الرواية تعبير بورجوازي، فقد تأخر ظهورها في فلسطين (٩)، وإن وصلت متأخرة، على يديْ جبرا إبراهيم جبرا، الذي تلقى ثقافته في الغرب؛ لذا، قدمت رواياته صورة مجتزأة، ومنحازة للواقع، فأسقطت ثقافة غربية على مجتمع متخلِّف (١٠).

بدأ النص الروائي بالرفض، معتمدًا، في رفضه، على مخزون الغضب التاريخي، والإرادة، المستندة إلى الحق، والعدل (١١).

في الفترة الأولى، لم تصدر إلا ست روايات فقط لفلسطينيين ؛ وقد جعلت صدمة النكبة من كل واقعة هزيمة، بسبب الخيانة، دون إهمال استنهاض الهمم، أواستنفار النفوس، أوالثورة على الأوضاع القائمة؛ لذا، كان طبيعيًا، أن لا تفتح النكبة فرصًا للسؤال الثقافي العربي، تحت وطأة التفسير الأُحادي، أيضًا. بينما شدَّدت روايات تلك الفترة على ضرورة أن يكون الفلسطيني فلسطينيًا(١٢).

لم تسجِّل رواية جبرا «صراخ في ليل طويل»(بغداد، ١٩٥٥) تحوُّلًا فنيًا فحسب، بل أرَّخت، أيضًا، للتحوُّل الاجتماعي في دنيا العرب. وعلى منوال جبرا، حاول خلفاؤه، خارج الوطن المحتل وداخله، أن ينسجوا (١٣).

من خلال فلسطين، وحولها، نرصد اهتمام جبرا بالقضايا العربية (١٤). بينما نمت شخصيات جبرا الروائية، من خلال ذكرياتها (١٥). واستقوى هذا الروائي، المتمكِّن من أدواته الفنية، بالرمز ، والثورة، على حد سواء (١٦).وظلت العودة هاجس جبرا المزمن.

الشِعر

مع التراجع الشديد للنشر، وضيق ذات اليد، انطلق شعراء فلسطين، غداة النكبة، إلى الجموع، يبثونها قصائدهم الحماسية؛ وهذا الشاعر اليساري المخضرم / ابن قرية الرينة (قرب الناصرة المحتلة)، حنا أبوحنا، يُخاطب الغاصبين الصهاينة:

أقوى وأصلب من حشود علوجهم

أبداً نشـيدي

شلَّت النكبة الشعب الفلسطيني، لكن شعراءه قهروا الشلل، على مدى الفترة الأولى من المرحلة المدروسة. وبينما تأرجح الشِعر، خارج الوطن المحتل، بين الإغراق في التشاؤم، وبين الاستفاقة إلى اقتراب الإنقاذ، فإن شعر الوطن المحتل أصرَّ على استمرار المقاومة، متشبثًا بالأرض (١٧).

لعل في هذا الفارق ما يفسِّر انخراط جُل شعراء الداخل المبكِّر في عضوية حزب الأقلية العربية المضطهَدة (الشيوعي)، رابطين القول بالفعل المقاوم.على العكس من فلسطينيي الخارج، الذين نأى معظم شعرائهم بأنفسهم عن الأحزاب السياسية، لما تجُرُّه عضويتها من تضحيات. وكان معين بسيسوضمن الشعراء القلائل الذي اختار الانخراط في العمل الحزبي، واعيًا ما ينتظره من آلام، لذا نظم :

من لم تودِّع بنيها بابتسامتها إلى الزنازين لم تحمل ولم تلدِ

أما فدوى طوقان، فأنشدت:

كفاني أموت على أرضها

وأدفن فيها

وتحت ثراها أذوب وأفنى

وأُبعث عُشبًا على أرضها

وأُبعث زهرة

تعبث بها كف طـــفل نمته بلادي

«إن الأرض هي الوطن، الذي يسكن جسده]الفلسطيني[...الانتماء للأرض، والالتحام بها...الانتماء... للهُوية الوطنية».(١٨)

استمر الشعراء يحرِّضون على الصمود، ويهوِّنون من المعاناه، ويخفِّفون من آلام الفقد.في قصيدته الشهيرة»هنا باقون»، قال توفيق زيَّاد :

هنا على صدوركم، باقون كالجدار

نجوع، نعرى، نتحدى

ننشد الأشعار

ونملأ الشوارع الغضاب بالمظاهرات

ونملأ السجون كبرياء

ونــصنع الأطفال، جيلاً ثائرًا، وراء جيل

كأننا عشرون مستحيل

في اللد والرملة والجليل

إنَّا هـنا باقون

فلتشربوا البحرا

نحرس ظل التين والزيتون

ونزرع الأفكار، كالخمير في العجين

برودة الجليل في أعصابنا

وفي قلوبنا جهنم حمرا

إذا عطشنا نعصر الصخرا

ونأكل التراب إن جعنا، ولانرحل

وبالدم الزكي لانبخل، لا نبخل، لانبخل

هنا لنا ماضٍ وحاضر ومستقبل

أما خارج الوطن المحتل، فتغنى الشعراء الفلسطينيون بالوطن الضائع، وبثُّوا الأمل في استرجاعه، وصوَّروا مأساة اللاجئين، الذين طحنتهم النكبة، ونددوا بتقصير حكام العرب، وقصور القيادة الفلسطينية. وفي هذا الصدد، أنشد الشاعر الفلسطيني، من مهجره في لبنان، محمد العدناني :

لولا التخاذل ما كانت زعامتنا من الذئاب ولا كنا من الغنم

على مـنواله نسج، من عمان، خليل زقطان :

يكفيك من زعماء قومك أنهم وقفوا على أشلائنا وتأسفوا !

بينما تردد صدى العدناني وزقطان، في دمشق، على لسان عبد الكريم الكرمي (أبوسلمى) :

زعماء ! دنَّسوا تاريخكمومملوك ! شرَّدوكم دون ذنب

انتهى أبوسلمى في القصيدة نفسها :

ياأخي ما ضاع منا وطن خالد نحمله في كل قلب

من غزة، أكد هارون هاشم رشيد بأن :

فلسطين التي ذهبت سترجع مرة أخرى

في قصيدة أخرى، أنشد الشاعر نفسه :

لن ينام الثأر في صدري وإن طال مداه

أما معين بسيسو، فتأسى على اللاجئين، وقد جرف السيل خيامهم (شتاء ١٩٥٣):

هنا العيون التي تصطك ميتة هنا الشفاه التي تدعو لثأر غد

مثَّلت فكرة العودة الأمل، الذي حرَّك الفلسطيني، وحثَّه على النضال من أجل وطنه. هذا حسن البحيري يُنشد، من دمشق:

وطني وأمجادي على ثغر الزمان تبسَّم

ولعودتي يوم به عُرس العُلا يترنَّم

...

بترابك الطهري وهوعلى اليهود مُحرَّم

لن يستقروا فوق أرضك والعروق بها دم

بينما غنى أبوسلمى لأمل العودة:

غدًا سنعود والأجيال تُصغي إلى وقع الخطى عند الإياب

نعود مع العواصف داويات مع البرق المقدَّس والشهاب

لقد كانت العودة هي الفكرة الموحِّدة للفلسطينيين، في الوطن، وأقطار اللجوء، على حدٍ سواء. ومن تحت نير الاحتلال، غنَّى توفيق زيَّاد:

أحبائي... برمش العين

أفرش درب عودتكم

برمش العين

وأحضن جرحكم

وألمّ شوك الدرب،

بالكفيْن

ومن لحمي

سأبني جسر عودتكم،

على الشطيْن

أما أبوسلمى، فأنشد:

كلما حاربت من أجلكِ أحببتك أكثر

أيُّ تُربٍ غير هذا التُربِ من مسكٍ وعنبر

أيُ أُفقٍ غير هذا الأفق في الدنيا مُعَطَّر

كلما دافعت عن أرضك عودُ العُمر يخضرُّ

وجناحي يا «فلسطيـــن»عن القمة يُنشَر

للفداءِ، غنَّى كمال ناصر:

فموتي حياة الجميع

سفحت ربيعي حزينًا، ليبقى الربيع

حين ألغى الزعيم المصري ، مصطفى النحاس باشا، معاهدة ١٩٣٦، مع بريطانيا، خريف ١٩٥١م.، اندلعت حربٌ فدائية ضد القوات البريطانية، المُرابطة في قناة السويس، ما دفع الطالب الفلسطيني في السنة الثالثة من كلية إعلام الجامعة الأميركية بالقاهرة، مُعين بسيسو، إلى أن يُقدم قصيدته الشهيرة «المعركة». وفيها أنشد:

أنا إن سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاح

واحمل سلاحي لا يُخِفك دمي يسيل من السلاح

وانظر إلى شفتيَّ أطبقتا على هُوج الرياح

وانظر إلى عينيَّ أغمضتا على نور الصباح

أنا لم أمُت، أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح

للعروبة حُصَّةٌ معتبرة في الشعر الفلسطيني المعاصر، وقد كثَّفت قصيدة لسميح القاسم معاناة الفلسطيني، وأمله في الانتصار، بالاتكاء على تراث أجداده المجيد:

دم أسلافي القدامى لم يزل يقطر مِني

وصهيل الخيل ما زال، وتقريع السيوُف

وأنا أحمل شمسًا في عيوني وأطوُف

في مغاليق الدُجى، جُرحًا يطوُف

الهوامش

(١) د.حسام الخطيب، ظلال فلسطينية في التجربة الأدبية، دمشق، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الثقافة؛دار الأهالي، ١٩٩٠، ص ٥٧.

(٢)الموسوعة الفلسطينية، القسم الخاص، المجلد الرابع، بيروت، ١٩٩٠ (أنظر: محمود شريح، الرواية والقصة القصيرة والمسرحية الفلسطينية [١٩٤٨ -١٩٨٥]، ص١٦٧-١٦٨).

(٣)د.عبد الرحمن ياغي، الأدب الفلسطيني الحديث، القاهرة، دار الكاتب العربي، سلسلة «المكتبة الثقافية « (٢٢٥)، ١٩٦٩، ص١٠، ٧٤، ٩٦.

(٤)لا حيدة في جهنم (قصة قصيرة)، الطريق (بيروت)، العدد ١٠، تشرين الأول /أكتوبر ١٩٤٨.

(٥)أمين فارس ملحس، قصص من وحي الواقع، القدس، مكتبة المنار، ١٩٥٢.

(٦)بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٤.

(٧)نعمة خالد، الذاكرة في الرواية الفلسطينية (شهادة)، صامد الاقتصادي (عمان)، العدد ١٣٦، سنة ٢٦، نيسان / أبريل ٢٠٠٤، ص ١٧٩-١٩٣.

(٨)رشاد أبوشاور، ذاكرة الكتابة والمقاومة (شهادة)، صامد الاقتصادي(عمان)، العدد ١٣٦، السنة ٢٦، نيسان /أبريل ٢٠٠٤، ص١٩٤-٢٠٧.

(٩)لمزيد من التفاصيل، يمكن الاطلاع على :

فاروق وادي، مدخل تاريخي للرواية الفلسطينية، شؤون فلسطينية (بيروت)، العدد ١١٠، كانون الثاني /يناير ١٩٨١، ص ١١٩ -١٣٢.

(١٠)لمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع إلى :

محمد كامل الخطيب، عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي، شؤون فلسطينية(بيروت)، العدد ١٠٢، آيار/ مايو١٩٨٠، ص ١٠٥-١٣٣.

(١١)د.مصطفى عبد الغني، نقد الذات في الرواية الفلسطينية، القاهرة، دار سينا؛ تونس، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الثقافة، ١٩٩٤(أنظر :المقدمة، ص٧-٢٠).

(١٢) الخطيب، مرجع سبق ذكره، ص٣٢-٣٤.

(١٣)شريح، مرجع سبق ذكره، ص١٦٨-١٦٩.

(١٤)مصطفى عبد الغني، فلسطين في أدب جبرا إبراهيم جبرا، شؤون فلسطينية (نيقوسيا)، العدد ٢٠١، كانون الأول /ديسمبر ١٩٨٩، ص٤٧-٥٩.

(١٥)لمزيد من التفاصيل، يمكن الاستعانة بـ:

فاروق وادي، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١، ص ١٥١.

(١٦) عبد الغني، فلسطين...، مرجع سبق ذكره

(١٧) محمود، مرجع سبق ذكره، الجزء الثالث:في المنفى، ص ٣٤٣.

(١٨)د. وليد سيف؛ وآخرون، القيم الثقافية الفلسطينية: ملامح وتحديات، القاهرة، الاتحاد العام للفنانين العرب ١٩٨٩(أنظر: د. صالح أبوأصبع، دور الثقافة والأدب والفكر في بلورة الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني، ص ٦٣-٦٥).

مخاض خمسة أعوام

رضوى عبد القادر

المكان :لبنان،ما بين العاصمة بيروت، وبلدة كيفونَ؛

الزمان:أحد أيام صيف ١٩٦٣ .

صعد سفير مصر في لبنان، اللواء عبد الحميد غالب،من بيروت، بحرِّها القائظ، ورطوبتها الخانقة، إلى بلدة كيفون،بهوائها العليل،ومصيفها المعروف. وكأن غالب، كان يصعد بالقضية الفلسطينية،دون أن يدري.ولكن لهذه الواقعة جذورًا عميقة، ضربت في الأرض.

مشوار الشقيري

بدأ أحمد الشقيري تعاونه مع جامعة الدول العربية، من خلال موسى العلمي، وعاشا معًا مرحلة التأسيس، ثم سافر الشقيري إلى واشنطن،سنة ١٩٤٥، لتأسيس فرع «المكتب العربي»، الذي ترأسه العلمي. واستمر الشقيري،منذ عودته من واشنطن،في العام نفسه،وحتى النكبة ١٩٤٨، متعاونًا مع الجامعة، بإعداد المذكرات، وحضور المؤتمرات، إلى أن أصدر مجلس الجامعة قرارًا بتعيين الشقيري، أمينًا عامًا مساعدًا لعبد الرحمن عزام باشا (١٩٥١/٢/٢). يقول الشقيري : « وكانت الجامعة تحاول، منذ زمن، أن تختار مساعدًا للسيد عزام، يشرف على تنظيم دوائر الجامعة، وخاصة السياسية، ولكن عزام لم يكن يرغب أن (يشاركه) أحد في الجامعة، على أن اختياري – أي الشقيري – كان فيه إرضاء للسيد عزام، وللحكومات العربية معًا، باعتباري [الشقيري]، فلسطينيًا، ولأني للأمة العربية، لا لدولة واحدة بالذات، غير أن سوريا اشترطت، غداة تعييني، أن أعمل في الوفد السوري في الأمم المتحدة،على سبيل الإعارة «. وهكذا كان، فقد غدا الشقيري مساعدًا للأمين العام في الجامعة العربية بالقاهرة، وممثلًا لسوريا في الأمم المتحدة، في الوقت نفسه، أثناء انعقاد دورتها . وقد استمر هذا الترتيب، حتى العام

١٩٥٧، حينما وافق الرئيس السوري، شكري القوتلي، على إعارة الشقيري إلى المملكة العربية السعودية، حيث عُيِّن سفيرًا دائمًا للسعودية في الأمم المتحدة. وقد كان الشقيري،خلال وجوده في الأمم المتحدة، خير محام عن القضية الفلسطينية، وعن قضايا العرب الأخرى، ولا سيما قضايا المغرب العربي. إلى أن جاءت مشكلة اليمن، العام ١٩٦٢، فكانت مغامرة الشقيري الأخيرة،وفصله عن عمله، أو طرده من منصبه، خريف العام التالي، وعُيِّن في جامعة الدول العربية، كمندوب لفلسطين، بعد أن شغر المنصب، بوفاة رئيس حكومة عموم فلسطين، أحمد حلمي عبد الباقي باشا، صيف ١٩٦٣،فكان طبيعيًا أن يقع اختيار الجامعة على الشقيري، ليقوم بالاستشارات، بهدف إنشاء كيان فلسطيني . (١)

نعود إلى اللواء عبد الحميد غالب، الذي وصلت سيارته إلى قصر منيف، في كيفون، حيث يقيم فيه الدبلوماسي البارع، والخطيب المفوَّه العربي الفلسطيني، الشقيري، الذي استقبل ضيفه على باب القصر، ثم دلفا إلى الداخل، وبعد المجاملات التقليدية، أبلغ السفير المصري مضيفه بأن الرئيس المصري، جمال عبد الناصر، يعرض على الشقيري تولي موقع مندوب فلسطين في جامعة الدول العربية. المفاجأة كانت في قبول الشقيري هذا العرض، رغم علمه بأن هذا الموقع لم يحظ بأي حيثية، مما يجعلنا نرجح بأن غالب قد كشف للشقيري بأن موقع المندوب ذاك، ليس إلا قنطرة لما بعدها، ما جعل الشقيري يقبل ذاك العرض المتواضع.

يحكي الشقيري نفسه:»أضمرت في نفسي العزم على الاستقالة، إذا وجدت الأمر مظهرًا لا جوهرًا،ونهضت في الصباح على أجراس التليفون من الإخوان الفلسطينيين من القدس، وعمان، وبيروت، يناشدونني القبول...وفي اليوم ذاته، جاءني وفد من اللاجئين من مخيم شاتيلا، في بيروت،ليعربوا عن سرورهم بتعييني لهذه(الوظيفة)، ولم أكتم عن الوفد ترددي وحيرتي، فإذا برئيس الوفد، وهو شيخ كبير، أخذ يشهق بالبكاء، وهو يصيح في وجهي: (يا حاج أحمد! أحلفك بالنبي الذي زرته أن لا ترفض، نحن نريد منك أن تبني الكيان الفلسطيني). لقد كان كلام هذا(الشيخ)هو الذي ثبتني على القبول، وقد أقنعتني دموعه، أكثر مما أقنعني وعد الرئيس عبد الناصر، ومعه الحكومات العربية مجتمعة...وسافرت إلى القاهرة، وفي صبيحة اليوم التالي، زرت الأمين العام للجامعة، السيد عبد الخالق حسونة، في مكتبه، الذي أكد لي رؤية الدول العربية أن تسند إليَّ منصب تمثيل فلسطين في الجامعة، باستثناء المملكة الأردنية الهاشمية، والمملكة العربية السعودية، وكدت أن أعتذر، ولكن ترجَّح عندي القبول، في النهاية؛ وبالفعل، عند انعقاد مجلس الجامعة(٩/١٩)،سجل وفدا المملكتين عدم موافقتهما على الترشيح؛ فالملك فيصل، بسبب إنهاء خدمتي،بالأمس،من المملكة، أما الملك حسين، فقد كنت، قبل ثلاثة أعوام، قد ألغيت موعدي معه،في نيويورك، بسبب خطابه في الأمم المتحدة، أما موقف الوفد العراقي، برئاسة الدكتور

ناصر العاني، فلم أفهمه،يومئذ...وفُتحت الأبواب للصحافيين والمصورين، بعد الجلسة السرية، وتلا الأمين العام للجامعة القرار،رقم ١٩٣٣،باختيار(السيد أحمد الشقيري مندوبًا لفلسطين لدى مجلس جامعة الدول العربية، وذلك طبقًا لملحق ميثاق الجامعة الخاص بفلسطين، وإلى أن يتمكن الشعب الفلسطيني من اختيار ممثليه)».(٢) ودعا القرار الشقيري لزيارة الدول العربية، من أجل "بحث القضية الفلسطينية، من جميع جوانبها، والوسائل التي تؤدي إلى رفعها إلى ميدان الحركة،والنشاط". وجاء في القرار، كذلك:(٣)

١-التأكيد على أن الشعب الفلسطيني هو صاحب الحق الشرعي في فلسطين،وأن من حقه أن يسترد وطنه، ويقرر مصيره، ويمارس حقوقه الوطنية الكاملة؛

٢-التأكيد على أن الوقت قد حان ليتولى أهل فلسطين أمر قضيتهم، وأن من واجب الدول العربية أن تتيح لهم الفرصة، لممارسة هذا الحق؛

٣-تأييد اللجنة للمبادئ العامة التي تضمنتها المذكرة العراقية، وتوصي بإحالتها،مع جميع المقترحات، والمذكرات المقدمة، منذ العام١٩٥٩، من الدول العربية، وأهل فلسطين، إلى حكومات الدول الأعضاء، لاستيفاء درسها بشمول، تمهيدًا لبحثها في اجتماع خاص، تعقده اللجنة السياسية،على مستوى وزراء الخارجية، في شهر شباط/فبراير١٩٦٤.

أصر الأردن على استبدال عبارة «الشعب الفلسطيني « بـ «الشعب العربي في فلسطين «، في حين دافع الشقيري عن الكيان الفلسطيني،في أول خطاب له بالجامعة، بقوله ؛ «إن أهل فلسطين قد أصبحوا قوة كاملة في الحقل العربي، منذ خمسة عشر عامًا، والكيان الفلسطيني يهدف إلى أن يصبح أهل فلسطين قوة وطنية عاملة، تسهم في تحرير فلسطين . إن الكيان الفلسطيني يريد أن يمكِّن القادرين على حمل السلاح من أبناء فلسطين، أن يحملوا السلاح لتحرير فلسطين». (٤) مع أن الشقيري ركز في كلامه،أمام مجلس الجامعة، على أن الهدف من الكيان الفلسطيني هو حمل السلاح،وتحرير فلسطين، فإن الدول العربية لم تفكر هذا التفكير، بل إن عبد الناصر، الذي وقف أكثر من غيره وراء إقامة الكيان، لم يهدف إلى ما هدف إليه الشقيري، إذ أوضح أن «الغرض من إنشاء كيان فلسطين هو مواجهة نشاط إسرائيل، لتصفية المشكلة الفلسطينية، و إضاعة حقوق الشعب الفلسطيني» . (٥)

جولة عربية

اتخذت الجامعة العربية، منذ إنشائها و حتى العام ١٩٦٣، خمسمائة و تسعة وثمانين قرارًا، تتعلق بفلسطين، دون أن تنفَّذ معظم تلك القرارات. وكاد القرار الذي اتخذه مجلس الجامعة،بخصوص

جولة الشقيري في العواصم العربية ؛ للقيام بالاستشارات مع ممثلي الشعب الفلسطيني، و الحكومات العربية،أن يصبح واحدًا من القرارات غير المنفَّذة، إلا أن الفضل الأكبر يعود للشقيري، الذي بادر بتنفيذ القرار من جهة،وإلى التسهيلات التي قدمتها له الحكومة المصرية من جهة أخرى. في هذا المجال، يعترف الشقيري بأنه استرضى «الحكومات العربية في اختيار الوفد الفلسطيني»، الذي يشكله، لاحقًا . ويضيف، قائلاً:»كان استرضاء الحكومات العربية أمراً لا مفر منه، في تلك المرحلة « .وبعد جولة في العواصم العربية، زار الشقيري خلالها عمان، ودمشق، وبيروت، وقطاع غزة، والقاهرة، قام بتأليف وفد فلسطيني،من ثمانية عشر شخصًا، لحضور دورة الأمم المتحدة للعام ١٩٦٣.(٦)

رحبت بعض الدول العربية بالشقيري، ترحيبًا كبيرًا، ومنعته بعضها، حتى من مجرد الدخول للاجتماع بالفلسطينيين على أرضها، ووضع البعض الآخر عراقيل، لكن الشقيري ذللها، وأما العقبات التي احتاجت إلى لقاءات طويلة، و حوارات، تكاد لا تنتهي،فكانت تلك مع الفلسطينيين أنفسهم، ذلك أن التنظيمات،و الجبهات، المسلحة والسرية، بشكل عام، لم تكن لتؤيد قيام كيان، بقرار الجامعة العربية،خوفًا من أن ينتهي هذا الكيان إلى مصير يشبه « حكومة عموم فلسطين «، و»الهيئة العربية العليا»، مجرد كيان بلا مضمون، بالإضافة إلى عدم وضوح الرؤية،بعد، بشأن طبيعة هذا الكيان،و مستقبله، لدى معظمها، و لدى معظم أبناء الشعب الفلسطيني، بطبيعة الحال (٧) .

يقول الشقيري إنه تحاور مع مختلف العقائديين، مع البعثيين ؛ والقوميين العرب، والشيوعيين *؛ والإخوان المسلمين ؛ وجبهات فلسطينية متعددة، ومنظمات أخرى، و وصف ذلك، بقوله : « وكان موقف هذه المنظمات يتراوح من المعارضة العنيدة، إلى (راقب و انتظر)،فقد كان البعثيون يرون الكيان الفلسطيني ألعوبة بيد عبد الناصر، وكان موقف جماعة (فتح) موقف المراقبة ؛ والشيوعيون لا يهضمون (تحرير فلسطين)، ويخاطبوني – أي الشقيري – وألسنتهم ثابتة في حلق موسكو، منطقًا ، و جدلًا،وفلسفة ؛ الإخوان المسلمون لا يؤمنون بأية حركة يساهم فيها الرئيس جمال عبد الناصر، من قريب أو بعيد ؛ والقوميون العرب يتحدثون من خلال القومية العربية، ولا يؤمنون بتجسيد الشخصية الفلسطينية، و أما الجبهات و المنظمات الأخرى، فتسخر من كل عمل يتصل بالجامعة العربية، بصورة أو بأخرى». ولم يتمكن الشقيري من إقناع الجميع، و استمر الهجوم على الكيان الفلسطيني، الذي لم يولد بعد، تحت شعارات :» كيان غير ثوري ؛ صنيعة الجامعة العربية ؛ الكيان لا يُبنى من فوق، بل من تحت ؛ الكيان الفلسطيني لا يفرضه الملوك و الرؤساء ؛ فهو يجب أن ينبع من إرادة الشعب ؛ إن الذي يريد أن يبني الكيان الفلسطيني؛يجب أن يقيم في مخيمات اللاجئين،لا في فندق سان جورج في بيروت». وعلى النقيض من هذه المواقف الحزبية المتشنجة، كانت المواقف الشعبية

*ينفي عبد القادر ياسين – أحد نشطاء الشيوعيين الفلسطينيين، حينذاك – أن يكون الشقيري حاور الشيوعيين، حتى أنه لم يختر أيًا منهم في المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول!.

فالاستقبال الشعبي لذي لاقاه الشقيري في قطاع غزة، أنساه تهجمات الآخرين، وكان صراخ الجماهير في غزة :» يا شقيري بدنا سلاح «، و تجاوب الشقيري، وتعاون معه الحاكم العسكري المصري لقطاع غزة، آنذاك، الفريق يوسف العجرودي، فعملا معًا على إنشاء أول معسكر للتدريب، في مخيم النصيرات، وتلك مأثرته الثانية، وهي إقامة معسكر للتدريب، حتى قبل أن توافق الدول العربية على الكيان الأم أولًا ؛ أما مأثرته الأولى، فهي إنشاء الكيان (الدستور أولًا، وإنشاء المؤسسات ثانيًا ؛ والتحرير ثالثًا)، فيما نبعت مأثرته الثالثة من الأولى، من قاعدة القوانين أولًا، فالصندوق القومي كانت له مكانته الأولى، قانونًا، لكن الأهم هو تعامل الشقيري نفسه مع هذا الصندوق القومي «، حتى قبل أن يولد ويتأسس – فكلمة « الشفافية» يمكن إطلاقها، دون تحفظ، على القواعد المالية التي اتبعها، وعلى تصرفه إزاء المال العام، و حرصه على التصريح بالمال . (٨).

أنهى الشقيري رحلاته ولقاءاته ؛ ومما لا ريب فيه أن موهبته الخطابية الخارقة ؛ وثقافته الواسعة ؛ وفلسطينيته، التي لا حدود لها ؛ و عروبته التي لا تُبارى، كل هذه الصفات، التي يندر اجتماعها في شخص واحد، كانت لها المكانة الكبرى في إلهاب مشاعر الناس، وفي التفافهم من حوله . (٩)

فاجأ عبد الناصر الجميع بخطابه في بورسعيد، في الذكرى السابعة لـ»عيد النصر» (١٩٦٣/١٢/٢٣)، حيث تعالى الرئيس المصري على جراحه، بسبب انفصال سوريا عن مصر، خريف ١٩٦١، واستعار الحرب الإعلامية بين مصر وسوريا، فضلاًعن،الحرب الشرسة بالبنادق، والمدافع، والطائرات، التي اندلعت في اليمن *، بعد الثورة الوطنية فيها، والأخيرة فصلها عن الانفصال نحو عام كامل.(١٠)

*معروف أن الحرب الأخيرة قد دخلت فيها عدة جيوش عربية، في مواجهة مسلحة، مقابل جيش الثورة اليمنية، والجيش المصري.

القمة العربية الأولى

تَمثلت المفاجأة المصرية في الخطاب، في دعوة عبد الناصر الملوك والرؤساء العرب، لعقد قمة عربية، في القاهرة، لمواجهة مشروع إسرائيل لتحويل مجرى نهر الأردن، واستجاب الحكام العرب لدعوة الرئيس المصري، وانعقدت القمة العربية الأولى، في القاهرة، بعد ثلاثة أسابيع من الدعوة المصرية. رحبت الدول العربية بالدعوة المصرية-

وإن بشكل متفاوت- متجاوزة بذلك العلاقات السيئة بين بعض الزعماء العرب، خاصة بين عبد

الناصر، وكل من الزعماء السعوديين،والقادة البعثيين. وعندما انعقد مؤتمر القمة العربي الأول، في الفترة من١٣-١٩٦٤/١/١٧، ناقش الملوك والرؤساء عدة قضايا، أهمها: تصفية الأجواء بين الزعماء العرب؛ وتحويل مجرى نهر الأردن؛ والقضية الفلسطينية، وبالذات الكيان الفلسطيني. ووافق الزعماء العرب، لأول مرة، على إنشاء الكيان الفلسطيني، مع العلم بأن الأطراف المهمة في المؤتمر لم تكن متفقة، في البداية، على قيام هذا الكيان؛ فقد رفض الملك حسين أن يشير البيان الختامي للقمة إلى الكيان الفلسطيني، غير أن الشقيري سارع إلى إلقاء خطاب أمام الملوك والرؤساء العرب، وجه فيه حديثه للعاهل الأردني، قائلًا :"أريد أن يكون واضحًا، أن الكيان الفلسطيني ليس حكومة، ولا يمارس سيادة، ولا يهدف إلى سلخ الضفة الغربية عن الكيان الأردني . وإنما هو تنظيم للشعب الفلسطيني، يتعاون مع جميع الدول العربية". ومن جهة أخرى، طلب الملك سعود، ملك العربية السعودية، تشكيل حكومة لفلسطين. أما سوريا، فقد رأت أنه لا فائدة للكيان من دون الأرض، ولهذا طلبت إعطاء الضفة الغربية وقطاع غزة للكيان، مما أثار الأردن . كما أن بعض الدول العربية، كتونس،والجزائر، أشار إلى ضرورة إنشاء جبهة تحرير وطنية متحدة . ولأن الدول العربية لم تكن متفقة على طبيعة الكيان الفلسطيني، وأهدافه، صدر البيان الختامي المشترك، من دون ذكر للكيان الفلسطيني، مكتفيًا بدعوة الشعب الفلسطيني إلى تنظيم نفسه، ليشارك في تحرير وطنه. وقرر المؤتمر، ضمن ما قرر: أولًا ؛قيام إسرائيل خطر أساسي يجب دفعه، سياسيًا، واقتصاديًا، وإعلامياً؛ ثانيًا،إنشاء قيادة عسكرية موحَّدة، وفق الصلاحيات، التي صدق عليها مجلس الدفاع المشترك، في دورته الثالثة (حزيران/يونيو١٩٦١) ؛ ثالثًا، إقامة قواعد سليمة لتنظيم الشعب الفلسطيني، أن يستمر السيد الشقيري، ممثل فلسطين لدى الجامعة، في اتصالاته بالدول الأعضاء، والشعب الفلسطيني ؛ بغية الوصول إلى إقامة القواعد السليمة لتنظيم الشعب الفلسطيني، وتمكينه من القيام بدوره في تحرير وطنه، وتقرير مصيره ؛ رابعًا، تشكيل لجنة للمتابعة والتنفيذ، ووضع الخطط اللازمة لاسترداد فلسطين إلى أهلها،مستخدمين الوسائل السياسية، والاقتصادية، والإعلامية.(١١)

يسرد الشقيري الاقتراحات التي جاءته من كافة تجمعات الشعب الفلسطيني، لحضور القمة الأولى، ومن بين هذه الاقتراحات: إنشاء جمهورية فلسطينية؛ تجنيد الشعب الفلسطيني لخوض معركة التحرير؛ المبادرة إلى إنشاء الكيان الفلسطيني؛ إجراء انتخابات للشعب الفلسطيني لاختيار قيادته الوطنية؛ استقلال العمل الفلسطيني عن الجامعة العربية، وغيرها الكثير من الاقتراحات. يضيف الشقيري:

" ولم أبالِ بذلك كله، لأني رأيت، في تلك المرحلة، أن أوجِّه اهتمامي لأمرين: الأول؛ أن يكون مؤتمر القمة لقضية فلسطين برمتها، ولا يقتصر على تحويل

الروافد؛الثاني، أن (أنتزع) من المؤتمر قرارًا بإنشاء الكيان الفلسطيني، مهما كانت صيغته. وبدأت

بالمطار، فرحت استقبل الملوك والرؤساء، أجامل وأتودد، وخاصة للملك حسين، فلابد للكيان الفلسطيني، في بدايته، من موافقة عمان، وكذا...وفي فندق هيلتون، أقبلت على الملك حسين، بكل جوارحي، لأفتح قلبه للكيان الفلسطيني، وقد أعانني في هذه المهمة رئيس الوزراء، السيد بهجت التلهوني».(١٢)

انشغل خبراء الفقه الدستوري، والعارفين بالمراسم الدولية، بأمر الشقيري: هل يحضر ممثل فلسطين مؤتمر الملوك والرؤساء، وهو ليس من الملوك والرؤساء؛ ولجأ الشقيري إلى الإنذار، وقال:»إن هذا المؤتمر سيجتمع من أجل قضية فلسطين، وأنا ممثل فلسطين، وإذا لم يشترك ممثل فلسطين في هذا الاجتماع، فليس أمامي إلا أن أستقيل من هذا المنصب، وأعلن ذلك على الشعب الفلسطيني». وأفلح الإنذار، وصدرت الصحف القاهرية، في اليوم التالي، وفي صفحتها الأولى: إن ممثل فلسطين سيشترك في مؤتمر الملوك والرؤساء. وجاءت، بعد ذلك، مشكلة جلوس الشقيري،» حيث أفتى خبراء البروتوكول بأن أجلس في طرف المائدة البيضاوية الشكل، في الصالة الكبرى في الجامعة، حيث سينعقد المؤتمر، وأن أجلس على كرسي عادي، لامزدوج، كالمقاعد المخصصة للملوك والرؤساء، وأن يكون هذا الكرسي بعيدًا، بمقدار خطوتين إلى الوراء،عن مقاعد الملوك والرؤساء، فقبلت الفتوى، وبيَتُّ في نفسي أمرًا... وفي الساعة الخامسة من ظهر اليوم الثالث عشر من شهر كانون الثاني/يناير١٩٦٤، غادرت فندق هيلتون، مع موكب الملوك والرؤساء، إلى قاعة الجامعة العربية، وتحت موجات من مصابيح المصوَّرين، الوافدين من كل أرجاء العالم، سرت في خطى ثابتة إلى المائدة البيضاوية الشكل، ودفعت بيدي الكرسي الصغير، الذي كان قد أعدَّ لي،خطوتين إلى الأمام،حتى أصبحت كتفًا إلى كتف مع الملك الحسن الثاني على ميمنتي،ورجال البروتوكول يحملقون فيّ، لهذه المخالفة الصارخة، ولم يجرؤ أحد أن يعيدني إلى الوراء، على مشهد من الصحافة، العربية والعالمية . وهكذا، تقدمت قضية فلسطين خطوة أخرى في زحفها المقدس، على طريق بناء شخصيتها وكيانها، وإثبات وجودها، في مؤتمر الملوك والرؤساء، حتى قبل أن تصبح دولة، وقبل أن يصبح لها رئيس».(١٣)

الهوامش

(١)للمزيد، انظر:

-أحمد الشقيري، أربعون عامًا في الحياة العربية و الدولية، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٦٩،ص٣٢٥، ٣٣٣؛

-أحمد الشقيري، من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء،بيروت،دار العودة،١٩٧١،ص٩-١٠؛

-مجموعة باحثين، أحمد الشقيري،بمناسبة الذكرى ال٢٥ لرحيله،بحوث و مناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية،بالتعاون مع لجنة تخليد ذكرى المجاهد أحمد الشقيري و معهد البحوث و الدراسات العربية، بيروت، أيلول / سبتمبر٢٠٠٥(انظر :بيان نويهض الحوت،الفصل الأول، شخصية أحمد الشقيري، ص٤٠).

(٢)الشقيري،من القمة...،مرجع سبق ذكره،ص٩-١٤.

(٣)للمزيد، انظر:

-جامعة الدول العربية، الأمانة العامة، إدارة شؤون فلسطين، قرارات مجلس جامعة الدول العربية الخاصة بقضية فلسطين، منذ الدورة الأولى حتى الدورة الخمسين(يونيو/حزيران١٩٤٥-سبتمبر/أيلول ١٩٦٨)،القاهرة،١٩٧٠،ص٢١؛

- عيسى الشعيبي،الكيانية الفلسطينية، الوعي الذاتي والتطور المؤسساتي ١٩٤٧-١٩٧٧،بيروت،منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٩،ص ٩١-٩٢.

(٤)الشقيري،من القمة ...، مرجع سبق ذكره،ص١٦.

(٥) عصام سخنيني،»الكيان الفلسطيني، ١٩٦٤-١٩٧٤،شؤون فلسطينية (بيروت)،العدد ٤١-٤٢،كانون الثاني / شباط (يناير/فبراير)١٩٧٥،ص ٧٧،نقلًا عن نشرة"الثأر"،١٩٥٥/٧/٨.

(٦)للمزيد، انظر :

-الشقيري،من القمة ...، مرجع سبق ذكره،ص٤٦؛

- د. أسعد عبدالرحمن (مشرفًا)، منظمة التحرير الفلسطينية :جذورها، تأسيسها مساراتها ، نيقوسيا، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٨٦(أنظر : د.عبد المعطي عساف، الفلسطينيون ودروب العمل الفدائي،ص ٦٩.

(٧) مجموعة باحثين، مرجع سبق ذكره(انظر : الحوت، مرجع سبق ذكره،ص٤٢).

(٨)للمزيد، انظر :

-المرجع نفسه، ص ٤٢-٤٣؛

-الشقيري، من القمة ... مرجع سبق ذكره،ص٧٩،٨٤-٨٠

(٩) مجموعة باحثين، مرجع سبق ذكره(انظر :الحوت، سبق ذكره،ص٤٣).

(١٠)مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر،القسم الرابع، فبراير/شباط ١٩٦٢ إلى يونيه / حزيران ١٩٦٤، القاهرة، وزارة الإرشاد القومي،مصلحة الاستعلامات،ت، ص٤٩٦ -٥٠٤،٤٧٩-٥٠٥.

للمزيد (خطبة عبد الناصر،ص٤٩١-٥٠٦).

(١١)للمزيد،انظر :

-ملف وثائق فلسطين، القاهرة، وزارة الإرشاد القومي في ج.ع.م.، الجزء الثاني، ١٩٦٩،ص١٢٧٣ ؛

-عبد الرحمن، مرجع سبق ذكره،ص٦٩-٧٠؛

-الشقيري،من القمة ...، مرجع سبق ذكره،ص٤٦؛

-مؤتمرات القمة ...، مرجع سبق ذكره،ص٢٧-٣٠.

(١٢)الشقيري،من القمة ...، مرجع سبق ذكره،ص٣٥-٣٧.

(١٣)للمزيد، انظر :المرجع نفسه،ص٣٤-٣٨.

الجيش وقوات التحرير

د. دينا العشري

ما من حركة تحرر وطني، إلا وبدأت مسيرتها بإشهار الكفاح المسلح، ضد من يحتل ترابها الوطني؛ ولم تكن «منظمة التحرير الفلسطينية» استثناءً في هذا الصدد، إذ استند وجودها، منذ البداية، على ثلاثة أعمدة، كان «جيش التحرير الفلسطيني» أحدها، بينما تمثل العمودان الآخران في مركز الأبحاث، والصندوق القومي، فضلاً على المستوى السياسي، المتمثل في المجلس الوطني الفلسطيني، واللجنة التنفيذية للمنظمة. وإن فرضت هزيمة ٦٧ على قيادة «المنظمة» صيغة حرب العصابات، فعمدت تلك القيادة إلى تشكيل «قوات التحرير الشعبية»، وهذا ما سوف نفصِّله، فيما يلي.

منذ البداية، عند تأسيس منظمة التحرير، تعالت الدعوات العربية، وخاصة الفلسطينية، إلى ضرورة إنشاء جيش تحرير فلسطيني، بطابع نظامي، قادر على استخدام طاقاته، الفنية، والبشرية، والمادية، لخدمة الكفاح المسلح، في سبيل كسر الحاجز النفسي، الذي سببته هزيمة ١٩٤٨، ونكبتها.

بعد استفحال أمر الحاجز النفسي، بفعل نكسة حزيران/ يونيو ١٩٦٧؛ صدرت القرارات من القيادة السياسية لمنظمة التحرير، بتشكيل «قوات التحرير الشعبية»،في شباط/فبراير١٩٦٨، ضمن إطار «جيش التحرير الفلسطيني»، لتكون ذراعه الفدائي، وتجسيدًا في جعله جيشًا ثوريًا، يشترك في القتال اليومي ضد العدو الإسرائيلي(١).

رغم اعتراض بعض الوفود العربية، منذ البداية، على تشكيل قوات مسلحة فلسطينية، ذات قيادة مستقلة، ورفضه أن يسمح بتجنيد الفلسطينيين المقيمين في الأردن، أو أن تتمركز قوات فلسطينية على أرضه، فإن وفودًا عربية كثيرة رحبت بقيام هذه القوات الفلسطينية، وأبدت استعدادها للسماح لها بالعمل فوق أراضيها . وقد بذل وفد منظمة التحرير جهودًا كبيرة، للخروج بقرار عربي حول الموضوع العسكري، الذي يشكل عماد الكيان الفلسطيني ، ووافقت القمة العربية ، منعًا لإثارة بعض الوفود، على أن تنشأ كتائب فلسطينية مسلحة، من أبناء فلسطين المقيمين في مصر، وقطاع غزة، وسوريا، والعراق، بدلاً من

«جيش التحرير الفلسطيني»، كخطوة أولى، على أن تخضع الكتائب لقيادة فلسطينية واحدة، وتصبح جزءًا من جيش التحرير الواحد، حين تسنح الفرصة بإنشائه. ووافق وفد منظمة التحرير، أيضًا، على أن يقوم التعاون والتنسيق بين القوات الفلسطينية، و»القيادة العربية الموحدة»، في التشكيل، والتدريب، والتسليح، والعمليات، لتقدم بذلك نموذجًا للعمل الفدائي(٢).

أما عن تشكيل «جيش التحرير»، فقد تألف، رسميًا، من ثلاث قوات:

(١)عين جالوت، المرابطة في مصر؛ (٢) القادسية، المرابطة في العراق، وإن انتقلت إلى الأردن، في حزيران/ يونيو ١٩٦٧، ومن ثم إلى سوريا؛ (٣) وحطين، المرابطة في سورية. وقد شاركت قوات «جيش التحرير»، في جميع معارك الدفاع عن الثورة الفلسطينية، والشعب الفلسطيني، كما في حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، إلى جانب الجيشين، السوري والمصري، ودافعت تلك القوات عن الثورة الفلسطينية، وفي جنوب لبنان، في السبعينات، ضد الهجمات، وأعمال القصف، والغارات الإسرائيلية(٣).

في بيروت، كانت إلى جانب «الحركة الوطنية اللبنانية»، وقد برع هذا الجيش ، أثناء حصار بيروت، في الدفاع عن المدينة، وأيضًا، أثناء حصار طرابلس بلبنان؛ وبعد العام ١٩٨٢، شارك الجيش في جميع المعارك التي وقعت، دفاعًا عن م.ت.ف.، وعن مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان*، وقد ارتفعت نسبة تمثيل جيش التحرير في «المجلس الوطني الفلسطيني»، إلى ٤٤عضوًا، بالتوازي مع التراجع الملحوظ في دوره القتالي(٤) !. وقد ترأس الدائرة العسكرية عرفات نفسه، فاللجنة التنفيذية للمنظمة هي المفوَّضة بتعيين القائد العام للقوات العسكرية، ورئيس أركانها، وعلى القائد العام تعيين أعضاء المجلس العسكري الأعلى، برئاسته. وقد تولت الدائرة العسكرية الإشراف على كلية أركان حرب الثورة الفلسطينية، ومهمتها تدريب الضباط، وإعدادهم للخدمة في صفوف القوات، التي عانت من محدودية فعاليتها؛ لوجودها خارج الأراضي الفلسطينية(٥).

قوات التحرير

كان «جيش التحرير الفلسطيني» أحد أطراف النزاع الأساسية في الصراع، جنوب لبنان، ومشاركته في حرب أكتوبر ،إلى جانب الجيش المصري، وكذلك في معركة الكرامة، إلى جانب الجيش الأردني.

*انتهت الهجمة الإسرائيلية (صيف١٩٨٢)، باتفاق على خروج القوات الفلسطينية من بيروت، حيث تناثرت هذه القوات بين سوريا، ومصر، والسودان،و اليمن، شماله وجنوبه، وليبيا، وتونس، والجزائر، والعراق؛ وبعد الخروج، اندمجت القوات الفلسطينية بجيش التحرير، وسُمي الجسم الجديد «جيش التحرير الوطني الفلسطيني»، وإن بقي الجزء المرابط في سوريا من ذلك الجيش، حاملاً الاسم القديم؛ وحين دخلت السلطة إلى الضفة والقطاع، حمل من تبقى من جيش التحرير اسم «جهاز الأمن الوطني".

ومع ظهور الأجنحة العسكرية، شكلت «قوات التحرير الشعبية»؛ التي تمثلت في الجناح الفدائي لجيش

التحرير الفلسطيني ، وشكل عتاده دبابات تي-٥٤ ، ومدرعات بي تي أر-١٥٢ ، ومدرعات UR-٤١٦، و مدرعات بي تي أر-٤٠، ودبابات تي-٣٤، ودبابات زي أس يو-٢٣-٤ شيلكا، ومدافع ميدان ١٢٥ ملم، ورشاشات مضادة للطائرات ، وقاذفات آر بي جي،و راجمات صواريخ غراد، بعد تعاظم شأن المنظمات الفدائية، ولا سيما حركة "فتح" و"الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»،و»الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين»، و»جبهة التحرير الفلسطينية» (الجبهة الشعبية – القيادة العامة، في ما بعد)، و»جبهة النضال الشعبي الفلسطيني»، حيث كان لقوات التحرير الشعبية في الأردن مجموعة من القواعد الفدائية: في القطاع الأوسط، بقيادة أحمد صرصور، وفي القطاع الشمالي، بقيادة يحيى مرتجى، وفي الكرامة، بقيادة نمر حجاج، علاوة على مركز تدريب في جرش، بقيادة وليد أبو شعبان، ثم توالى على قيادته كل من فايز جراد، وأحمد صرصور، ومحمد رزق أبو عبده. وقد تولى العقيد عبد العزيز الوجيه القيادة العامة لقوات التحرير الشعبية، في بداية انطلاقتها، وخلفه العقيد بهجت الأمين. وكان من بين ضباطها البارزين،الذين عملوا في قطاع غزة ، زياد الحسيني، وعبد القادر أبو الفحم، وجبر عمار، الذي صار أحد مؤسسي «حركة الجهاد الإسلامي»، مع رفيقه مصباح الصوري (٦).

لقد كان العمل الفدائي عنوانًا رئيسيًا من عناوين الفعاليات، التي دشنتها كوادر الانتفاضةالأولى (١٩٨٧-١٩٩٢)، من مختلف القوى الفلسطينية؛ فإلى جانب الفعل الشعبي الكبير، وإلى جانب الحجارة، وزجاجات المولوتوف ،كانت الانطلاقة المتسارعة للعمل العسكري المقاوم.

بيد أن تشكيل الأجنحة العسكرية للأحزاب، والفصائل الفلسطينية، الوطنية والإسلامية، تسارع، بعد انطلاقة الانتفاضة الثانية(٢٠٠٠-٢٠٠٤)، وكأمثلة على ذلك: «كتائب شهداء الأقصى،» التي تتبع حركة فتح، و»كتائب عز الدين القسام»، التي تتبع حركة حماس، و»سرايا القدس» التي تتبع حركة الجهاد الإسلامي؛ وكذلك الأجنحة العسكرية التي تتبع الجبهتين: الشعبية،والديمقراطية، فضلاً على أجنحة الفصائل الأخرى.

بالرغم من حرص القيادة على تشكيل «قوات التحرير الشعبية»، فإنها لم تنجح ، بالشكل المرغوب فيه، حيث قابلتها العديد من الصعوبات، لعل أهمها(٧):

١ـ القرارات الكثيرة المتناقضة، التي كانت تصدرها اللجنة التنفيذية للمنظمة، بغية وضع العراقيل والصعوبات أمام القيادة العسكرية، فتارة تصدر قرارًا بجعل العمل النضالي لقوات التحرير، مرتبطًا بالقيادة العامة لجيش التحرير، وآخر يجعله مرتبطًا بالمستوى السياسي للمنظمة؛

٢ـ كثيرًا ما كانت القيادة السياسية للمنظمة تطبِّق الجوانب الروتينية في إجراءاتها، نحو ذلك العمل، مما أدى إلى عرقلته؛

٣ ـ الاعتماد على الموراد المالية التي يدفعها الفلسطينيون فحسب، مع العلم أن هناك بعض الدول العربية

قادر على مد العمل الفدائي، بكل ما يلزمه من المال.

أما الفصائل الفدائية الفلسطينية، فبدلا من أن تستثمر السانحة الذهبية، المتمثلة في انتشار القوات الإسرائيلية، في المناطق التي احتلتها في حرب ١٩٦٧م، (قطاع غزة، الضفة الغربية، سيناء المصرية، والجولان السورية)، لتضع تلك الفصائل صيغة «حرب التحرير الشعبية»، موضع التطبيق، وقد غدا العدو في متناول اليد؛ وهي الصيغة التي تجعل لكل فرد في الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة حديثًا،آنذاك، دورًا، في مقاتلة الاحتلال؛ وبدلاً من ذلك، حرصت قيادات الفصائل، كل الحرص، على الاكتفاء برفع شعار «حرب التحرير الشعبية»، والتثقيف بها، فيما عمدت تلك القيادات إلى الاكتفاء بخوض «حرب كوماندوز»، حيث عمدت الفصائل إلى إرسال مقاتليها من خلف الحدود، إلى داخلها، مما عرَّض أولئك المقاتلين لأخطار جمَّة، في غير موقع؛ وهم يعبرون الحدود؛ أو في طريقهم من الحدود إلى مواقع الجيش الإسرائيلي؛ فضلاً على مرتين أُخريين، في طريقهم للعودة(٨). والدليل على ذلك، معركة الكرامة، التي اعتُبرت أبرز إنجاز عسكري فلسطيني في تاريخ الحركة الفدائية الفلسطينية، نتيجة لاضطرار العدو، المنتشي بانتصار حزيران/ يونيو، إلى الانسحاب من منطقة الكرامة، دون تنفيذ أهدافه كاملة، خاصة الهدفين، العسكري ،والنفسي؛ ورغم كثرة الخسائر البشرية في صفوف القوات الفلسطينية، حيث بلغت٣٣ شهيدًا، من «قوات التحرير الشعبية»، وحدها. فإنها اعتُبرت منتصرة، بالمقاومة التي صمدت في وجه العدو، وبالآفاق التي فتحتها «الكرامة» أمام العمل الفدائي الفلسطيني، مما جعل العلاقة العربية الرسمية مع حركة التحرير والمقاومة الفدائية مطلبًا تكتيكيًا ملحًا، للعديد من الزعماء والمسؤولين العرب(٩).

من ناحية أخرى، احتلت حركة «فتح» مكانة بارزة، شعبيًا ورسميًا، وأُعلن ياسر عرفات ناطقًا رسميًا باسم الحركة، في ١٥ نيسان/أبريل ١٩٦٨، كما دخلت العلاقة المصرية مع «فتح» مرحلة إيجابية، من الاتصال ، والتعارف، إلى التعاون، وهذا ما مكَّن عرفات من أن يصبح رئيسًا للمنظمة، ١٩٦٩، عقب إعادة تشكيل المجلس الوطنى الفلسطيني، مما جعل الحركة والقيادات الفلسطينية، ناهيك عن حركات المقاومة ، يبالغان في التفاؤل، مما أفقدهم توازنهم، في أكثر من معركة، أتت بعد ذلك(١٠).

كل ما سبق أضعف العمل الفدائي لجيش التحرير، بل أصابه بالشلل، أمام قدرة العدو، التي لا تكل ولا تمل، والذي كانت من أهم أهداف ذاك العمل (١١):

١ـ إعادة ثقة الشعب العربي بنفسه، بعد نكسة ١٩٦٧؛

٢ـ التأثير على اقتصاد العدو، وإفشال المخطط الصهيوني ،في جلب مهاجرين يهود جدد، إلى الأراضي الفلسطينية؛

٣ـ إعادة الثقة إلى نفوس الشعب الفلسطيني، في الأراضي المحتلة ، وخارجها، وإعطائه دوراً طبيعياً في معركة التحرير؛

٤ـ توعية الرأي العام العالمي بأن هناك شعبًا، هو الشعب الفلسطيني، شُرِّد من وطنه، ليحل محله دخلاء؛

٥ـ ضرب مخططات الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية، دون وجه حق.

ما جعل العديد من التحديات تواجه الكفاح المسلح ، بشكل عام، فقد كان متوقعًا أن تؤدي الممارسات العسكرية المتفرقة للفدائيين الفلسطينيين، في الأراضي الفلسطينية المحتلة، إلى تحويلها لحركة جماهيرية، ولكن النتائج جاءت مغايرة للتخطيط، فقد توقفت غالبية التنظيمات الفلسطينية عنه، وبقيت حركة «فتح» تقوم ببعض العمليات العسكرية المتفرقة، والمتباعدة زمنيًا، وكان أكبر اختبار لمدى حضور الكفاح المسلح في الأراضي المحتلة، هو الفترة العصيبة التي مرت بها حركة المقاومة الفلسطينية، في لبنان (١٩٧٢ - ١٩٨٢)؛ كما أنه لايمكن التقليل من غيرة وحماسة المناضلين الفلسطينيين، لممارسة الكفاح المسلح.وفي الوقت الذي لم يتوقف هذا الشكل الكفاحي، فإنه لم يتطور، الأمر الذي لا يعود إلى رغبة ذاتية، عند أولئك المناضلين، ذلك أن هنالك أسبابًا، لم يكن بإمكانهم تجاوزها(١٢).

كما لا ننسى أن استراتيجية «حرب التحرير الشعبية» ، بالرغم من هذه التحديات، فإن أساليب القتال المتبعة من قبل المقاومة، والحالة المعنوية لدى الجماهير الفلسطينية، هي التي جعلت الجيش الإسرائيلي يفشل في العدوان على لبنان، صيف العام ١٩٨٢م، في تحقيق أهدافه، فبدلاً من أن يُنجز مهمته، خلال أسبوع واحد، كما كان مخططًا له، نرى ذلك الجيش يضطر لخوض حرب مستمرة، لنحو ثلاثة أشهر متصلة، بالرغم من عدم التكافؤ في المعركة، ما بين الطرفين، كما ذكرنا سالفًا. كما أثبتت حرب العام ١٩٨٢م، أن الجيش الإسرائيلي يمكن أن يُقهر، أمام صمود المقاتلين والمناضلين، وكان لهذا الدرس أثره على الجماهير العربية، فلسطينية وغير فلسطينية ، وأثره السلبي، من ناحية أخرى، على التجمُّع الصهيوني. وقد أعادت هذه الحرب الاعتبار، بشكل ما، إلى الكفاح المسلح، وللصورة القتالية لمنظمة التحرير. فحرب العام ١٩٨٢ شكّلت، بحق، منعطفًا نوعيًا في الصراع العربي - الإسرائيلي(١٣).

عند تفحُّص الوضع في الضفة الغربية وقطاع غزة، نجد أمامنا منطقتين سكانيتين منعزلتين عن بعضهما البعض، والاحتلال لا يحتاج لنقل قواته إلى آلاف الأميال، والأعباء المالية، التي يعود مردودها السلبي، بتزايد المعارضة الإسرائيلية الداخلية للحرب؛ ولا يشعر موظفوه، وعساكره، بالغربة، وعدم الانتماء للبلد الذي يحاربون شعبه، وإنما يؤمنون بأن هذا البلد هو بلدهم، وتربطهم به روابط دينية، و»قومية» ؛ وأن الشعب الفلسطيني المقيم فيه، هو مجرد مجموعة من السكان، غير المرغوب في بقائها. وبصرف النظر عن عدم موافقتنا على تفكيرهم هذا، وقتالهم (الإسرائيليين)، فإن الجيش، وأجهزة القمع الإسرائيلية لا تعتبر نفسها تقوم بمهمة محاربة شعب آخر، ولا احتلال أرض أخرى، بل تعتبر نفسها تقوم بمهمة «تحررية»، وتحافظ على «ترابها الوطني»، وبيوتها، ووجودها، باعتبار أن ليس لها مكان آخر، تذهب إليه(١٤).

على الصعيد العملي، يمكن لأي إنسان ملاحظة أن الشعب الفلسطيني، في الضفة والقطاع، واجه قوة

عسكرية، تفوقه عددًا وعدة، ومعبأة أيديولوجيًا، باعتبارها قوة «محرِرة»، لدرجة أن أي موقع في الضفة الغربية لا يستغرق نقل الجنود الإسرائيليين إليه، إلا بضع دقائق، إذا ما كانت الحاجة لذلك شديدة الإلحاح؛ وقد أضيف إلى هذه الخاصية، بناء عدد ضخم من المعسكرات، أشبه بمستعمرات، في مختلف المناطق، بحيث تكفي نظرة واحدة إلى توزيعها، لملاحظة أن الضفة الغربية مقسَّمة إلى مربعات، ترابط على زواياها مستعمرات كولونيالية مسلحة؛ وقد وصفها شارون بأنها جزء من « نظام الدفاع الاستراتيجي» عن إسرائيل . وإلى جانب هذا، فإن الضفة، والقطاع مطوَّقان، كليًا، من الجهات الأربع. والمميزات، التي تمتعت بها الحركات المسلحة، المضروب بها الأمثلة، غير متوفرة؛ فليس هناك فيتنام الشمالية ، ولا دول الخط الأول في أفريقيا، بالنسبة لأنغولا، وزيمبابوي، كموزمبيق، وزامبيا، ولا أنغولا بالنسبة لناميبيا. هذه العوامل جميعها لم تساعد الحركات الفلسطينية المسلحة على بناء حركة مسلحة في المناطق المحتلة، واضطرتها، عمليًا، إلى التوقف عن الممارسات التي بدأتها، بعد هزيمة حزيران/يونيو ١٩٦٧م، ولم يكن ذلك لنقص في الرغبة، أو في البسالة، التي أظهرها الفدائيون، وإنما كان تحت وطأة العوامل التي أشرنا إليها(١٥).

فإذا كانت التجربة العملية، ونتائجها، هي برهان أكيد، فإن الصورة الحالية تعزز وجهة النظر القائلة بأن الوضع الاستثنائي الذي كان قائماً في المناطق الفلسطينية المحتلة، منذ الاحتلال الإسرائيلي (١٩٦٧) عمومًا، وبعد خروج المقاومة من الأردن (صيف١٩٧١) خصوصًا،لم يكن يسمح بممارسة «قوات التحرير الشعبية» للكفاح المسلح. ونضيف إلى ذلك، أن آلاف المناضلين من أبناء الشعب الفلسطيني، ومن منظمات المقاومة الفلسطينية المسلحة، قدموا تضحيات هائلة ،في سبيل تصعيد المقاومة؛ غير أن ما يستوجب أخذه بعين الاعتبار، وفقًا لدراسة أجرتها المحامية اليسارية الإسرائيلية المعروفة، ليئا تسيمل، أن أكثر قليلاً من ٩٠٪ من المسجونين، بتهم أمنية، أُلقي القبض عليهم، قبل أن يقوموا بأي عمل عسكري؛ وهذا يكشف، أيضًا، وبسبب العوامل التي ذكرناها في السابق، عن المصاعب التنظيمية الكبيرة، التي سبَّبها واقع وجود شعبنا، كأقلية، في هذه الرقعة، التي تتواجد عليها قوة مسلحة، تعتبر نفسها صاحبة الأرض، وتعد أكثر بكثير من عدد الفلسطينيين، أصحاب الأرض الأصليين(١٦) .

من هنا، نلاحظ أنه بالرغم من هذا الشوط الكبير، الذي قطعه «جيش التحرير» ، وما بذلته «قوات التحرير الشعبية» ، فإن عقد الأخيرة انفرط ، في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧١ ، عندما سُرِّح رئيس الأركان، اللواء عبد الرزاق اليحيى، والنقيب حسين الخطيب، قائد قوات التحرير في غزة، وحين أصدر ياسر عرفات، في ١٩٧٢/٩/٢٨ ، قرارًا قضى بتحويل مخصصات جميع أعضاء ق. ت. ش. إلى سجلات حركة فتح. وهكذا بدأت رحلة قوات التحرير الشعبية نحو الاضمحلال التدريجي، واندثرت هذه التجربة، تمامًا، فيما بعد، من دون أن تترك أثرًا مميزًا في التجربة العسكرية الفلسطينية. ولعل من الظلم تحميل هذه التجربة أكثر مما تحتمل، مع أنها قدمت شهداء كثيرين، في مجرى الكفاح الفلسطيني المسلح.

غير أن خضوعها لتجاذبات شتى، فلسطينية وعربية، جعلها تصاب بالشلل، أحيانًا، وبالتهميش، في معظم الأحيان. فقائد قوات التحرير الشعبية تابع لأركان جيش التحرير الفلسطيني، المنقسم بدوره، بحسب المحاور العربية الأساسية (مصر، وسورية، والعراق). والقائد النظري لجيش التحرير هو ياسر عرفات، وهو، في الوقت نفسه، قائد منظمة التحرير الفلسطينية، وحركة فتح معًا. لهذا كان كثيرون ينظرون إلى «قوات التحرير الشعبية»، كمنظمة فائضة، والأجدى أن ينضم عديدها إلى «فتح». أما جيش التحرير، فبسبب الولاءات المتعددة لقواته، بحكم جغرافية انتشاره، فقد اعتبره كثيرون عبئًا على «منظمة التحرير الفلسطينية»، وهو شأن موروث» كمؤسسة» لا بد منها بحكم الأمر الواقع(١٧).

وبين هذه الاعتبارات كلها، ضَمُر دور «جيش التحرير الفلسطيني»؛ حتى كاد يتلاشى، تمامًا، ولا سيما بعد الخروج من لبنان (١٩٨٢)، مثلما تلاشت «قوات التحرير الشعبية» حتى قبل الانتقال إلى لبنان، أواخر١٩٧١. والفارق أن هيكلية جيش التحرير لا تزال تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ، لأن بقاياه ما برحت موجودة في سورية، والأردن.

الهوامش

(١)جنان أحمد، قوات التحرير الشعبية، في : عبد القادر ياسين(تحرير)، أربعون عامًا من حياة منظمة التحرير الفلسطينية،دمشق، المركز الفلسطيني للتوثيق والمعلومات،٢٠٠٦، ص١٢٥.

(٢) أنور محمود، الأصداء العربية لظهور المنظمة، في:عبد القادر ياسين[تحرير]، أربعون عامًا من حياة منظمة التحرير الفلسطينية،دمشق، المركز الفلسطيني للتوثيق والمعلومات،٢٠٠٦، ص ١٦٥ ـ١٦٦.

(٣) يزيد صايغ، الكفاح المسلح والبحث عن الدولة الحركة الوطنية الفلسطينية، ١٩٤٩ ـ ١٩٩٣م، ترجمة : باسم سرحان ،بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٢م، ص ٣٧. ٤٠.

(٤)سامي مسلَّم، البنية التحتية والهيكل المؤسساتي لمنظمة التحرير الفلسطينية، شؤون فلسطينية(نيقوسيا) العدد ١٦٦ ـ١٦٧، كانون الثاني/ شباط (يناير ـ فبراير١٩٨٧)،ص٣١؛

ـ راشد حميد، مقررات المجلس الوطني الفلسطيني ١٩٦٤ ـ١٩٧٤، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث ، ١٩٧٥،ص٥٣ ، ١٢١، ١٢٦؛

ـ محمد السيد سليم، السياسة الخارجية لمنظمة التحرير، ص٤٣٢.في: بهجت قرني؛ وعلي الدين هلال، السياسات الخارجية للدول العربية، ترجمة: جابر سعيد عوض، القاهرة، مركز البحوث والدراسات السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٩٤؛

ـ الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الرابع، دمشق، ١٩٨٤،ص٣٢٥.

(٥) مسلَّم، مرجع سبق ذكره، ص٣.

(٦) انظر : مراجعة كتاب : علي بدوان، العنب والرصاص، دمشق، ٢٠٠٧، بقلم: نبيل السهلي، الجزيرة نت http://
-A٨٪D٨٪٨٦٪D٩٪B٩٪D٨٪٨٤٪D٩٪A٧٪D٨٪/١٣/٥/٢٠٠٧/www.aljazeera.net/knowledgegate/books
B٥٪D٨٪A٧٪D٨٪B٥٪D٨٪B١٪D٨٪٨٤٪D٩٪A٧٪D٨٪٨٨٪D٩٪

(٧) علي فياض، خمسون عامًا، على النكبة تجربة فلسطينية مشرِّفة في المقاومة والكفاح المسلح، صامد الاقتصادي(بيروت)، دار الكرمل للنشر والتوزيع، العدد ١١٤، تشرين الأول/أكتوبر، تشرين الثاني/نوفمبر، كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨، ص ٣٤ ،٤٠،٥٨.

(٨) المرجع نفسه، ص٤١.

(٩) عبد الله محمود عياش، جيش التحرير الفلسطيني وقوات التحرير الشعبية ودورها في مقاومة الاحتلال، بيروت، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠١٤م،ص٢٣١،٢٣٠.

(١٠)المرجع نفسه، الصفحات نفسها.

(١١)المرجع نفسه، ص٢٤٢.

(١٢)د. جمال العرجا، الكفاح المسلح شكل من أشكال النضال مارسه الشيوعيون الفلسطينيون، ٢٠ آيار /مايو ٢٠٠٩.

topic-http://palpeople.ahlamontada.com/t٧٠٥

(١٣) عبد القادر ياسين، سميح شبيب، ماجد كيالي، ندوة: الكفاح المسلح الفلسطيني التجربة والمحددات، شؤون فلسطينية (نيقوسيا)، العدد ٢٤٤ـ٢٤٥، تموز/ يوليـو، آب/أغسطس١٩٩٣م. انظر : العميد أبو أحمد فؤاد، عضو المكتب السياسي والمسؤول العسكري للجبهة الشعبية ، عضو المجلس العسكري الأعلى لـ م.ت.ف.، ص٩٩ـ١٠٠.

(١٤) العرجا، مرجع سبق ذكره.

(١٥)المرجع نفسه.

(١٦) عياش، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧٥:٤٧٧.

انظر، أيضًا:

ـ فياض، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٤ ـ٥٨؛

ـ محمد كريشان، ثلاثون عاما من الكفاح الفلسطيني، الجزيرة نت، ٢٠٠٥/١/١٠؛

D٨٪A٧٪D٨٪٨٤٪AB٪D٩٪D٨٪/١٠/١/٢٠٠٥/http://www.aljazeera.net/programs/guest-and-an-issue
٪D٩٪٨٨٪AB٪D٩٪

ـ مقابلة مع عبد القادر ياسين، في منزله، بالقاهرة، ٢٠١٤/٩/٢٢م.

(١٧) ماجد كيالي،نظرة نقدية في التجربة العسكرية الفلسطينية، شؤون فلسطينية(رام الله) العدد ٢٤٦ ، خريف ٢٠١١م،ص١١٠: ١٢٢.

الجذور والتراب (محمد أبو ميزر)
حوار عن القدس والمنفى والعودة الصعبة

محمد البريم

جاء كتاب الجذور والتراب حوار عن القدس والمنفى والعودة الصعبة، للقيادي في حركة فتح محمد ابو ميزر (أبو حاتم) في ٢٣٦ صفحة الصادر عن المركز العربي للأبحات ودراسات السياسات، يتناول فيه وقائع مهمة في حياته النضالية وقصة انتمائه إلى حزب البعث ثم انضمامه إلى حركة فتح وتسلمه مهمات الإعلام ثم العلاقات الخارجية فيها، ويكشف فيه كثيراً من الزوايا الظليلة في تجربة حركة فتح ويميط اللثام عن بعض الأسرار المتوارية استناداً إلى التجربة الشخصية الطويلة له في إطار الحركة ثم يستعيد وقائع وحوادث وسير أشخاص كان لهم الشأن البارز في الحركة الوطنية الفلسطينية المعاصرة.

وتكون الكتاب من ١٤ فصلاً جاء الفصل الاول بعنوان: «البدايات والمؤثرات الأولى «

ويتحدث أبو ميزر في هذا الفصل عن طفولته في مدينة الخليل وانتقال العائلة إلى القدس بعد موت والده سليمان ثم العودة إلى الخليل ثم إلى القدس ثانية واثر هذا التنقل في نفسه وتفتح وعيه السياسي في مدينة القدس.

ويقول ابو ميزر: «بعد حادثة الشبان اليهود وهم يحتفلون بقرار التقسيم، مررت بباب العمود، وكنت لا أزال داخل الباب، ولم أكد أخرج منه حتى سمعت انفجاراً كبيراً جداً، وتراكض الجميع إلى الباب لاستطلاع الخبر. وهناك عند باب العمود من الخارج، شاهدت منظراً لا يمكن أن أنساه طوال حياتي جثث ودماء مختلطة بالبضائع وقد تناثرت في المكان... يد ملتصقة بالسور، وقيل يوم ذاك إنها يد بائع السوس وكانت أصوات الناس كالجلبة، ولم افهم كلمة واحدة من الأصوات المتداخلة الغاضبة والخائفة. وذلك التفجير كان ناتجاً عن سيارة متفجرة كانت تسير نزولاً من الباب الجديد وباب يافا نحو طريق السلاطين باتجاه باب العمود، ثم توقفت السيارة قليلاً ورمت برميلاً من المتفجرات، وسارعت إلى الهرب نحو الجامعة العبرية ومستشفى هداسا. وكان الانفجار راعباً وتبين لاحقاً أن مستشفى هداسا والجامعة العبرية تحولا في هذه

الأثناء إلى ثكنتين عسكريتين يرابط فيهما جنود يهود وبالرشاشات المنصوبة في الموقعين سيطر اليهود على وادي الجوز وعلى باب الساهرة وعلى مدخل باب الاسباط ومنطقة المتحف سيطرة تامة «.صفحة (٢١-٢٢)

وجاء الفصل الثاني بعنوان: « ذكريات الدراسة وبواكير الوعي القومي» ويسترجع فيه ابو ميزر ذكرياته في حارة النصارى بالقدس ودراسته في الكلية الرشيدية، وكانت المدرسة الثانية من حيث المستوى العلمي بعد الكلية العربية «.

ويتحدث ابو ميزرفيه : « مدينة القدس أكبر بكثير من القدس القديمة، القدس القديمة مساحتها كيلو متر مربع واحد، وفيها مشاهد تاريخية لا تحصى ومن يرغب في معرفة ثقافة العالم وتاريخ العالم، لا يحتاج إلى الذهاب إلى أي مكان غير القدس. جميع الثقافات والحضارات والأديان موجودة في القدس، وانا أعرف القدس حجراً حجراً، وبلاطة بلاطة، وزاوية زاوية «. صفحة (٣٠)

وفي معرض سؤاله عن أوائل البعثيين في فلسطين يتحدث في نفس الفصل قائلا: « وبين هذه المجموعة من الطلاب والمدرسين التي تضم جميل ابو ميزر وبهجت أبو غربية وأحمد معتوق وعبد الجبار الأشقر عشت وتأثرت وتطور وعيي، ثم التحق بنا من نابلس عدنان كامل وعلى يدي بهجت ابو غربية في أواخر عام ١٩٥١ أقسمت يمين الانتساب إلى حزب البعث ورددت شعار: «وحدة- حرية- عدالة اجتماعية «. صفحة (٣٤)

وجاء الفصل الثالث بعنوان: «الوعي السياسي الجديد»

ويقول ابو ميزر: « كان النضال الوطني آنذاك في ذروة توهجه، وكانت المعارك السياسية محتدمة جدا على مستوى المواقف وعلى مستوى الأفكار». صفحة (٣٩)

ويقول في نفس الفصل: « كنا نتظاهر من اجل قضايانا العربية، وليس من أجل فلسطين وحدها وكانت مدينة القدس ميداناً للنضال السياسي، وكانت الفعاليات السياسية تتركز، أو تنطلق، من الحرم القدسي. ومع أن للحرم رمزية إسلامية، إلا أن المشاركين في الفعاليات السياسية كانوا من جميع الأطياف: البعثي والإخواني والشيوعي أحياناً. وأذكر من أهم الناشطين في حزب البعث أستاذ جاك وهو أرمني «. صفحة (٤٥)

ويتحدث: « في رأيي أن النصر يأتي من مصر والهزيمة تأتي من مصر، ولاسلام من دون سورية، ولا حرب إلا باجتماع مصر والشام معاً «. صفحة (٥١)

وجاء الفصل الرابع بعنوان: « مرض القدس»

ويقول فيه: « أربعون سنة مرت لم أزر القدس في أثنائها. وفي سنة ١٩٩٧ حينما عدت إلى الضفة الغربية مع زوجتي مي الصايغ، جاء ابن خالي ماهر الشيخ وزوجته من حي الشيخ جراح، واصطحباني من الرام إلى القدس مروراً ببيت حنينا ثم شعفاط. وأكثر ما لفتني الطريق من منطقة الرام إلى الشيخ جراح، والتغيير الهائل الذي حصل في هذه المنطقة التي صارت كلها منطقة واحدة متصلة حتى رام الله. وفي الشيخ جراح كانت هناك

منطقة يسمونها أرض السمار، أو الفيلا الفرنسية التي كان الملعب البلدي جزءاً منها. وليس بعيداً عن الملعب يقع مبنى الاونروا الذي حل في محل المقر السابق للشرطة الإنكليزية. وكنا نداوم تقريباً في الملعب، خصوصاً في أواخر السنة الدراسية، حين تبدأ الاحتفالات واستعراضات الحرس الوطني الأردني والمباريات الرياضية. المفاجأة أني بحثت عن المكان فلم أجده. وقد نشأ في مكانه موقف للباصات «. صفحة (٥٥).

ويقول ايضا: « لم يطرأ عليها أي شي، ولم أكتشف أي جديد إلا المصلى المرواني الذي لم اكن أعرفه. وقد أيقظت زيارتي تلك ذكريات قديمة. صدقني أنني شعرت بهراوات الشرطة تنزل على أكتافي وعلى رأسي». صفحة (٥٨).

وجاء الفصل الخامس بعنوان: « الثقافة والمكان»

ويتحدث أبو ميزر: « في البدايات الفكرية، قرأت كتباً لا علاقة لها بحزب البعث مثل كتب خالد محمد خالد، ومن أهم كتبه التي قرأتها في تلك الفترة من هنا نبدأ وكي لا تحرثوا في البحر، ومواطنون لا رعايا وخالد وعمر. لاحظ أن الخيط الذي يربط هذه الكتب هو رفض الدكتاتورية العسكرية والدكتاتورية بشكل عام، والتركيز على الديمقراطية. وهذه الكتب تأثرت بها كثيراً مع أبناء جيلي الذين عشنا معاً في دائرة المكان الواحد في تلك المرحلة، أي في القدس. وفي تلك المرحلة، أي في النصف الأول تقريباً من الخمسينات، كانت الصين قد استقلت في سنة ١٩٤٩ واتخذت لنفسها نهجاً سياسياً مستقلاً عن الاتحاد السوفياتي. ومن أوائل الكتاب والصحافيين العرب الذين زاروا الصين الشعبية في تلك الفترة كان محمد عودة؛ فقد زار الصين في سنة ١٩٥٢ وكتب عنها كتاباً بعنوان «الصين الشعبية». وكان أول كتاب بالعربية عن الصين الشعبية ومن الكتب التي تأثرت بها كتابات مصطفى لطفي المنفلوطي «. صفحة (٦٧)

ويقول في نفس الفصل: « لايمكن فصل مرحلة القدس عن مرحلة القاهرة. في تلك الأثناء قرأت كثيراً من الأدب الوجودي، ولكن قبل الأدب الوجودي قرأت الأدب الروسي الكلاسيكي، خصوصاً روايات دوستويفسكي وتولستوي، والأدب الكلاسيكي الفرنسي والبريطاني مثل قصة مدينتين لتشارلز ديكنز، والبؤساء لفيكتور هوغو، وبائعة الخبز لكزافيه دومنيان «. صفحة (٦٩)

ويتحدث قائلاً: « وهنا أفرق بين شعر محمود درويش وشعر الآخرين؛ بين أدب المقاومة الذي يعبر عن المقاومة، والأدب المقاوم الذي يمهد للمقاومة، والذي لم نعرفه في فلسطين بصورة جلية. ومن الشعراء الذين مهدوا للمقاومة إبراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمي (أبوسلمى)، وقد تستغرب إذا ذكرت لك من الشعراء احمد حلمي باشا ... نعم احمد حلمي باشا وله ديوان شعر. ولا ننسى أهمية مراكز البحوث والدراسات في إرساء الفكر الفلسطيني على دعائم متينة مثل مؤسسة الدراسات الفلسطينية ومركز الأبحاث ومركز التخطيط «. صفحة (٧١)

ويقول أيضاً: « لم نقرأ لا التوراة ولا الأناجيل، ولم نقرأ أي شي يتعلق بالعدو الصهيوني، فقد كانت القراءة عن إسرائيل محرماً من المحرمات وكان محرماً حتى الاستماع إلى الإذاعة الإسرائيلية. قرأنا عن مؤسس الحركة

الصهيونية تيودور هرتزل وعن كتاب دولة اليهود، لكن من شبه المحال أن تعثر على من قرأ بالعربية كتاب دولة اليهود قبل عام ١٩٧٥ «. صفحة (٧٢).

ويتطرق أبو ميزر إلى الشخصيات التي كانت تمثل قدوة له في تلك المرحلة: « الاستاذ بهجت أبو غربية والدكتور جميل أبو ميزر وتوفيق أبو السعود والأنبا ياكوبس، مطران دير الأقباط، وعبد الله نعواس الذي فاز في الانتخابات النيابية عن القدس، وكذلك عبد الله الريماوي الذي فاز بالنيابة عن رام الله، والاثنان بعثيان «. صفحة (٧٥)

والفصل السادس جاء بعنوان: «البعث»

ويقول أبو ميزر: « إن حزب البعث الذي انتميت إليه في شبابي المبكر هو حركة تحرر وطني أكثر من كونه حزباً عقائدياً. وانتمائي إلى هذا الحزب كان بدافع من هذا الأمر المؤثر. أما المؤثرات الخاصة، فهي إقامة عائلتي في حارة النصارى، في محلة تدعى حارة الجبشة. ومشاهدتي للطريق بين الزاهرة وباب العمود، أي بين البيت والمدرسة، والتي سيجت كلها بالاسلاك الشائكة، ومنع المرور منها وإليها جراء الملاسنات التي تحدث بين الجنود الاردنيين على السور وجنود الهاغاناة، ولاسيما في مبنى نوتردام وكثيراً ما تحولت الملاسنات والشتائم إلى المراشقة بالحجارة، ثم يتطور الأمر إلى استعمال الرصاص. ويومياً حين كنت أذهب من البيت إلى المدرسة فوق السور أرى جنود الهاغاناة أمامي، وكذلك الأسلاك الشائكة. وهذا المنظر كان يطبع ذاكرتي ويملأ نفسي بالغضب «. صفحة (٩١)

وجاء الفصل السابع بعنوان : «القاهرة»

وفيه يتذكر أبو ميزر لقاءه بميشيل عفلق في القاهرة في سنة ١٩٥٩

ويتحدث أبو ميزر: « حين بدأت مباحثات الوحدة المصرية – السورية، اشترط جمال عبد الناصر، كما هو معروف، حل الأحزاب في سورية كما جرى في مصر. وجرى حل حزب البعث في سورية. لكن الحل لم يشمل البعثيين الموجودين في دمشق أو في القاهرة أو فروع حزب البعث خارج سورية. واختلف البعثيون في الموقف من قرار الحل، وراح بعضهم يبرر ذلك بالقول إن الحزب صار يتخبط في مشكلاته التي لا يمكن حلها إلا بحل الحزب. وكان لأعضاء القيادة مصالح متنافرة؛ فأكرم الحوراني يريد أن يصبح رئيساً للجمهورية، وميشيل عفلق يريد أن يرتاح من البعثيين السوريين «. صفحة (١٠٧).

ويقول أبو ميزر في نفس الفصل: « وأنا أرى أن العلاقة مع سورية، بغض النظر عن سياسات الرئيس حافظ الأسد وبغض النظر عن أي نظام في سورية، لا تحتمل استقلالية فلسطينية بالمطلق. والحل هو التنسيق الكامل بين الطرفين، لأن قضية فلسطين تمس مصير سورية «. صفحة (١١٢)

ويقول أيضا: « فلسطين ليست خارج سورية بل في داخلها. وأبعد من ذلك، فإن كل ما يجري في سوريا نفسها

هو قضية داخلية فلسطينية أيضاً. هذه وجهة نظري التي دفعت ثمنها في حركة «فتح»، وأنا مستعد لأن أدفع ثمنها مرة ثانية إذا لزم الأمر». نفس الصفحة

والفصل الثامن حمل عنوان: «المرحلة الجديدة»

ويتحدث أبو ميزر عن ذكرياته في أيام العدوان الثلاثي على مصر وعلاقته ضمن رابطة الطلاب الفلسطينيين ويقول: « في الرابطة التقيت بعضاً ممن أصبحوا من قادة العمل الوطني الفلسطيني اللاحق. وعلاقتي بالرابطة مرت بمرحلتين: مرحلة طالب بعثي ينشط في إطارها، ثم في سنة ١٩٥٨ عندما أصبحت أحد ممثلي حزب البعث في آخر هيئة إدارية لرابطة طلاب فلسطين وكان التحالف قائماً بين البعثيين والقوميين العرب والإخوان المسلمين والمستقلين. أما الشيوعيون، فلم يكونوا في الهيئة الإدارية للرابطة بعد مذابح الموصل. كان البعثيون، أعضاء الهيئة الإدارية، خمسة، بمن فيهم الرئيس سعد الدين الغندور». صفحة (١٢٥)

وجاء الفصل التاسع بعنوان « الفتح بعد البعث»

ويقول فيه: « في الكويت بعد أن غادرت ليبيا، أي إنني سمعت باسم حركة «فتح» في أوائل سنة ١٩٦٢. أخبرني صديقي فاروق القدومي أن هناك حركة وطنية فلسطينية اسمها «فتح»، وهي تدعو إلى الكفاح المسلح لتحرير فلسطين». صفحة (١٣٣)

ويتحدث في نفس الفصل: «أول مرة تعرفت فيها إلى ياسر عرفات في القاهرة حين أسس جمعية الخريجين الفلسطينيين بعد تخرجه مهندساً في جامعة القاهرة. آنذاك عرفته قليلا. وكان ذلك اما في سنة ١٩٥٦أو في سنة ١٩٥٧. لم تكن علاقتنا على أساس إخواني أو بعثي. وعندما ذهبت إلى الكويت في سنة ١٩٦٢ التقيت عبد المحسن أبو ميزر الذي كان يعمل في الكويت، ويسكن منطقة الصليبخات. وفي أحد الأيام قال لي: ما رأيك أن نزور صديقاً اسمه يسري. فقلت له: لم لا. وعندما وصلنا إلى مبنى يقطنه المهندسون قيل لنا إن يسري غير موجود. وفي تلك الأثناء وصل شخص فإذا به ياسر عرفات الذي كانت تربطه بعبد المحسن أبو ميزر صداقة وثيقة منذ عهد رابطة الطلبة في القاهرة. وجلسنا معاً في صالون المبنى، ودار الحديث على الرئيس جمال عبد الناصر ولقائه الوفد الغزاوي، وتصريحاته في شأن عدم وجود خطة لتحرير فلسطين «. صفحة (١٣٦)

وحين سؤاله هل كان اسمه في الكويت ياسر عرفات؟ يجيب أبو ميزر: « نعم. وبهذا الاسم كان يعرف نفسه. ومنذ رئاسة رابطة الطلاب الفلسطينيين كانوا ينادونه «الرئيس» وهو كان يسعى دوماً للزعامة». نفس الصفحة

وعن صلاح خلف (أبو أياد) ينوه أبو ميزر: « لم أتعرف إليه في الكويت لأنني لم أمكث طويلاً، بل ذهبت إلى الجزائر في سنة ١٩٦٦ غداة مقتل النقيب الفلسطيني في الجيش السوري يوسف عرابي. آنذاك جاء أبو اللطف من الكويت إلى دمشق لمعالجة ذيول تلك الحادثة، خصوصاً أن أبو عمار وأبو جهاد اعتقلا مؤقتاً. واختيار أبو اللطف لمعالجة تلك الحادثة جاء لأنه، إلى زمن قريب، كان لا يزال بعثياً، وتربطه بقيادة البعث

علاقات وثيقة. وكان مع أبو اللطف صلاح خلف ومحمد يوسف النجار. وفي دمشق التقيت أبو أياد أول مرة. وبعد إقفال تلك القضية بفترة، سافرا إلى الجزائر حيث كنت أقيم وأتولى المسؤولية عن مكتب حركة «فتح» في الجزائر بعد خليل الوزير، ونزلا ضيفين لدي في البيت «. صفحة (١٣٨-١٣٩)

وعن صدام حسين يتحدث ابو ميزر: « أما صدام حسين، وكان صديقي، ولدي ملاحظات كثيرة جداً على منهجه وسلوكه السياسي وطريقة حكمه، مثلما لدي تحفظات على حكم البعث في سورية في زمن الرئيس حافظ الأسد وفي أيام الرئيس بشار الاسد. وأنا في هذه القضايا أفرق بين سورية ونظامها السياسي، وأفرق بين العراق ونظامه السياسي. فالنظام يخطئ ويزول، لكن الوطن هو ما نخشى عليه. لقد دمروا العراق، وبتدمير العراق كسروا ظهر سورية استعداداً لتدميرها. وإعدام صدام مر بمرحلتين: الاولى أي المحاكمة، كان في أثنائها شجاعاً ومشرفاً. والثانية الإعدام والمفاجأة هي توقيت الإعدام ليلة عيد الأضحى. وذلك التوقيت جعل من صدام حسين أسطورة سنية مقابل كربلاء الشيعية «. صفحة (١٤٩)

وجاء الفصل العاشر بعنوان « حساب الجمل والأفكار القيامية»

ويقول فيه: « أما محمود أبو الفخر، فكان متديناً ومحترماً، غير أنه مهتماً بتحليل الأحداث من خلال الأرقام والآيات القرآنية». صفحة (١٥٣)

ويقول عنه: « وكل ما اذكره أن أول ظهور لاسم محمود أبو الفخر في أوساط «فتح» كان في السبعينات. ومن خلال حساب الجمل حدد تاريخ انهيار اسرائيل، واليوم الذي ستنهار فيه، والساعة التي ستنهار فيها أيضاً، وحددها في سنة ١٩٧٤.وفي تلك السنة عقد المجلس الوطني في القاهرة». نفس الصفحة

ويؤكد ابو ميزر: « حركة فتح « مثل أي تنظيم آخر لا يمكن أن تؤرخ له بدقة متناهية. وأظن أن الحركات السياسية كلها تقريباً لا تؤرخ بالأفراد المؤسسين وإنما بتاريخ عقد المؤتمر التأسيسي». صفحة (١٥٥)

وعن المؤتمر التأسيسي لحركة فتح يجيب أبو ميزر: « التأسيس في عام ١٩٥٩ صحيح. لكن المؤتمر الأول عقد بعد حرب ١٩٦٧. في سنة ١٩٥٩ كان الاجتماع مجرد جلسة عادية ضمت أصدقاء كانوا يتداولون الشأن الفلسطيني، وقرروا أن يفعلوا شيئاً ملموساً لقضية فلسطين.

والمجتمعون كانوا خمسة اتفقوا على مواصلة الاجتماعات في سبيل تلك الغاية. وهم عبد الله الدنان وعادل عبد الكريم ومنير سويد ويوسف عميرة وتوفيق شديد علاوة على خليل الوزير(أبو جهاد).

ويقول أبو ميزر: «انسحب من الاجتماع الأول توفيق شديد كما هو معروف. وهؤلاء الخمسة اتفقوا أن يأتي كل واحد منهم بتصور محدد عما يعتقد أنه ضروري للعمل. وفي الموعد التالي تغيب اثنان ولم يحضرا إطلاقاً، فصاروا ثلاثة. صفحة(١٥٥-١٥٦)

وعند سؤاله عن متى صيغ هيكل البناء الثوري يتحدث أبو ميزر: « في سنة ١٩٦٢. وشارك في صوغه أبو اللطف،

وعادل عبد الكريم، وعبد الله الدنان، ومنير سويد، وأبو جهاد. وفي سنة ١٩٥٩ أصدر توفيق الحوري وهاني فاخوري في بيروت نشرة فلسطيننا – نداء الحياة، لذلك يرى البعض أن فتح أسست في سنة ١٩٥٩ «. صفحة (١٥٧)

وجاء الفصل الحادي عشر بعنوان « التجربة الجزائرية»

ويتحدث فيه ابو ميزر عن علاقته بالثورة الجزائرية وافتتاح مكتبي فتح وفلسطين بالجزائر وانقلاب بومدين الايجابي في علاقة فتح بالسلطة الجزائرية

والفصل الثاني عشر حمل عنوان: «من الجزائر إلى دمشق .... الانغمار في الثورة الفلسطينية»

ويقول أبو ميزر في هذا الفصل: « لم تكن هناك مؤسسة أو مرتبة تنظيمية اسمها اللجنة المركزية، ولا حتى بعد المؤتمر الأول. كانت القيادة عبارة عن مجموعة أشخاص ينشط كل واحد منهم في اتجاه. مثلاً لم يوجد قط مكتب للعلاقات الخارجية. وكنت أمارس عملي كمسؤول عن العلاقة بسورية والعراق والجزائر ثم ليبيا. وهذه الطريقة كانت سائدة حتى معركة الكرامة في ١٩٦٨/٣/٢١». صفحة (١٨٨-١٨٩)

ويجيب أبو ميزر حين سؤاله عن تأسيس مكتب العلاقات الخارجية: « أسس بعد معركة الكرامة، في نهاية عام ١٩٦٩. حينذاك تدفق كثيرون على التطوع في صفوف المقاومة الفلسطينية وفي صفوف حركة «فتح» بالذات، وإذا أراد أحدهم أن يقف في ساحة مسجد الحسين في عمان ومعه حافلة، وينادي « على فتح، على فتح»، لامتلأت الحافلة بالشبان المتطوعين». صفحة (١٩٧)

وجاء الفصل الثالث عشر بعنوان: باريس والدولة الديمقراطية العلمانية»

ويتحدث فيه أبو ميزر عن أيامه في باريس في سنة ١٩٦٨ في خضم ثورة الطلاب التي ساهمت في تأسيس اليسار الأوروبي الجديد ومفاهيمه الثورية، وكان أول ممثل لحركة «فتح» في أوروبا، وفي باريس أسس اللجنة العربية من أجل فلسطين. كما تحدث عن صوغه لإعلان الدولة الديمقراطية باللغة العربية وترجمته للغة الفرنسية وتسليمه إلى وكالة الأنباء الفرنسية واذاعته الوكالة في ١٩٦٩/١/١

ويرد ابو ميزر على الالتباسات الكثيرة التي حدثت في إعلان الدولة الديمقراطية: « لنبدأ بالتواريخ. أعلن البيان في ١٩٦٩/١/١، ولكن قبل ذلك أرسلت النسخة التي ترجمها محمد رضا مالك إلى فاروق القدومي في دمشق. وعلى الفور ذهب أبو اللطف وأبو أياد إلى علي كافي، السفير الجزائري في دمشق، وقالا له إن محمد أبو ميزر أرسل لنا هذا البيان، فما رأيك فيه. وعندما قرأ علي كافي النص اقترح عليهم أن يعلن فوراً. وهكذا أعلن رسمياً، أي إن أبو أياد اطلع على البيان الذي كنت أنا وراء صوغه. والمؤتمر الصحافي الذي أعلن أبو أياد فيه ذلك البيان كان في نيسان /ابريل ١٩٦٩ «. صفحة (٢١٣-٢١٤)

وجاء الفصل الرابع عشر بعنوان: «العودة إلى المشرق»

ويتحدث عن مغادرته باريس في خريف ١٩٦٩ والمهمات التي كلف بها وموقفه الرافض من الانشقاق

والعمليات التي نفذها وديع حداد، ومن أيلول الأسود.

ويقول أبو ميزر حين سئل عن موقفه من العمليات الخارجية التي نفذها وديع حداد وأيلول الأسود: « كنت ضدها دائما. فتلك العمليات هي عمليات أفراد، ولا علاقة لها بالثورة وبفكر التحرر الوطني «. صفحة (٢٢٨)

وعن تعرض فتح لانشقاقات من انشقاق ابو يوسف الكايد وسعيد المزين وابو سائدفتح الثورة وصبري البنا (أبو نضال) وانشقاق ٨٣ يجيب أبو ميزر: « أنا ضد الانشقاقات مهما تكن دوافعها. ولم يأت أي انشقاق بنتائج إيجابية قط. انشقاقات حزب البعث، وانشقاقات حزب الاستقلال المغربي وحزب الشعب الجزائري وحزب المؤتمر الهندي كلها كانت سلبية. وللتذكير فإن أولى محاولات الانشقاق عن حركة «فتح» كان على رأسها فتحي عرفات وكان انذاك في الكويت «. صفحة (٢٣١-٢٣٢)

ويقول أيضاً: « لذلك كنت دائماً ضد الانشقاق. وحاولت منع انشقاق صبري البنا وناجي علوش وأبو داود ومنير شفيق، وذهبت إلى بغداد مرات عدة، وناقشت أبو نضال وناجي علوش خصوصاً بعد اعتقال أبو داود في عمان في سنة ١٩٧٤. كنت اقول لهم: لماذا ننشق؟ دع اليمين ينشق. لكني فشلت، وانشق هؤلاء وألفوا تنظيماً جديداً كان ناجي علوش هو الأمين العام، وتولى صبري البنا موقع نائب الأمين العام، وانضم إليهم أبو داود ومنير شفيق «.صفحة (٢٣٣)

وعن سؤاله كيف تلقيت نبأ وفاة ياسر عرفات يجيب أبو ميزر: بحزن شديد جداً على الرغم من خلافاتي الكثيرة معه. وبعضها يصعب نسيانه «. صفحة (٢٣٦)

وفي خاتمة الكتاب، يقول ابو ميزر: «ومع أن التاريخ لم يُنصفنا بعد، إلّا إن العدالة لا بد أن تنتصر يوماً لا بقوة الحق وحده، بل بالقوة أيضاً. والخلاصة الحزينة على المستوى الشخصي هي أنني تمكنت من زيارة القدس في آذار/مارس ١٩٩٧. وحين تجاوزت حاجز الرام نحو القدس، أصبت بالدوار. وتكرر الأمر مرة ثانية في آذار/مارس ١٩٩٨. وفي أثناء ذلك زرت الخليل، ورغبت في قراءة الفاتحة على قبر والدي. وهناك بالقرب منه، شاهدت قبراً مفتوحاً، فسألت ابن أختي الذي كان يرافقني عن ذلك، فأجابني أن هذا القبر هو قبر ابن عمنا صلاح الذي استشهد في عام ١٩٧١، ورفضت السلطات الإسرائيلية تسليم جثمانه حتى اليوم، وخاطبني ابن اختي بقوله: لقد تعبنا يا خالي. أنت كنت مسؤولاً في حركة «فتح « وفي منظمة التحرير الفلسطينية، ألا تستطيع السعي لاسترجاع جثمان شهيد؟ فأجبته، والحسرة تملأ كياني: إن القيادة التي تعجز عن استرجاع جثمان شهيد كيف يمكنها أن تسترجع وطناً؟ وإسرائيل التي ترفض تسليم جثمان إنسان هل يمكن أن تسلم بعودة وطن؟ «. نفس الصفحة

يعد هذا الكتاب بمثابة سيرة حوارية لشخصية سياسية هامة في حركة فتح يكشف فيه عن الكثير من خفايا السياسات الفلسطينية ويسرد فيه تفصيلات نحو نصف قرن من الزمان عصفت فيه رياح هوج وسود وخفقت فيه آمال عظيمة ورايات إنسانية رفيعة.

كتب وتقارير

جهاد صالح ... مكتبة النكبة

أماني جهاد حمودة

ولد جهاد صالح في النكبة، عرف ذلك في سن العاشرة خلال زيارته بيرزيت مع والده حين اخبره وهو يبكي أنه ولد تحت زيتونة عند صخرة في جفنا، في ١٩٤٨/٥/١٥ خلال الهجرة من قرية العباسية الواقعة بالقرب من يافا، لذا كان جهاد صالح يقول دائما في اللحظة التي كان يرفع فيها علم اسرائيل على أرضنا، سقطت أنا من بطن أمي، في مفارقة مريرة، وقد هاجرت عائلة والده إلى مخيم الجلزون، وعائلة والدته إلى دير دبوان.

تربى جهاد في مدينة اربد في الأردن كل طفولته قضاها هناك بعد الهجرة مباشرة وكانت حياته قاسية جداً، فبعد أن وصلوا اربد لاجئين، كان والده لا يعمل، مثل كثير من الفلسطينيين المهجرين، فحاول جهاد أن يحضر المؤن لعائلته من الوكالة وقد أزعجه ذلك فلم يعد، فإضطر لمساعدة عائلته، فعمل في جمع الحديد، والأعمال الشاقة، وأيضا كاتباً في وزارة الزراعة مراقباً على الحبوب وتسجيلها، حتى ساهم في بناء منزل عائلته وتأثيثه.

وكانت أول مدرسة إلتحق بها مدرسة العروبة في اربد، كان متفوقاً منذ طفولته حتى الثانوية العامة وقد حصل على الشارة الخشبية الكشفية لأبي قير، والتحق بالنادي العربي، وبعدها أصبح همه الحركة الوطنية.

ويذكر أن أول معلم له كان اسمه علي عكاشة الذي كان يختار جهاد للخطابة وإذاعة المدرسة وهنا بدأ ينطلق، كما أن استاذه في الاجتماعات هو الذي نظمه في حركة القومين العرب حيث التحق بها مبكراً في عمر ١٤ سنة، وكُلف بتوزيع المنشورات الخاصة بالقوميين، وفي أحد المرات كشفه الأمن فتم اعتقاله واصطحابه إلى السجن الواقع بجانب مدرسته وتم التحقيق معه ولم يعترف، حيث كان عنيداً جداً وبقي كذلك، فكانت شخصية جهاد جادة حتى مع الأصدقاء من المدرسة حتى كبر، وكبر معه الهم الفلسطيني، وكان من المتأثرين بالقائد جمال عبد الناصر حيث كان القوميون منحازين له، وكان جهاد ورفاقه يجلسون بالساعات لسماع خطابات عبد الناصر الملهمة، وحين رحل عبد الناصر بكى جهاد ثلاث أيام متواصلة.

كانت المظاهرات تتصاعد في خمسينات القرن الماضي، حيث كان الوضع ملتهباً في الأردن وكان جهاد في

مقدمة مظاهرات منطقته وكليته، وعمل على توجيه الحركة الاحتجاجية .

وكانت من أوائل المجلات التي كتب فيها، مجلة عمان المساء، وكانت توزع في عدد من مناطق الأردن منها اربد فأصبح مصدر فخر لرفاقه ومنطقته، وزاد تعلقه بالكتابة.

جهاد له ١٢ أخ وأخت، ومن حبه لأخيه الأصغر اصطحبه معه إلى ساحات النضال وألحقه بالأشبال، حيث التحق بالعمل الفدائي مبكراً، والثورة الفلسطينية خلال دراسته الثانوية العامة، وبعد تخرجه شغل منصب مدير عام مؤسسة الشباب في الأردن، ثم مركز شباب عجلون، وبدأ العمل الفدائي ينمو، مما جعل كثيراً من التنظيمات والبؤر السرية تتصل بجهاد، حيث كان له موقع مع الأمير رعد، ومنذ التحاقه بحركة فتح ربطته علاقة قوية بأبو علي إياد بشكل مباشر، في التنظيم السري حتى اكتشف الأردنيون ذلك في بداية ١٩٦٨، وبدأت المضايقات له، بعدها استلم الأشبال بقرار من أبو علي اياد وانتقل إلى الشام وانتظم في صفوف حركة فتح في دمشق، وأخذ دورة في الكرامة في الاردن، وخلال عمله هز مشاعره كثير من الشباب الفلسطيني من لبنان حين كان أهلهم يطالبون بعودتهم ويرفض الأشبال العودة، فقام صالح بزيارة لمخيمات لبنان بدعوة من أبو علي اياد، وتعرف على الظروف الصعبة، وكان الهدف من الزيارة هو الاطلاع على الاوضاع، من خلال هؤلاء الأشبال الذين يجب رعايتهم.

أسس في سوريا معسكر (مصياف) وتم إعداد وتدريب الكوادر، وجاءت أحداث أيلول فتوقف عمل المعسكر في ١٩٧٣، انتقل بعدها إلى لبنان وكان عمله الأوسع وقاد قوات الميليشا العامة، وتطورت علاقته مع الحركة الوطنية واخذت في الازدياد، وعُين نائب مدير التدريب العسكري في لبنان، وتوسعت علاقته مع التنظيمات الفلسطينية، كل ذلك كان في آخر عشريناته من العمر، وكان من أصدقائه ماجد أبو شرار واعتبر نفسه أنه من مدرسته، حيث تأثر به كثيراً.

ولبنان كانت بداية حركة صالح الفكرية والثقافية، لأنها محور إعلامي وصحافي، وتولى جهاد عدة مواقع عسكرية، في رأس النبع، شاتيلا، والجبل، وأصبح له علاقات واسعة مع القوى والأحزاب الوطنية، وبدأ في ذلك الوقت يكتب عن العلاقات الإنسانية للمقاتلين، وذلك بعد معركة الجبل حيث تولد لديه وجدانيات كثيرة، فطلبه الشاعر محمود درويش الذي كان يشغل رئيس تحرير شؤون فلسطينية آنذاك، ومعه غازي الخليلي وطلبوا منه أن يكتب عن وجدانيات الجبل لتنشر في مجلة شؤون فلسطينية، وكتب أولها قصة الجبل والضباب، وأيضاً القوميون السوريون كانت لديهم مجلة فكر وطلبوا منه أيضاً أن يكتب لهم، ثم جمعها فيما بعد في كتاب واحد، وطبع ثلاث مرات خلال عام واحد، وكانت قصصاً واقعية وتوثيقية هامة، إلى أن اكتملت تجربته الكتابية والصحافية. ويقول عنه في هذا المقام الروائي الدكتور حسن عبد الله:» ولد جهاد كاتبا بعد سنوات من التحاقه بالعمل الفدائي ليكون شاهداً على تجارب إنسانية في الميدان جمعت بين البطولة والمعاناة وما أن تفتحت موهبته حتى راح يرصد قصص الفدائيين ويعبر عنها أدباً مزاوجاً بين

واجبه الفدائي في ساحات الاشتباك وبين واجبه الأدبي حين رأى ان فدائيته وقلمه مكملان لبعضهما.

ويذكر أن جهاد فقد كل أرشيفه وأوراقه الخاصة خلال قصف الاحتلال الإسرائيلي للعمارة التي فيها مكتب أبو إياد في بيروت وهي نفس العمارة التي كان يسكنها صالح، واستحوذت اسرائيل على ما تبقى من ذلك الأرشيف والذي كان يضم شهاداته الشخصية والدراسية والتي كان يعتز بها حيث كان دائما من المتفوقين.

قدم جهاد أول برنامج إذاعي للإذاعة الفلسطينية بعنوان حكايات أبو احمد وهو جده وكان يستقي ذلك من ذاكرة أمه القوية، وكان البرنامج حلقات ذات ايقاع مؤثر في ذلك الوقت.

وحين طرح موضوع جملة الإصلاحات في حركة فتح، تبنى هذا الموقف، لكن التجربة لم تنجح، حيث انحرفت عن مسارها، بسبب التدخلات الخارجية، بعدها تفرغ كلياً للكتابة، ولكن بعد اتفاق غزة أريحا عاد لأول مرة إلى غزة لزيارة أقاربه هناك، فطلبه القائد ياسر عرفات شخصياً في لقاء وصفه بجياش المشاعر، وهذا ما يؤكد أن أبو عمار كان زعيماً بكل معنى الكلمة وديمقراطياً حسب وصف جهاد، وعاد بعدها إلى العمل الوطني والتحق بالسلطة وعمل مديراً عاماً في وزارة الاعلام والثقافة، ثم التوجيه السياسي مع الأخ عثمان أبو غربية، وأصدر هناك الزاوية الثقافية.

وظف الكاتب طاقته وامكانياته في السنوات الأخيرة في العمل البحثي واصدر مجموعة من الأعمال الموسوعية منها الرواد المقدسيون التي نال عنها جائزة اتحاد الكتاب العرب ليتوج نشاطه الموسوعي في أجزاء عمل متكامل صدر في الشارقة وحمل عنوان راود النهضة الفكرية والأدبية واعلامها في فلسطين، وهو من أهم المحطات البحثية في تجربته.

كان الراحل جهاد أحمد صالح قاسم حميدات (أبو إياد)، باحث وأكاديمي وناقد، ترك العديد من الكتب والدراسات الأدبية المحكمة إضافة إلى العديد من المقالات في النقد الأدبي والسياسي، وهو حاصل على عدة جوائز عربية وعالمية، وترجم بعض أعماله إلى لغات عديدة. وقد كتب عنه الروائي والكاتب د.حسن عبد الله، في روايته دمعة ووردة على خد رام الله، وقد كتبت في حينه كيف شدتني قصة جهاد وهو صديق عرفته في اتحاد الكتاب وطريقة السرد التي كشفت تفاصيل مهمة في حياته من خلال هذا الكتاب، تظهر فيها بوضوح ملامح تأثر الكاتب حسن عبد الله وهو يسردها ولكن بموضوعية عالية وكأنه يتحدث عن اخ له ولدا سوياً لأم واحدة ولأحداث واحدة.

شارك في العديد من المؤتمرات والندوات الفلسطينية والإقليمية والعالمية، وكتب العديد من الأبحاث والدراسات في الصحف والمجلات المتخصصة الفلسطينية والعربية، أولها فلسطين الثورة وآخرها أوراق فلسطينية.

صدر للراحل عدة مؤلفات أبرزها: موسوعة «روّاد النهضة الفكرية والأدبية وأعلامها في فلسطين»، و»صفحات من حياة رفعت النمر»، و»الجزائر وتلمسان في كتابات المؤرخ الفلسطيني نقولا زيادة»، و»الجبل والضباب

(قصص)، و»سداسية ماجد أبو شرار»، و»رجل بقدم واحدة» (قصص)، و»الطورانية التركية بين الأصولية والفاشية»، و»خليل بيدس: رائد القصة القصيرة في فلسطين»، و»عاشقة العرب ليلى الأخيلية: تاريخ أدبي»، و»روسيا وفلسطين: العلاقات الروحية والثقافية منذ مطلع القرن العاشر الميلادي حتى بداية القرن العشرين»، وسلسلة الروّاد المقدسيين في الحياة الفكرية والأدبية في فلسطين في عشرين جزءاً.

وحاز جهاد صالح على جائزة دولة فلسطين للدراسات الاجتماعية والعلوم الإنسانية للعام ٢٠١٨ تسلمها من الرئيس محمود عباس، وحصل على عّدة جوائز، منها: جائزة «زهرة المدائن»، وجائزة «جمعية يوم القدس» في عمّان كأفضل بحث تاريخي عن القدس للعام ٢٠١٢، وجائزة «القدس» من قبل الأمانة العامة لاتحاد الكتاب والأدباء العرب عن كتاب «الروّاد المقدسيون في الحياة الفكرية والأدبية في فلسطين» للعام ٢٠١٢، وتم تكريمه من قبل وزارة الثقافة الفلسطينية بإطلاق كتابه «روّاد النهضة الفكرية والأدبية وأعلامها في فلسطين»، وجائزة هيئة شؤون الأسرى والمحررين الفلسطينية، كما تم اختياره الشخصية العامة الثقافية للعام ٢٠١٧.

وكتب عنه فيصل دراج قائلاً: «عمل جهاد صالح الذي انتجته التجربة الكفاحية لا الاختصاص الأكاديمي على جمع أطراف الذاكرة الثقافية الفلسطينية متوسلاً الإرادة والمثابرة والمعرفة» وأكمل في نفس السياق « تطلع جهاد صالح في عمله الموسوعي إلى أهداف ثلاثة كتابة السيرة الفكرية والأدبية الفلسطينية الممتدة من منتصف القرن التاسع عشر حتى اليوم... واثارة الهوية التي صاغتها أجيال متلاحقة من الكتاب والأدباء ارتضوا بأقدارهم المختلفة والتزموا بالدفاع عن فلسطين... والهدف الثالث هو الحفاظ على الذاكرة الوطنية التي تحولها المعرفة إلى طاقة مبدعة مقاتلة».

رحل جهاد صالح، اليوم الأحد ٢٠٢٣/١/٢٩، بعد مسيرة نضاليّة وبحثيّة وتأريخيّة للروايّة التاريخيّة الفلسطينيّة.

المراجع:

*وكالة الانباء الفلسطينية وفا، رام الله، ٢٠٢٣/١/٢٩

* حسام أبو النصر، قبلة على جبين حسن ووردة على خده، جريدة القدس، العدد ١٨٤١٨، القدس، ٢٠٢٠/١١/٢٣، ص١٣.

*حسن عبد الله، عاشق من فلسطين، خمسون تجربة ثقافية وابداعية فلسطينية، رام الله، مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الاسيرة، جامعة القدس، ٢٠١٨، ص٢١٩.

*حسن عبد الله، برنامج عاشق من فلسطين ، تلفزيون معا، ٢٠١٦/٥/٢٨

*حسن عبد الله، دمعة ووردة على خد رام الله، الكلية العصرية، رام الله،٢٠٢٠

*يوسف الشايب، رحيل المؤرخ والكاتب جهاد صالح، جريدة الأيام، العدد ٩٧٦٠، ص٩

* نجاح عوض الله، مقابلة مع تلفزيون فلسطين ، طفولتي ، ٢٠٢٣/٢/٥

رواية رولا صبيح (حياة بعد الموت)
محنة اللجوء السوري وتفكيك الأوطان العربية !

فراس عبيد

في ٢٩٥ صفحة من القطع المتوسط، جاءت رواية الروائية السورية الفلسطينية رولا صبيح (حياة بعد الموت) الصادرة عن الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، في طبعة أولى، عام ٢٠١٨ .

بناء روائي يبدو للوهلة الأولى بسيطا، لكن رويدا رويدا تنساب حكايات لجوء السوريين إلى دول الجوار والدول الأجنبية بعد أن طحنت الحرب الدائرة في سورية منذ العام ٢٠١١ أي أمل لهم في حياة كريمة وطبيعية في الوطن.

ولا تحتاج العين الناقدة لغير ثلاثين صفحة أولى من الرواية، لتمسك بمفتاح الرواية وخيطها وهو معاناة ملايين اللاجئين السوريين بعدما وجدوا أنفسهم بين عشية وضحاها مشردين في أركان الأرض الأربعة بلا وطن، وبلا مال، وبلا مأوى، وبلا مدارس وجامعات، وبلا رعاية صحية، وبلا أمان.

وتصمم الروائية (رولا صبيح) روايتها تصميا فنيا ذكيا يتيح لها أن تقول كل ما تريد عن الملحمة السورية المعاصرة، من خلال عشرات القصص التي يرويها اللاجئون السوريون أنفسهم بعد وصولهم إلى واحدة من أبرز محطات لجوئهم وهي أميركا - للباحثة الاجتماعية السورية (حياة) المقيمة في أميركا منذ عقود طويلة، التي تسعى لمعاونتهم من أجل التكيف مع المجتمع الجديد، ولإيجاد فرص عمل وتعليم لهم ولأبنائهم، ولعلاجهم من آثار الحرب المدمرة.

هكذا فتحت الروائية نوافذ قول وشكل مرنة، قوامها عشرات القصص المنفصلة داخل الرواية الأساسية، مكنتها من طرح كل ما يجول بخاطرها وخاطر اللاجئين السوريين تجاه وطنهم، من خلال خيط رابط بسيط بين تلك القصص هو خيط الباحثة التي تجمع الرواية الشفوية من أولئك الضحايا الذين تفكك وطنهم في يوم وليلة.

والحق أن هذا التكنيك الروائي الإبداعي قد وضع أرضا صلبة للرواية كي تدخل إلى أعماق البنية المجتمعية السورية لتتناولها من جميع جوانبها، بقالب روائي مكثف ومشوق، اعتمد على التوالد القصصي، وتنوع القصص، ومقابلتها بعضها ببعض، حتى يلتقط القارىء بنفسه الاستنتاج الذي يقنعه دون توجيه من الراوي.

رواية تعرية للذات العربية

في هذا النوع من الروايات سنجد الشخصيات تتحدث بشكل مباشر عن مكامن الخلل السياسي والثقافي والاجتماعي في وطنهم سوريا، الذي أفضى إلى كارثة اللجوء وتفكيك الوطن، إذ لم تدع الحرب والتشرد متسعا لأية مواربة أو تصنع أو خوف في قول الحقيقة كما هي، فالكارثة بحجم وطن تفكك، وبحجم ملايين السوريين المشردين واللاجئين للخارج.

فماذا قال السوريون المصدومون المنكوبون بعد تلك الخسارة الفادحة؟

وماذا قالت الرواية على ألسنتهم؟

بوعي نافذ، وطرح متكامل ومتنوع، يراعي إتاحة القول لكل الأطياف السياسية والمجتمعية السورية، تناولت الرواية عددا من المحاور الموضوعية والفكرية التي تعد أساسا لفهم المعضلة السورية، منها:

- محور احتكار العملية السياسية والحكم والاقتصاد : من فئة صغيرة، واستثناء غالبية الشعب من المشاركة السياسية والاقتصادية، وهو ما أدى إلى تدهور الحالة المعيشية والإنسانية للغالبية، وتمهيد الأرض لانفجار شعبي لا يبقي ولا يذر.

وتعبر الرواية عن اتساع المفارقة المجتمعية في الحالة السورية، فنجد أن الانقسام السياسي الحاد قد وصل للإخوة من أسرة واحدة، بين أخ مؤيد للنظام مستميت في الدفاع عنه، وأخت معارضة له نافية عنه أية إيجابية، كما في الحوار بين الأخوين (سامر) الذي ظل مقيما في سوريا بعد الحرب المدمرة، و(سلوى) التي هربت بأبنائها إلى أميركا لترد عنهم كل أنواع المخاطر والآلام:

" سلوى: وهل بما يمارسه نظامك من وحشية على أرض سورية، هو للحفاظ على وحدة الأرض والشعب؟ توقفوا عن الكلام المنمق الذي لا يحمل أي مضمون، أنت تردد كلام الإعلام السوري المضحك المستخف بالعقول، لماذا لا تعترف أن نظامك هو من أفرغ البلد من مثقفيها وكتابها ومبدعيها، من يجرؤ أن يعارضهم حتى في فكرة، لا يقبل هذا النظام إلا كل من يصفق له مرددا أكاذيبه، هل شاهدت يوما عملا تلفزيونيا أو سينمائيا حقيقيا ينتقد هذا النظام أو يفند عيوبه؟

نظامك هو الذي سيضيع هذا البلد بالزيف الذي عشناه بسببه.

سامر: أنت تخلطين الأوراق، نعم أنا أوافقك الرأي أننا عشنا فترة عصيبة منذ سبعينات القرن الماضي حتى بداية القرن الحادي والعشرين، عشنا ثلاثين عاما من القهر والحرمان لنعيد بناء الاقتصاد السوري، كانت فترة عصيبة فيها كثير من التحديات السياسية التي واجهها النظام السوري وانتصر عليها، ودارت عجلة الاقتصاد وأصبحنا دولة مصدرة تنعم بالاكتفاء الذاتي، سوريا دولة لا تعاني من المديونية، وبعد استلام بشار الحكم تغيرت ملامح الحياة في سوريا، حتى الأعمال الفنية التي أشرت إليها أصبحت تمس واقع المواطن وتتحدث عنه، وأصبحت تلك الأعمال تنافس الأعمال العربية الأخرى، لا أعرف سبب إصراركم على تعتيم صورة واقعنا؟! (حياة بعد الموت، ص ١٤٧).

- محور انحراف المعارضة السورية المسلحة عن أهدافها المعلنة : إذ تدخلت قوى عالمية متعددة في المعارضة السورية المسلحة ومعادلاتها ومساراتها، ناهيك عن المضامين الفكرية المتشددة جدا لهذه المعارضة تحت يافطة الدين، وهو ما أدخل ويدخل المجتمع السوري في نفق ثقافي واجتماعي مظلم. بالإضافة إلى تقديم الحماية المطلقة للنظام الحاكم من الحليف الروسي، وهما العاملان اللذان منعا سير نموذج الثورة الشعبية السورية على خطى نماذج ثورات الربيع العربي في مصر وتونس وليبيا.

وفي رواية اللاجىء السوري (نادر) ل (السيدة حياة) عن حكاية لجوئه وأسبابه ما جعلها تقول" تخيلت من كلامه وكأن سوريا ستنقلب على أيدي هؤلاء المتعصبين إلى أفغانستان، نعم نحن كعائلة ملتزمة ومتدينة ولكننا لا نشبه هؤلاء، نساؤنا محجبات ولكننا لا نخفيهن خلف النقاب أو نمنعهن من ممارسة حياتهن الطبيعية، فهن يقدن سياراتهن، وبناتنا يذهبن إلى المدارس وإلى الجامعات، ومعظم المعلمات اللواتي يدرسن في مدارس البنات في قريتنا هن من نساء قريتنا. لم أستطع أن أتخيل هؤلاء وهم يمنعون بناتنا من المشي في الشوارع أو التنزه، نحن لا نسمح بالاختلاط ولكننا لا نحبس بناتنا في أقفاص حديدية. لنا عاداتنا وتقاليدنا التي لا تشبه الغرب، وهذا ما يجعلنا نبتعد كثيرا عن الاختلاط بهم، أعتقد أن لكل مجتمع خصوصيته، وجبهة النصرة وغيرهم من المتشددين سرقوا منا ثورتنا.. فالكثير الكثير من ممارسات المتشددين تثبت لنا أنهم كانوا يحاربوننا ويحاربون معتقداتنا، وقتالهم لنا أشد من قتالهم لبشار الأسد نفسه." (حياة بعد الموت، ص ٧٣، ٧٤).

- محور سيطرة الثقافة العائلية المتزمته في المجتمع السوري الريفي : وهي ثقافة تطيح بحرية الفرد أمام مصالح العائلة وتوجهاتها، كما تحدد للأفراد شركاء حياتهم في الزواج دون أي اختيار منهم، وكذلك اختياراتهم في الدراسة الجامعية.

في حوار(السيدة حياة) مع اللاجئة السورية (جميلة) غيض من فيض عن التقاليد البالية القاهرة

الحاكمة للمجتمع الريفي والعائلي في سوريا تقول (جميلة) : " الكلام سهل يا أستاذة حياة، ولكن الواقع أصعب، عندما أفكر في بناتي زهرة وحسناء اللتين هما في سن الزواج، من سيتزوجهما؟ هل سنكسر عاداتنا ونزوجهما من أغراب؟ الغريب لا يعرفك ولا يقدر ابنتك. من سيتقدم لخطبتها هنا، سينظر لابنتك على أنها لاجئة ، فهو لا يعرف من هم أهلها، ولا مكانتهم. مهما قلت فلن يعرفك إلا من عاش معك. وإن ظلمت ابنتي فمن يعيد إليها حقها؟ هي ستكون وحيدة ليس لها سند. أما في درعا فخلفها عشيرة بأكملها، تحميها إن احتاجت، ولا تجرؤ أن تخطىء لأنها ستحاسب، ولكن هنا لو فتحت ابنتي الباب وخرجت، لا أستطيع حتى ردها.. ومن تقاليد الزواج في قريتنا أن تتزوج البنات من شباب العائلة، فلولا الحرب في سوريا لتزوجت بناتي من أبناء أعمامهن، كما تزوجت أنا من ابن عمي الذي هو ابن خالتي أيضا، ولكن الآن أصبح من المحال أن يتم هذا الزواج بعد أن تفرقنا في بقاع الأرض». (حياة بعد الموت، ص ١٠٢، ١٠٣).

محور التأويل التقليدي وغير المتجدد لمعطيات الدين : حيث لا يزال هذا التأويل متجمدا على عتبات كتب فقهية تم تأليفها قبل مئات السنين، مما يعيق تحرير الفرد فكريا واجتماعيا، ويصعب اندماجه في العالم المعاصر.

وفي حوار (سامر) مع خاله (أحمد)، وكلاهما لاجىء لأميركا إشارة مباشرة إلى الدور السلبي الذي يضطلع به الموروثان الدينيان الفقهي والتفسيري المغرقان في القدم، لمعطيات الدين السمح:

" سامر: درست على أيدي شيوخ لا يعرفون من الدين إلا قشورا تراكمت فوق الدين عبر دول الخلافة كما تحب أنت أن تسميها، بنت تلك طبقات فوق جوهر الدين لنعجز عن رؤيته. واعتقدت أن ما تعلمته منهم هو طريقي إلى الله، فأغلقت علي دائرتي وزادت في نظري المحرمات التي علي اجتنابها، فمصافحة النساء من المحرمات، والجلوس في المطاعم من الموبقات، وحتى عندما تعرفت إلى زوجتي التي هي طبيبة مثلي لم يكن صعبا علي إقناعها بأفكاري، ولكن بعد فترة تعبت من الأثقال التي وضعتها على كاهلي، فقررت أن أحفر في هذه الطبقات لعلني أرتاح، وعندما بدأت أقرأ بعمق وبنظرة محايدة، توصلت إلى أن طريق الله سهل لا يحتاج إلى هذا التعقيد الذي فرضته على حياتي، فلا أحتاج إلى لحية أطلقها لأقترب من الله، ولا لحجاب أفرضه على زوجتي ليرضى عني الله، ولن يعاقبني الله إن تحدثت معك يا خالي وأنت علماني، أفكارك تتنافى مع افكاري". (حياة بعد الموت، ص ٢٠٩).

- محور إنتاج التسلط بشكل شامل في المجتمع السوري وأمثلته :

الدولة تتسلط على الشعب

العائلة والتقاليد والتفسير المبتسرللدين، يتسلطون على الفرد

الرجل يتسلط على المرأة

المرأة تتسلط على الرجل

الفرد يتسلط على الفرد

حيث لاحظنا في الرواية ظاهرة طلاق الأزواج السوريين المخضرمين منهم في الزواج وغير المخضرمين، فور وصولهم لأرض اللجوء الأجنبية وخضوعهم لقوانينها، وكذلك ظاهرة اختيار الابن السوري اللاجىء مسارا مختلفا لحياته المهنية مغايرا لذلك المحدد له سلفا من قبل أبيه.. فقد أسقطت الحرب الأقنعة.

محور قمع حرية التعبير وحق الاختلاف : وتجريم المختلف وتخوينه، لصالح الحزب الواحد والفكرة الواحدة.

القيمة المعرفية لرواية (حياة بعد الموت)

تطرح الرواية سؤالا كبيرا على لسان (السيدة حياة) بنص حرفي: "هل كان على السوري أن يموت أو يتشرد ليتحرر؟."

لكنها تترك الإجابة للقارىء من خلال الملفات الدقيقة والشاملة التي فتحتها، على لسان أبناء الوطن السوري المنكوب، فهي تتحدث باسمهم وعنهم، مباشرة، وبلغة السرد الإخباري التي تتصف بالسهولة والمباشرة.

وهي بمنظور آخر وثيقة لغوية تاريخية اجتماعية إنسانية شاملة، عبر شكل روائي مرن، نجح في إخراج الأصوات المجتمعية المتعارضة معا، كما المكبوتات السياسية والدينية والعاطفية للاجئين.

فإذا قرأ قارىء عربي أو غير عربي هذه الرواية، فإنه سيلم إلماما كبيرا بأزمة المجتمع السوري التاريخية والحالية.

وفي هذه الرواية مادة معرفية اجتماعية ونفسية وثقافية وسياسية قيمة لمن يبحث عن خصائص الشخصية السورية وبواعثها السلوكية، وماضيها وحاضرها، وكذلك مستقبل اندماجها في المجتمع الغربي.

رسائل الرواية

تحمل الرواية رسائل معرفية مثيرة ومقلقة في آن معا، مثل:

ما حدث ويحدث في سوريا من حرب أهلية وتقسيم جغرافي وتشريد لشعبها، لم يخطر ببال أهلها حتى في أحلامهم.

لن تنجح ثورة سياسية بدون ثورة ثقافية على الموروث الثقافي المستبد.

ما حدث ويحدث في سوريا يمكن أن يحدث لغيرها من الأوطان العربية.

- التأويل المتشدد والمنغلق لمعطيات الدين السمح يمتد عبر الفضائيات الدينية والوسائط الرقمية ليطال أبناء المهاجرين السوريين المتعطشين للمعرفة الدينية في منافيهم.

- ضرورة قيام المجتمعات العربية بإعادة تأويل النصوص الدينية والفقهية بما يتلاءم والزمنين الحديث والحالي، وكلما تأخر هذا التأويل فإن إنتاج الاستبداد سيتواصل داخل البنية المجتمعية السورية والعربية، ليدمر حتى الحدود الدنيا من تماسك تلك البنية المجتمعية.

فهل يكون ميلاد (الوعي الجديد) لدى الإنسان السوري بعد الدمار الشامل الذي حل به وبوطنه، هو ما دفع رولا صبيح لعنونة روايتها بعنوان (حياة بعد الموت) ؟

وهل هذا الوعي شامل يطال مختلف مناحي الوجود السوري: السياسة والحكم، والثقافة والدين، والمجتمع والآخر؟

وهل اختيار الباحثة في نهاية الرواية العودة لوطنها سوريا رغم استمرار الحرب، علامة على أهمية استكمال البحث المعرفي في المحنة السورية؟ أم أنها علامة الحنين للوطن والملل من محاولة الاندماج في مجتمعات غربية لا تشبه الشخصية السورية والعربية ؟

في هذه الرواية سيعثر أي قارىء عربي على تفسيره الخاص للمحنة السورية والعربية، لأنه سيرى نفسه بشكل أو بآخر في روايات اللاجئين السوريين عن وطنهم وغربتهم.

موجعة هذه الرواية ! لأنها تعيد طرح الأسئلة الجوهرية على الإنسان العربي، أسئلة الحرية والعدالة الاجتماعية والتحرر من الموروث.

ولكن لا إجابة مبدئية في الرواية إلا في تمرد السوري والسورية على كل ما يكبلهما !

أما القارىء فيغوص مع الروائية رولا صبيح في ملفات الشخصية العربية التي فتحتها بصدق وبشفافية.

وهو قارىء يملك حقوق التفسير والتحليل، والاستنتاج ووضع الحلول، من أجل إنقاذ الشخصية العربية والوطن العربي، من محنه التاريخية والمستجدة !

هذه دعوة.. لقراءة هذه الرواية الأمينة على قضايا الإنسان العربي.

غادة الكرمي.. العودة إلى «الدولة الواحدة» كحل وحيد للصراع الفلسطيني الإسرائيلي

مهند ياسين

ترى الكاتبة والأكاديمية والمفكرة الفلسطينية غادة الكرمي، في كتابها الحديث «دولة واحدة: المستقبل الديمقراطي الوحيد لفلسطين – إسرائيل»، الصادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، أن المنطق يشير إلى أن مجرى الأحداث يجب أن يتجه إلى تشكيل دولة ديمقراطية واحدة بدلاً من دولة الفصل العنصري التي تتبنّاها إسرائيل»، وأن ذلك لن يحدث «بسبب جهود حركات التضامن والحملات الداعية إلى الدولة الفلسطينة فقط، بل من خلال مقاومة الناس الطبيعية للقمع الشديد الذي يؤدي، أخيراً، إلى الإطاحة النهائية بظالميهم»، مؤكدة أن إسرائيل «ستقاتل بضراوة، مثل كل الأنظمة الوحشية للحفاظ على الوضع الراهن»، وأن "من المفارقات الساخرة أن عنف الإسرائيليين وقصر نظرهم، وجشعهم، هي العوامل التي ستؤدي إلى النتيجة الختمية التي لا تسعى إسرائيل إليها، والتي قد تخط نهاية الصهيونية، وتنهي المشروع الإسرائيلي برمته".

ويدرس الكتاب مشروع «الدولة الواحدة» بتعمق، بما في ذلك بداياته وكيفية عودته إلى الواجهة، رغم الدعم الكبير، ليس فقط لإسرائيل، ولكن لفكرتها، والطريقة التي يمكن من خلالها تحقيق الدولة الواحدة، التي «هي الطريقة الوحيدة» التي يمكن أن يستعيد الفلسطينيون من خلالها حقوقهم المغتصبة بالرغم من معارضيهم، دون غياب تحليل طبيعة أيديولوجيا «دولة إسرائيل» والصهيونية، وتأثير «قيام إسرائيل» على العالم العربي الذي أقيمت فيه، والقبضة الإسرائيلية المُحكمة على اليهود، ومحاولات صنع السلام بين إسرائيل والفلسطينيين، علاوة على سرد لمبادرات «الدولة الديمقراطية الواحدة» في الماضي والحاضر.

ويستند الكتاب إلى آخر سابق للمؤلفة ذاتها بعنوان «متزوجة من رجل آخر» نشر في عام ٢٠٠٧،

وكان يعالج معضلة إسرائيل التي لا تزال عصيّة على الحل، وكيفية التوفيق بين وجودها بوصفها دولة لليهود، وبين وجود عدد كبير من الشعب الفلسطيني غير اليهودي في البلاد.

وترى الكرمي في "دولة واحدة: المستقبل الديمقراطي الوحيد لفلسطين – إسرائيل»، وترجمته إلى العربية ابتسام بن خضراء، أن التقدم لجهة أي حل «لن يتحقق إلا بالمضي قدماً نحو إنشاء دولة مشتركة تضم اليهود الإسرائيليين والعرب الفلسطينيين»، وهو كتاب يتمحور حول «هذه الدولة المشتركة، والعقبات التي تحول دون إقامتها، وطرق تحقيقها»، مشيرة إلى أن «الدولة الوحيدة ستكون نتيجة حتمية لنهج إسرائيل وللسياسات التي تتبعها على مدى سبعة عقود، وأن إسرائيل سترفض بشدة هذه الدولة المشتركة، لكنها ستكون عاجزة عن منع حدوثها».

ولتفصيل فرضيتها هذه تشير الكرمي إلى مرور «خمسة وسبعين عاماً على إقامة إسرائيل على أنقاض فلسطين، ونتيجة لهذا أجبرت عائلتي على الفرار من منزلنا في القدس، في نيسان/ أبريل ١٩٤٨، وكان إنشاء إسرائيل، الذي أعلن رسمياً بعد شهر واحد، بداية منفانا الطويل، وليس ذلك فحسب، بل صار ذلك التاريخ مناسبة يحتفل فيها شعب بطردنا من بيوتنا والحلول محلنا، وخلال العقود التي تلت، كنّا نراقب، بلا حول لنا ولا قوّة، الدولة الجديدة التي تنمو وتزداد قوة وسيطرة وهيمنة، لتصبح قوة إقليمية عظمى، حتى باتت إسرائيل اليوم دولة نووية ولديها جيش قوي، وتتمتع بدعم سخي لا محدود من الدول الغربية، وخاصة الولايات المتحدة الأميركية التي تزودها بالأسلحة المتطورة، وتتعاون معها في مجال الاستخبارات، وتقدم لها الدعم السياسي والدبلوماسي، ويعدّها الغرب جزءاً لا يتجزأ من العالم الغربي".

و"على النقيض من ذلك، فإن ضحايا إنشاء إسرائيل، أي الفلسطينيين أمثالي، الذين عانوا المرارة جرّاء خسارتهم كل شيء، لم يُلتفت إليهم أو يحظوا بأي رعاية أو يتمتعوا بأي مكانة خاصة، بل إن غالبية الدول العربية، باستثناء الجزائر، أخذت تنظر، بشكل أو بآخر، إلى الفلسطينيين على أنهم عبء أو مصدر عدم استقرار بالنسبة إلى شعوبهم».

وثمة إشارة مهمة في الكتاب إلى تناقض ما بين الموقفين الشعبي والرسمي من فلسطين وقضيتها حتى في الدول الغربية، فثمة قدر كبير من التعاطف مع الشعب مع الفلسطينيين، وهو ما يمكن ملاحظته، حسب الكرمي، بوضوح في الولايات المتحدة الأميركية التي نذرت نفسها لحماية دولة إسرائيل والدفاع عنها، مؤكدة أنه « بالرغم من أن هذه الظاهرة لا تزال خجولة في الوقت الراهن، فإن تضافر عوامل عدة سيساعد على اتساع رقعتها كالنشاط الفاعل في أوساط الفلسطينيين المنفيّين وداعميهم، واستخدام وسائل التواصل الاجتماعي، وتضامن مجتمعات السود وجماعات أصولية أخرى، علاوة على كون الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة على غزة، تساهم في كسب تعاطف

الجمهور العادي في الكثير من الأماكن، ما يساعد في حشد الدعم المؤيد للفلسطينيين.

وهذا الحشد المتصاعد يقلق إسرائيل، كما جاء في كتاب الكرمي، لذا تعمل والداعمون لها على مبادرات لإضعاف هذا التوجه، من بينها الدفع نحو جعل حركة مقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها (BDS)، غير قانونية في الدول الغربية، والعمل على تكثيف حملة ادعاء معاداة السامية، بهدف التشكيك في الدعم المقدم لفلسطين، واعتباره معادياً للسامية.

وتبعاً للواقع الحالي، حيث الوصول إلى نقطة اللاعودة لكلا الجانبين في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، فقد باتت إسرائيل مترسخة في الشرق الأوسط، دولة استيطانية قوية ذات موقع إقليمي قيادي، تنعم بالمساعدات والمزايا التي يُغدقها عليها العالم الغربي المتواطئ معها، والداعم لها، مهما كانت الجرائم التي ترتكبها، إلى جانب مقاومة فلسطينية لن تخضع رغم إمكاناتها غير المتكافئة والتي ليس بإمكانها تغيير الوضع الراهن في عالم عربي ضعيف ومفكك، تم تحييد جزء منه بفعل معاهدات السلام، ومع عدم تصور أي حل للصراع الفلسطيني الإسرائيلي في هذه الظروف، فلدى الجانبين أهداف لا يمكن التوفيق بينها، لابد من التنازل عنها، ولو جزئياً، لجعل إمكانية السلام ممكنة، وكان هذا الأمل في التسوية على أساس المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية منذ عام ١٩٩٣، والتي يتضح اليوم أنها باءت بالفشل.

وإذا سئل الإسرائيليون العاديون عن الكيفية التي يفضلونها لإنهاء الصراع، فمن شبه المؤكد، أنهم سيرغبون في اختفاء سحري للفلسطينيين من محيطهم، وإذا طرح على الفلسطينيين العاديّين السؤال نفسه، فإنهم سيرغبون في إعادة عقارب الساعة إلى ما قبل إنشاء إسرائيل، عندما كانت فلسطين بلدهم بلا منازع، ولكن لا يمكن تحقيق أي من الأمنيتين، لأن الواقع يؤكد أنهما يعيشان على الأرض نفسها، ويحتاجان إلى طريقة حضارية لتقاسمهما، وهو ما تجد فيه الكرمي المحرك الرئيس لحملات «حل الدولة الواحدة» التي ظهرت في العقدين الأخيرين، والذي مهما بدا أخلاقياً وعادلاً، فإن أي من الطرفين لا يريده، فالإسرائيليون لن يقبلوا بالفلسطينيين شركاء مساوين لهم في بلد اعتادوا على اعتباره خاصاً بهم وحدهم، والفلسطينيون الذي نشأوا على أن الإسرائيليين مغتصبون ومعتدون، سيجدون من الصعوبة بمكان العيش معهم بوصفهم مواطنين مساوين لهم,

ومع ذلك ترى الكرمي أن «الدولة المشتركة، هي الطريقة الوحيدة للخروج من المأزق، ليس لأن ذلك ما يريده أي من الطرفين، بل لأنه أمر حتمي»، مفسرة ذلك بأنه طالما بقيت إسرائيل ذات أيديولوجيا متحيزة عرقياً، وتتجه نحو مزيد من التطرف والعنف، فإن الوضع القائم والقادم سيكون متفجراً وغير مستقر، ويحمل في داخله بدايات انتفاضة مُقاوِمة أكثر عنفاً مما سبق أيضاً، وستضع إسرائيل أمام خيارات تهدد وجودها، خاصة مع توقعات تميّز المقاومة بالنضال المشترك،

ومع تكرر هذه الانتفاضات وارتفاع وتيرة شدتها، ستكثف إسرائيل قمعها ضد الفلسطينيين، وتسرع برنامجها الاستيطاني، وتحاول طرد الفلسطينيين وتجويعهم، ونتيجة لذلك ليس أمام الفلسطينيين إلا الاستمرار في المقاومة، وفي نهاية المطاف، وبعد الكثير من الفوضى وسفك الدماء، سيظهر وضع ثنائي القومية، قد لا يكون دولة بطريقة منظمة، ولكن سيكون».

ومع هذا السيناريو الذي تراه الكرمي قريباً، ستزداد وتيرة الهجرة المعاكسة من إسرائيل إلى الدول الغربية، خاصة من يحملون جنسيات مزدوجة وهم كثر، وأغلبهم من الأميركيين والأوروبيين، وسوف يتآلف السكان الإسرائيليون المتبقون من: الفقراء، والمتدينين المتطرفين، واليهود الشرقيين، والعديد ممن ولدوا في المكان، وشعروا أنهم لا ينتمون إلى أي مكان آخر، ويطوّرون وضعاً جديداً يقوم على دولة لليهود والفلسطينيين، لكن ليس من خلال عملية انتقالية متفق عليها، بل من خلال الفوضى والنزوح، وظهور لاجئين جدد، وموت العديد من الناس من كلا الجانبين، ففي النهاية، كل ما كان من الممكن أن تحققه التجربة الصهيونية، هو تأجيل الأمر المحتوم بدولة مشتركة إلى عقود قليلة.

وخلصت الكرمي إلى أن السيناريو أعلاه، «ليس مبنياً على تفكير حالم، ولا يمكن لأحد أن يستبعد قدرة إسرائيل الكبيرة على القتال، والسيطرة من موقع القوة والنفوذ العالميّين، ومع ذلك، فإن الوضع في فلسطين – إسرائيل، كان بطبيعته غير مستقر، ولا يمكن أن يستمر في شكله الحالي لفترة طويلة، وبطريقة ما فإن الوقت قد فات على إسرائيل لمواصلة استخدام التفكير القديم والأساليب القديمة».

صلاح محمد عبد الرؤوف، المطبعون ينتحون بالشريعة

منى عبد الفتاح رمضان

الطبيعي أن يكون الصراع على الوصول للقمة، لا إلى القاع، إلا أننا نشهد في الآونة الأخيرة، وعلى غير المألوف سباقاً للقاع، نرى فيه الرعاة يتسابقون إلى نزع ثيابهم، حتى ورقة التوت، سباقا لمزيد من الذل، إنه سباق « التطبيع»، والمُدخل الذي تُمنح من خلاله الشرعية لمُحتل مغتصب، يريد أن يجعل من ممارساته الإجرامية أمراً طبيعياً، وأن ينتزع اعترافاً وإقراراً بكائن استعماري، غُرس غرساً في قلب الأمة العربية، بل تجاوز ذلك إلى حد التغيير الجذري، والإلغاء الشامل للأمة العربية بتاريخها، وثقافاتها، وقيمها الأخلاقية والدينية. وبالرغم من أن « التطبيع» ومهادنة العدو يُعدان في الشريعة الإسلامية من المحرمات، والقبول بهما هو خروج على ما أصَّله فقهاء، وعلماء الدين من آراء فقهية، أوجبت الجهاد ضد العصابات الصهيونية وكيانها الغاصب. فإن بعض الشيوخ والفقهاء الذين انتحوا بالشريعة جانباً، قد أجازوا هذا العار وحللوه؛ بهدف تجميل الوجه القبيح لـ «التطبيع» ورعاته.

في هذا الشأن؛ صدرت مؤخراً، عن مركز الزيتونة للدراسات ورقة بحثية، للباحث صلاح محمد عبد الرؤوف، سبر من خلالها أغوار فتاوى الخزي، التي لحقت موجات «التطبيع» الثلاث الأخيرة؛ تصدياً لردود الفعل الشعبية المناهضة له.

هدفت الدراسة المكونة من ٤٢ ورقة، إلى التنبيه، والتحذير من محاولات الكيان الصهيوني وأوليائه لتغييب العقل العربي، وتزييف الوعي الديني، عبر فتاوى وآراء انتحت بالشريعة، بعيداً عن الحق، خلال موجات « التطبيع» المتتالية، كان كل منها أشد من سابقتها، سوءاً وانحرافاً .

بدأ عبد الرؤوف بعرض أُحادي المحور، عن أهمية فلسطين، وقدسيتها، من الناحية الدينية، نظراً لما سوف يتطرق له موضوع ورقته البحثية، من حكم الشريعة الإسلامية، وثوابت الكتاب، وصحيح الحديث الشريف، في مهادنة العدو و» التطبيع» معه.

دَلَّلَ بعدها الباحث بالأسانيد الشرعية، على مدى الخلل الذي أصاب فتاوى بعض شيوخ الأمة، مع أولى موجات»التطبيع «، والتي قص شريطها الرئيس السادات، خريف ١٩٧٧؛ تلك الفتاوى التي صدرت لمواجهة صدمة، وغضب الشعوب العربية والإسلامية.

كان على رأس هذه الفتاوى، فتوى للشيخ جاد الحق علي جاد الحق (مفتي نظام السادات)، في ١٩٧٩/١١/٢٦ والتي «غاب عنها الحق واختفى فيها الدين» (ص ٦)، حيث فَّند عبد الرؤوف تلك الفتوى فيما يقرب من عشرة محاور، نذكر منها أن فتوى الشيخ عبد الحق اقتصرت على إبراز الصورة الشاملة للإسلام، وضخَّمت بلغة دعوية، جانب السلم والمهادنة، واستخدمت نصوص الدين، في غير مواضيعها، كما تضمنت أحداثاً من السيرة، لا تمت بأي صلة مع القضية المستفتى عليها وأنزلتها منزلة الدليل الشرعي.

تلت فتوى عبد الحق؛ فتوى الشيخ الشعراوي والتي لم تختلف عنها كثيراً، خاصة حين اعتبرت أن مبادرة السادات ما هي إلا «جنوحاً للسلم». (ثمة حقيقة يجب إقرارها، أولاً، أن فتاوى «التطبيع «، والمهادنة للعدو، خروجاً على ما أصَّله فقهاء الأمة، من آراء فقهية، أوجبت الجهاد ضد العصابات الصهيونية، وكيانها الغاصب، وألزمت آحاد الأمة بالعزل التام للكيان، على كل الأصعِدة، من خلال المقاطعة؛ إدراكاً من العلماء بطبيعة الصراع مع العصابات الصهيونية؛ فهو «عدوٌ محاربٌ»، قد « أغار على وطنٍ من دار الإسلام، فاستولوا عليه بالقوة، واستبدوا بأمر المُلك فيه»، وأن أهداف العدو البعيدة، هي «السيطرة على الدول العربية والإسلامية كافة، والقضاء على عروبتها، وحضارتها"، ولتحقيق هذا الهدف، سعت هذه العصابات، أولاً، إلى "إقامة دولة يهودية بقُطر من أعز أقطار الأمة العربية والإسلامية، وهو فلسطين» ، و « تهويد هذه البلاد الإسلامية المقدسة، وإخراجها من أيدي أهلها، وإجلائهم عنها» ، وذلك من خلال « امتلاك أراضي فلسطين»، التي تعدُّ "القضية الأساسية"، وهذا كله يتم، بدعم من الدول الغربية، وبتأييد من المؤسسات الدولية، ومساعدة بعض أبناء الوطن).(ص ٢).

ألقى عبد الرؤوف الضوء على بعض الأحداث، التي هيأت الفرصة لإسرائيل بإحراز تقدم في مسار « التطبيع» ، ليدخل موجته الثانية، والتي امتدت من الانتفاضة الفلسطينية (١٩٨٧) ، وحتى وأد « الربيع العربي» سنة ٢٠١٣، حيث شهدت تلك الموجة مزيداً من السقوط، إلى هاوية «التطبيع» مع العدو الصهيوني. (ودعماً لاتفاقات تلك الموجة من « التطبيع»، كرّرت بعض الرموز الدينية، الفتوى السابقة ذاتها، بمضامينها، واستشهاداتها، دون مناقشةٍ لمآلات كامب ديفيد، وما تحقق من نتائج، وقياسها بميزان المصالح، والمفاسد، بل توقفت الفتاوى عند حدّ رصِّ الأدلة الشرعية، من نصوص، وآراء فقهية، وعبثاً حاولوا إلباسها ثوباً شرعياً، وإنزال مخرجاتها في منزلة الأحكام القطعية، ولأن تلك الحقبة، قد شهدت هرولة عربية نحو «التطبيع» مع الكيان الصهيوني، والتوقيع على

صيغ تفاهم، ونتيجة لعجز الرموز الدينية القُطرِية عن تحقيق تقدم ملموس، نحو القبول الشعبي «للتطبيع « مع الصهاينة، نظراً لعمق الشعور العربي، والإسلامي، الرافض لأي تعاون مع الكيان الصهيوني، وكذا لقوة الصوت الشرعي المقاوم للاحتلال، فاندفع اَلْمُطَبِّعُون لطلب الدعم من رموز دينية، لها ثقلها، على مستوى الوطن العربي، والعالم الإسلامي). (ص١٥).

هنا، لم ينس عبد الرؤوف أن يُدقِّق ويُمحِّص أهم رأي فقهي عاصر تلك الموجة من «التطبيع «، وهو رأي للشيخ عبد العزيز بن باز مفتي المملكة العربية السعودية في كانون الأول/ ديسمبر١٩٩٤، ذلك الرأي الذي أثار جدلاً واسعاً؛ لما احتواه من غموض، وصدمة كبيرة، فعقَّب عليه الشيخ القرضاوي، ما اضطر باز إلى نشر توضيح لفتواه في كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥. ومثلما عقَّب الدكتور القرضاوي على فتوى باز الصادمة، كذلك فعل عبد الرؤوف، من خلال ثلاث نقاط، وضح فيها ما اعترى هذه الفتوى من قصورٍ، وخلل بَيِّن، تجافى مع صحيح الكتاب والسُّنَّة.

كما أزاح عبد الرؤوف الستار عن دور بعض الشيوخ، والأئمة خلال، هذه الموجة، والذين تخطوا حد القول بإصدار الفتاوى الموالية للكيان، ورُعاته، إلى حد الفعل، والتَّوغُّل في المسار التطبيعي، كاستقبال الزيارات، وتبادلها مع مسؤولي الكيان الصهيوني، واستبعاد كافة الأحكام المرتبطة بفكرة الجهاد في الإسلام من المناهج التعليمية، والتركيز على أَبْعاد السماحة، والتعايش، وقبول الآخر. (شهدت الساحة العربية بعد اغتيال "الربيع العربي"، تغيّرات جذرية، عصفت بكثير من « التابوهات السياسية»، التي لطالما احتمت وراءها حكومات عربية، أمام الضغوط الأميركية، بشأن العلاقة مع الكيان الصهيوني، ما دفع الكيان الصهيوني إلى استثمار تلك الحقبة، لتحقيق قفزات نحو القبول العربي بدولة الكيان، نظراً لحالة الهزيمة النفسية، التي عمَّت الشعوب العربية، بعد انكسار الحلم نحو غدٍ أفضل، ومع حملات القمع غير المسبوقة، في أغلب الدول العربية، ونتيجة لحالة الانبطاح الكلي لدى حكومات عربية، والقبول بكل ما تحلم به «ماما أميركا»).(ص٢١)

عن الموجة الثالثة الأشد ضراوة لـ « التطبيع»، استعرض عبد الرؤوف هزلية الوضع الحالي، الذي شهد تحقيق تقدم في مسار»التطبيع» مع الدول العربية، وتكوين شراكات، إقليمية وعربية، كما شهد واحدة من أخطر الاتفاقات « اتفاق إبرهام»، الذي تمّ توقيعه في البيت الأبيض، بين الإمارات، والبحرين، والكيان الصهيوني، في ٢٠٢٠/٩/١٥، ضمن سياقات التحوُّلات التي تشهدها المنطقة العربية، وفي إطار الاستراتيجية الصهيونية، الرامية إلى ترسيخ شرعية وجودها، وطمس، ومحو الهوية العربية الدينية والإسلامية للمنطقة العربية بأكملها.

تحت نير هذا الوضع المنكر الذي قد يصيبنا باليأس، نجد عبد الرؤوف، وقد ألقى للقارئ بِطَوْق من الأمل، حين أكد على أنه، على الرغم من تصاعد موجات «التطبيع» الرسمي، من قِبل حكومات

بعض الدول العربية، فإن الشعوب العربية، بكافة فئاتها لم تزل ترفض هذا « التطبيع»، بل وتحول بين الكيان الصهيوني، وتحقيق أهدافه، الأمر الذي دَلل عليه عبد الرؤوف، في متن بحثه بالتفصيل، عندما أشار إلى بعض مواقف وردود أفعال، الكثير من فئات الشعوب العربية المختلفة، تجاه خنوع حكوماتهم، ولهاثها وراء عار المهادنة، و»التطبيع».

استمر، بعدها، عبد الرؤوف، من خلال عرضه لبعض الآراء الفقهية، اَلْمُؤَيِّدَة بالدليل الشرعي، والحُجة البالغة؛ في تفنيد، ودحض فتاوى، وخطايا علماء « التطبيع»، الذين دعموا وساندوا عدوهم بفتاواهم؛ فكانوا خنجراً طُعن به المقاوِمون، والمرابِطون على ثغر الأمة في فلسطين. (وبعد، فلعل ًتِلْك أعظم الخطايا لعلماء ودعاة ساندوا عدوهم بفتاواهم، فكانوا خنجراً طُعِن به المقاومون والمرابطون على ثغر الأمة الأكبر، قضية فلسطين، ووقف العدو الصهيوني رافعاً «القبعة» لأولئك المدلِّسين، تقديراً لما قدموه له من خدمات، عجز عن تحقيقها بنفسه؛ ويبقى أمل فلسطين معقوداً على المقاومة المشروعة بصورها المتعددة، وعلمائها المنادين بالحق، منتظرة هبَّة الشعوب العربية لتحريرها، فهل من مجيب؟). (ص٤١)

أخيراً، يمكن القول بأن هذا البحث جاء مساهمة، وإضافة بحثية، في غاية الأهمية، والجهد، لإلقاء الضوء على حكم الشريعة الإسلامية، وثوابت الكتاب، وصحيح الحديث الشريف اللذان حَّرما مهادنة العدو، والجنوح له.

كذلك، نرى أن عبد الرؤوف، نجح من خلال منهج تحليلي تفسيري، في تحقيق مسعاه، خاصة، حين استعان في توثيق متن بحثه، بالعديد من المراجع والكتب الوازنة، التي منحت ورقته البحثية الكثير من الثقة، والمصداقية.

إن الهدف النهائي، والحقيقي لـ «التطبيع» يتركز في الوصول إلى عقل المواطن العربي، ووجدانه، وضرب مناعته الدينية، والنفسية، ما يؤدي للقبول بـ «الإسرائيلي» والترويج لفكرة المشاركة مع الآخر «الإسرائيلي»، في شتى المجالات والقطاعات.

لذا، كان لِزاماً علينا جميعاً؛ التصدي لكل ما يستهدف عقائدنا، وقيمنا، وتراثنا الديني، والحضاري، من خلال اَلنُّخَب الفِكرية، والثقافية، والمنظومات التربوية، والمنابر الدينية، والأحزاب والنقابات، وشتى المنظمات الشعبية، حتى لا ينسى أولادنا أن فلسطين محتلة، وأن المسجد الأقصى أسير، وأن الكيان الصهيوني عدو، وأن المقاومة شرف وأن «التطبيع» تفريط بالحقوق.

تقرير المؤسسة

في استقبال الوفود الخارجية:

استقبل م. موسى حديد نائب رئيس المجلس الوطني الفلسطيني، عضو مجلس الإدارة المنتدب، ود. أحمد صبح مدير عام مؤسسة ياسر عرفات، ومحمد حلايقة مدير متحف ياسر عرفات، رئيسة الاتحاد البرلماني الدولي «توليا آكسون» رئيسة برلمان تنزانيا والوفد المرافق لها في فضاء ياسر عرفات، كما وضعت «آكسون» إكليلاً من الزهور على ضريح الرئيس الراحل ياسر عرفات، يوم الإثنين ٢٧/١١/٢٠٢٣، في مدينة رام الله.

وفي ذات السياق استقبل د. أحمد صبح، ومحمد حلايقة، وزير خارجية نيكاراغوا «دينيس مونكادا»والوفد المرافق له، يوم الأربعاء الموافق ٦/١٢/٢٠٢٣، حيث وضع إكليلا من الزهور على ضريح الرئيس الشهيد ياسر عرفات، ورافقه سفير جمهورية نيكاراغوا لدى دولة فلسطين «روبرتوا مورالیس هيرنانديز".

وأطلعهم د. صبح على تفاصيل العرض المتحفي الذي يروي أبرز الأحداث والتطورات والجوانب المتعلقة بالقضية الفلسطينية خلال الأعوام المائة التي سبقت استشهاد الرئيس ياسر عرفات.

وتأتي زيارة وزير الخارجية النيكاراغوي إلى فلسطين للتعبير عن دعم بلاده وتضامنها مع دولة فلسطين، في ظل الإبادة الجماعية الذي يتعرض له شعبنا خاصة في غزة.

كما استقبل كل من م. موسى حديد، ود. أحمد صبح، وزير خارجية البرازيل «ماورو فييرا» والوفد المرافق له في فضاء الرئيس الراحل ياسر عرفات، ليضع بعدها «فييرا» إكليلا من الزهور على ضريح الرئيس الشهيد ياسر عرفات، يوم الأحد الموافق ١٧/٠٣/٢٠٢٤، وتبعها بزيارة لمتحف ياسر عرفات.

في ظل الإبادة الجماعية على شعبنا في الضفة وغزة، مؤسسة ياسر عرفات تستلم رسالة تضامن من البوسنة والهرسك

إذ استلمت مؤسسة ياسر عرفات رسالة تضامن من مؤسسة الرئيس علي عزت بيغوفيتش في جمهورية البوسنة والهرسك، وتؤكد فيها على رفض وإدانة العدوان الإسرائيلي على شعبنا في غزة والضفة الغربية بما فيها القدس، وتترحم على الشهداء وتطالب بوقف العدوان.

الاجتماع السابع والخمسون لمجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات

عقد مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات اجتماعه السابع والخمسين وجاهياً للمقيمين في أرض الوطن وعبر الاتصال المرئي لمن هم في الخارج، يوم الأربعاء ٢٨/٢/٢٠٢٤، وترأس الاجتماع عضو مجلس الإدارة المُنتدب لمتابعة عمل المؤسسة مع إدارتها م. موسى حديد، وبمشاركة د. ممدوح العبادي رئيس مجلس أمناء

المؤسسة، وحضور مدير عام المؤسسة ومدير متحف ياسر عرفات.

وفي بداية الاجتماع تم الوقوف دقيقة صمت وقراءة سورة الفاتحة على روح الرئيس المؤسس ياسر عرفات وأرواح الشهداء في قطاع غزة والضفة، موجهاً التحية للأسرى الأبطال، ومتمنين الشفاء العاجل للجرحى. وناقش مجلس الإدارة مجمل القضايا والأمور المتعلقة بعمل المؤسسة في ظل الإبادة التي يتعرض لها شعبنا في قطاع غزة والضفة الغربية، كما ناقش أيضاً مجموعة من القضايا الداخلية استعداداً للدورة القادمة لمجلس الأمناء، وتوقف عند العدوان الشامل المستمر على شعبنا وخاصة في غزة وتدمير البنية التحتية والمباني بما في ذلك بيت الرئيس ياسر عرفات. واطلع المجلس على سير عمل المؤسسة من فعاليات ونشاطات وبرامج المؤسسة، وعن سير العمل في المتحف، واعتمد التقارير المالية والإدارية المقدمة، كما أقرّ برامج الفعاليات والنشاطات للفترة القادمة.

وأكد مجلس الإدارة على حتمية انتصار شعبنا ودحره للاحتلال، وإعادة الإعمار بإذن الله.

مؤسسة ياسر عرفات تُصدر كتاب «حياة لا تنسى» سيرة ومسيرة القائد المؤسس

صدر حديثاً عن مؤسسة ياسر عرفات كتاب «حياة لا تنسى» في نسخة تجريبية عن سيرة ومسيرة القائد المؤسس ياسر عرفات.

ويحتوي الكتاب، على ٤١ عنواناً مع ملحق من صور سيرة ومسيرة القائد المؤسس ياسر عرفات تروي أهم المحطات التاريخية في حياته، بدءاً من مولد ياسر عرفات في القدس تحت باب: «في البدء كانت القدس»، واختتاما بعنوان «الجنازة وداع يليق بـــ أبو الأمة".

ويتكون الكتاب، من ١١٩ صفحة من القطع المتوسط، وهذه نسخة تجريبة حالياً ليتسنى لاحقاً للذين عايشوا ياسر عرفات قراءته والإضافة والتعديل عليه ليكون فيما بعد مرجعاً رسمياً تُروى من خلاله حياة ياسر عرفات، وستصدر المؤسسة الكتاب بنسخته النهائية قريباً.

متحف ياسر عرفات يستضيف إحياء الذكرى الـــ ٣٤ للإفراج عن المناضل الراحل نيلسون مانديلا

استضافت قاعة المنتدى في متحف ياسر عرفات يوم الأحد ١٨/٢/٢٠٢٤، فعالية إحياء الذكرى الـــ ٣٤ للإفراج عن المناضل الراحل «نيسلون مانديلا»، بتنظيم من مفوضية المنظمات الشعبية والاتحادات والنقابات المهنية لحركة فتح، وحضور حشد جماهيري كبير.

كما تم عرض فيلم عن نيلسون مانديلا من انتاج مؤسسة ياسر عرفات، بالإضافة إلى معرض صور جمع بين الرئيس المؤسس ياسر عرفات والزعيم نيلسون مانديلا، كما بدأت الفعالية بالسلامين الوطنيين الفلسطيني

والجنوب إفريقي. وتأتي هذه الفعالية تقديراً لجمهورية جنوب إفريقيا وللراحل نيلسون مانديلا لدعمها ووقوفها إلى جانب شعبنا في نضاله في وجه حرب الإبادة الإسرائيلية.

ورحب د. أحمد صبح مدير عام مؤسسة ياسر عرفات بالحضور، وقال: «من قاعة المنتدى في متحف ياسر عرفات، وبالقرب من ضريحه نجتمع اليوم لإحياء الذكرى الـــ ٣٤ لتحرير القائد الأممي نيلسون مانديلا، وفاءاً له ولحزبه ولدولته وللعلاقة التي جمعته مع القائد المؤسس ياسر عرفات.

وأضاف صبح، نجتمع اليوم في ذكرى حرية مانديلا لنؤكد على عمق العلاقات المتينة بين دولة فلسطين وجمهورية جنوب إفريقيا التي بدأت قديماً منذ ياسر عرفات ومنظمة التحرير، وحركة عدم الانحياز وحركات التحرر في جنوب إفريقيا.

واستذكر صبح بعض الأمثلة التي جمعت بين عرفات ومانديلا منذ خروج الأخير من السجن عام ١٩٩٠، ليتواصل معه عرفات بذات يوم تحريره، ولقائه بعد أيام قليلة لتهنئته بحريته، وحضور تنصيب الرئيس مانديلا رئيساً لجنوب إفريقيا عام ١٩٩٤ ، والزيارة التاريخية لنيلسون مانديلا ١٩٩٦ لدولة فلسطين.

كما ذكر صبح المقولة الشهيرة لنيلسون مانديلا التي قال فيها: «نعلم جيداً أن حريتنا في الجنوب الأفريقي منقوصة من دون الحرية للفلسطينيين". وأكد د. أحمد أن مؤسسة ياسر عرفات لها ارتباطات وثيقة مع مؤسسات في دولة جنوب إفريقيا منها مؤسسة مانديلا وبينهما تعاون وثيق.

وشدد صبح على العرفان لمانديلا ولحزبه ولشعبه ودولته لما قدمته لمساندة شعبنا وقضيتنا لتجسيد استقلالنا ووقف الابادة الجماعية التي نتعرض لها.

ومن جانبه أكد القائم بأعمال سفارة جنوب أفريقيا في فلسطين على عمق العلاقة التاريخية والنضالية بين جنوب إفريقيا وفلسطين، والتي ترتكز على قيم مشتركة برفض الظلم والاحتلال والعنصرية، وعلى العلاقة الوثيقة بين الزعيمين عرفات ومانديلا، وعلى استمرار هذه الروابط مع الرئيسين محمود عباس وسيريل رامافوزا.

كما شكر القائمين على هذه الفعالية لإقامتها وما تلعبه من أهمية في تثبيت العلاقات الثنائية.

ومن جهته قال قدورة فارس رئيس هيئة شؤون الأسرى والمحررين إن الحضور الكبير للقائد مانديلا أحد أهم قلاع الثورة هو مصدر إلهام لكل القادة الفلسطينين.

وأضاف فارس كنا نشعر كفلسطينين أن مانديلا مسجون بالقسم الملاصق لنا في السجون الاسرائيلية، و حريته أعطتنا الأمل في التحرير. وتابع استشهد عرفات ومات مانديلا قبل أن يكتمل حلمهما في تحرير فلسطين، ولكن عليهم أن يرتاحوا لأننا مستمرون في النضال.

قال د. محمد الشلالدة وزير العدل، بحرية مانديلا تم تحرير بلاده التي كانت ترزح تحت نظام فصل عنصري، والتاريخ خلد اسمه كمناضل أممي وأيقونة للحرية على مستوى العالم.

وأضاف الشلالدة إن العالم يحفظ أسماء القادة الذين عملوا على تحرير بلادهم وليس القادة الذين استعمروا البلاد وسرقوا خيراتها. وأكد على الأهمية السياسية والقانونية لما قامت به جمهورية جنوب أفريقيا من إقامة الدعوى على الاحتلال لارتكابه حرب إبادة جماعية ضد شعبنا في قطاع غزة.

إدارة مؤسسة ياسر عرفات تضع إكليل زهور على ضريح الشاعر محمود درويش

وضعت إدارة مؤسسة ياسر عرفات، يوم الأربعاء الموافق ٢٠٢٤/٣/١٣، إكليلاً من الزهور على ضريح الشاعر الكبير محمود درويش، وقراءة الفاتحة على روحه، في الذكرى الثالثة والثمانين لميلاده.

يأتي ذلك تقديرًا للدور الكبير للشاعر درويش في بناء الهوية الأدبية والوطنية الفلسطينية والقومية العربية، ودوره في حمل رواية الشعب الفلسطيني وقضيته العادلة للعالم.

مؤسسة ياسر عرفات تحيي ذكرى ميلاد شاعر الثورة محمود درويش

أحيت مؤسسة ياسر عرفات، يوم الأربعاء ٢٠٢٤/٣/١٣ ذكرى ميلاد شاعر الثورة وسيد الكلمة محمود درويش، في قاعة المنتدى بمتحف ياسر عرفات.

وبدأت الفعالية بالنشيد الوطني الفلسطيني، والوقوف دقيقة صمت وقراءة الفاتحة على روح الرئيس الراحل ياسر عرفات والشاعر محمود درويش، وجميع شهداء فلسطين.

ورحب د. أحمد صبح مدير عام مؤسسة ياسر عرفات بالحضور، قائلاً: إن هذه الفعالية تأتي ضمن برنامج «في الذاكرة الوطنية-رفاق الدرب»، الذي تُنفذه المؤسسة للسنة الثالثة على التوالي وتُسلط الضوء فيه على رموز وقادة من المؤسسين ورفاق درب الرئيس الراحل ياسر عرفات، مشيراً إلى أن هذا العام سيتم أيضاً إحياء ذكرى ميلاد أبو علي مصطفى وماجد أبو شرار وسليم الزعنون. وتابع صبح من قاعة المنتدى وبالقرب من ضريح الرئيس المؤسس ومن خندقه الأخير تقوم المؤسسة بإحياء ذكرى ميلاد شاعر الثورة وسيد الكلمة محمود درويش تكريماً ووفاءً له، ولما قدمه لفلسطين وقضيتها، وبكلمات ومشاعر درويش نلتقي اليوم لإحياء ذكراه، ومع استمرار القتل والتدمير والتجويع نصّر على حقنا في الحياة ما استطعنا إليه سبيلا.

واستعرض صبح بعض الجوانب والصفات لمحمود درويش، قائلاً: « لم يكن شاعراً عادياً فقد أقام الدنيا وأقعدها حيث حلّ، إنه ظاهرة وصناعة وطنية من طراز نادر»، مستذكراً حادثة: «ليس طبيعياً أن يملأ شاعر ملعباً رياضياً كما فعل درويش ابن البروة في دمشق»، كما استذكر أيضاً أن أهم وثائق شعبنا المعاصر اتسمت بجماليات وابداعيات محمود درويش في خطاب ياسر عرفات أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ١٩٧٤، كما اعلان الاستقلال عام ١٩٨٨ في الجزائر.

وعرضت المؤسسة فيلماً من انتاجها بعنوان «شاعر الثورة وسيد الكلمة» يستعرض سيرة ومسيرة الشاعر محمود درويش واسهامته في الثورة الفلسطينية.

من جانبه ألقى كلمة مؤسسة محمود درويش عضو مجلس أمنائها الكاتب والقاص محمد علي طه شكر فيها مؤسسة ياسر عرفات على هذه الفعالية، وما قاموا به من إحياء لذكرى ميلاد محمود درويش سيد الكلمة.

وتابع طه، نلتقي اليوم بجانب طائر الفنيق ياسر عرفات، وصاحب ريشة الإبداع الفنان محمود درويش ونستذكر صفاته بأنه الشاعر الفذ صاحب الكلمة والنثر والشعر التي ارتبطت بالأرض والوطن والمهجر والمنفى، ليحرس الوطن بكلماته. وقال طه: «إن علاقتي ترتبط بدرويش منذ زمن بعيد ٥ عقود وأكثر، بدأناها بتعلم الكلمة في مقاعد الدراسة في الداخل المحتل وبكل مراحل حياته وصولاً إلى العودة لأرض الوطن".

وأضاف إن الاحتلال الإسرائيلي كان يخاف من قصيدة محمود درويش، وحاربوها في الداخل المحتل ووصفوه بالمحرض منذ كتب قصيدة سجل أنا عربي.

وأنهى طه كلامه، كوننا فلسطينيين لن نغادر ولن نرحل، وأننا على درب محمود درويش.

ومن جانبه قال محمد بركة رئيس لجنة المتابعة العليا للجماهير العربية في الداخل المحتل، إن هذه الفعالية ما هي إلا شكل من أشكال الرقي التي تتمتع بها الدولة الفلسطينية ومن متحف ياسر عرفات نحتفل بالشاعر محمود درويش ونضعه بمكانة الزعماء.

وأضاف بركة، في هذه الظروف الصعبة التي تمر على شعبنا بكل أماكن تواجده وخصوصاً غزة، نتكئ على كلام وشعر محمود درويش ليخفف عنا وطأة ما نعيشه. واصفاً ذلك بأن الضحية تواجه تبهيم القاتل ووقتها نستعين بزهر اللوز. وتابع إن الصهيونية الغاشمة لا تسمح لدرويش ولا لأي فلسطيني أن يتمادى في شعره وكلامه، وهنا أذكر ما قاله درويش عن غزة، وإن سألوك عن غزة قل لهم: إن بها شهيد، يسعفه شهيد، يصوره شهيد، يودعه شهيد، ويصلي عليه شهيد، هذا حال الفلسطيني الموجود في غزة.

كما أكد بركة على ضرورة الوحدة الفلسطينية الداخلية قائلاً:» لن أتنازل من على أي منبر أصعده ومن هنا، من منبر ياسر عرفات ومحمود درويش.. أتسائل؟ ما الذي يجب أن يحصل كي نستعيد وحدتنا؟

كما ألقى كلمة أصدقاء محمود درويش الكاتب والسياسي نبيل عمرو قال فيها، إن سلوك محمود درويش في الحياة مختلف تماماً عن غيره، فهو حرٌّ في كلامه إلى أبعد حد ورسم حياة خاصة لها.

وأكد عمرو على أنه لا يوجد شاعر ولا كاتب صور حالتنا الفلسطينية العميقة في كل تفاصيلها بأدق العبارات والمشاعر كمحمود درويش، فهو كما وصفه أحد الأصدقاء «صاقل الماس".

واستذكر عمرو بعضاً من القصص الشخصية عن درويش وهي، علاقاته الجيدة والمتميزة مع كل كتاب واتحادات الكتاب، وهو ذو قيمة عالية على مستوى العالم.

والقصة الأخرى عن الزيارة الأخيرة لوالدته في الداخل الفلسطيني المحتل وما امتزجت به من مشاعر.

والقصة الأخيرة كيف كتب محمود أهم خطاب للشعب الفلسطيني «إعلان الاستقلال»، فقد كتبه بمفرده.

وعن علاقته المتينة بياسر عرفات استذكر عمرو كيف اعتبر أبو عمار محمود درويش بالوردة الثقافية وأراد أن يزين بها اللجنة التنفيذية بها.

وحضر الفعالية أعضاء من اللجنتين التنفيذية لمنظمة التحرير والمركزية لحركة فتح وأعضاء من المجلس الثوري وشخصيات اعتبارية عديدة، وكتاب. كما تتضمنت الفعالية معرض صور بعنوان «صور من الذاكرة الوطنية للراحل شاعر الثورة وسيد الكلمة محمود درويش".

مؤسسة ياسر عرفات تُكرم الرئيس البرازيلي «لويس دا سيلفا» بمنحه عضوية شرف في مجلس أمنائها

كرمت مؤسسة ياسر عرفات الرئيس البرازيلي «لويس آناسيو (لولا) دا سيلفا»، بمنحه عضوية شرف في مجلس أمناء مؤسسة ياسر عرفات، اليوم الأحد الموافق ١٧/٣/٢٠٢٤، في قاعة المنتدى بمتحف ياسر عرفات.

وسلم درع مؤسسة ياسر عرفات وشهاة العضوية رئيس وزراء حكومة تسيير الأعمال د. محمد اشتية، ورئيس المجلس الوطني الفلسطيني روحي فتوح، ونائب رئيس مجلس أمناء المؤسسة دلال سلامة، وعضو مجلس إدارة منتدب لمتابعة عمل المؤسسة م. موسى حديد، ومدير عام مؤسسة ياسر عرفات د. أحمد صبح، لوزير خارجية البرازيل «ماورو فييرا»، بحضور أعضاء من اللجنتين التنفيذية لـمنظمة التحرير والمركزية لحركة فتح، وبعض الوزراء والسفراء والدبلوماسيين، وممثلي الفصائل والمؤسسات.

وقال مدير عام المؤسسة د. أحمد صبح مرحباً بالموجودين، نستقبل وزير خارجية دولة صديقة وممثلاً لرئيس شجاع يقف مع الحق والعدالة والسلام والقانون الدولي، ويدافع عن حق الشعب الفلسطيني بوقف العدوان وإنهاء الاحتلال وتجسيد الاستقلال في دولته المستقلة، في متحف ياسر عرفات وعلى مقربة من ضريحه حيث كان خندقه الأخير. وأضاف صبح مع استمرار الإبادة الجماعية ضد شعبنا في غزة ومحافظات الوطن، ودخول الحرب في يومها الـــ ١٦٣ وارتفاع عدد الشهداء والجرحى والمفقودين إلى ١١٥ ألف، والتوغل في القتل والتدمير والتجويع خلال شهر رمضان، نرى مواقف مشرفة عبرت عنها الشعوب بمظاهرات عارمة، وتميزت مواقف دول وحكومات نعتز بها ونثمن مواقفها وخاصة في البرازيل وجنوب افريقيا وفنزويلا وتشيلي ونيكاراغوا وكولومبيا وعديد المواقف المشرفة الأخرى، وعلى الرغم من ذلك لازال هناك من يرفض الدعوة لوقف النار ويستمر بتوفير الأسلحة والأموال والحماية للمعتدي.

واستذكر صبح بعض اللقاءات بين عرفات ولولا، إذ كان اللقاء الأول بينهم في تونس عام ١٩٩١، كما التقيا في برازيليا أثناء زيارة عرفات للبرازيل عام ١٩٩٥، كما زار الرئيس لولا رام الله عام ٢٠١٠ وأعلن اعتراف

البرازيل بدولة فلسطين في هذا التاريخ وافتتاح الرئيس محمود عباس مع الرئيس لولا الشارع حيث نحن اليوم وحيث ضريح ومتحف الرئيس أبو عمار وتسميته باسم شارع البرازيل.

وأشار صبح إلى أن البرازيل ومعها دول أميركا الجنوبية عموماً تقف مع الحق الفلسطيني وتحتضن الجالية الفلسطينية وتسهم في تعزيز أواصر العلاقات بين الشعبين، مؤكداً أن شعبنا يقدر ويثمن ذلك.

وأشاد رئيس وزراء حكومة تسيير الأعمال د. محمد اشتية بمواقف الرئيس البرازيلي، معربا عن أمله بأن يكون التكريم «عنوانا للصداقة الدائمة بين الشعبين".

وأوضح اشتية أن الشعب الفلسطيني يكن الكثير من التقدير والعرفان للبرازيل قيادة وشعبا، منوها إلى موقف البرازيل المساند للشعب الفلسطيني، وكونها أولى الدول التي اعترفت بدولة فلسطين.

كما أشار إلى موقف الرئيس البرازيلي المناهض للعدوان الإسرائيلي على قطاع غزة، مشيرا إلى أن «الشعب الفلسطيني يواجه حرب إبادة لا مثيل لها". وقال: إن صوت الشعب الفلسطيني يسمع في كافة عواصم ومدن العالم، وإن البرازيل في قلب كل فلسطيني، وأن الشعب الفلسطيني لن يستسلم، وسيظل يتمسك بخيار العدل والسلام، وإقامة دولته وعاصمتها القدس.

من جانبه، عبر وزير خارجية البرازيل «ماورو فييرا»، عن سعادته بزيارة فلسطين مجددا، مستذكرا زيارة دا سيلفا لها في عام ٢٠١٠.

وأثنى على مبادرة مؤسسة ياسر عرفات، مؤكدا حيوية مساهمتها في إعلاء شأن القضية الوطنية حول العالم.

وقال: «نحن سعداء بأن نكون عضوا فخريا في المؤسسة، تعبيرا عن صداقتنا، ودعمنا وتضامننا مع الشعب الفلسطيني، وإننا نجتمع اليوم، في وقت فيه حزن كبير بسبب الحرب، وإننا نؤكد تضامن حكومتنا مع الشعب الفلسطيني خاصة في قطاع غزة. وأضاف الوزير البرازيلي إن ما يحدث من استهداف للمواطنين المدنيين ومحاولة منع وصول المساعدات إليهم في القطاع غير قانوني وغير أخلاقي، وغير مشروع، وكذلك هدم المستشفيات والملاجئ، وإن هذا الدمار الذي نشهده لم نره من قبل.

وقال: نحن نريد توقف هذه الحرب، وينبغي على إسرائيل الالتزام بالقانون الدولي، وعدم استخدام الجوع والعطش كسلاح، وإن هذا هو الوقت الذي يحتاج فيه الشعب الفلسطيني أكثر ما يكون للعمل الجاد، ونحن ملتزمون كدولة بالمساهمة في النضال ضد هذه الأعمال الإجرامية التي تقترفها إسرائيل.

وأكد التزام بلاده بمواصلة حث الأمم المتحدة على زيادة اهتمامها، وإجراء التحقيقات اللازمة حتى يتحقق السلام، وتتوقف الهجمات على المدنيين.

وقال: يجب أن نصل لقرارات يتم فيها وقف هذا الانتهاك المرعب لحقوق الإنسان في غزة.

وتخلل الاحتفالية التي استهلت بعزف النشيدين الوطنيين لفلسطين والبرازيل، عرض مقاطع مصورة، تبرز جانباً من تصريحات الرئيس البرازيلي المساندة للشعب الفلسطيني.